دكتور أنور عبد الملك

الإبداع والمشروع الحضاري

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No 491 — No — 1991

العدد ٤٩١ - ربيع ثان - نوفمبر ١٩٩١

FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشا

سوريا : ١٤٠ ليرة ، لبنان : ٢٧٥٠ ليره ، الكويت : ١ دينار ، الاردن : ٢ دينار ، السعودية : ١٢ ريالاً ، تونس : ٢ دينار ، المغرب : ٢٥ درهماً ، البحرين : ٢٠٠ر١ دينار ، الدوحه : ١٢ ريالاً ، دبى/ابوظبى : ١٢ درهماً ، مسقط : ٢٠٠ر١ ريال ، غزة والضفة والقدس : ٢ دولار ، الجمهورية اليمنية : ٣٥ ريالاً ، لندن : ٥٠ر١ جك .

الابداع والمشروع الحضارى

بقلم
د. انور عبد الملك

دار الهلال

الغلاف للفنـان :
حـلمى التـونى

تقديم

•• إلى رسالة شادي عبد السلام
(١٩٣٠- ١٩٨٧) المشرقة الذى منح
قلوبنا الرؤى ، من « الفلاح الفصيح »
و « المومياء » إلى « جيوش الشمس »

« قف فلن تغنى
لقد نوديت باسمك ،
ولقد بعثت من جديد .. »

جاء تحرك مصر وسوريا لكسر الانكسار يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ليتحدى ركود الفكر والارادة ، وكذا الآمال والأحلام . فهل ، ترى ، يمكن أن يكون الممكن ممكناً ؟ هل فى استطاعة مصر ، فى قلب العالم العربى ، أن تستعيد مسيرتها صوب النهضة ، بعد انكسار حرب يونيو ١٩٦٧ ؟ هل يواكب عبور القناة والبدء في استرداد سيناء انجاز مماثل فى ميدان الثقافة ، والفكر ، والمعرفة ، والاشراق الحضارى ؟

هل يمكن أن يصبح الممكن ممكناً ؟

هل يمكن أن تحقق مصر ، فى قلب دائرتها العربية ، أهداف ورؤى أكتوبر ؟

كان هذا هو التساؤل المركزى منذ ١٩٧٣ ، ولايزال ، رغم عمق التقلبات وسرعة ايقاعها فى السنوات الأخيرة .

فى هذا الجو ، جو التحدى التاريخى حقيقة ، وانطلاقا من أرضية التساؤلات ، وتراكم التحديات ، وتجلى الممكنات الكامنة ، وكذا عوامل الإحباط والصد والتنكر ، شاهدت مصر وأمتنا العربية اجتهادات ومحاولات للاجابة وشق قنوات للرؤى الجديدة التى بدت وكأنها من المستلزمات الموضوعية لواقع تاريخى جديد - قديم فى آن واحد ، ابتعد منذ سنوات النكسة ، ثم عاد الى التجلى .

من هنا كانت كتاباتنا المتناثرة بين المؤتمرات والندوات ، والمجلات حينا ، وكذا فى اطار المؤسسات العربية والدولية المركز القومى

للبحث العلمى ، باريس « اليونسكو » ، « الجمعية العالمية لعلم الاجتماع » وعلى وجه التخصيص ، وخاصة « جامعة الأمم المتحدة » . طوكيو وقد جمعنا الجزء السياسى - الجيو - سياسى منها ، فى الأساس فى كتابنا « ريح الشرق » (١٩٨٣) الذى رأى فيه عميد حركتنا الوطنية الراحل الكبير فتحى رضوان آنذاك دعوة الى صحوة حضارية . وها هو جزء ثان من الدراسات والبحوث المعنية أساسا بالثقافة والفن وضعناها فى مرحلة ١٩٧٣ و ١٩٩٠ ، تكمل « ريح الشرق » ، وتركز على المفاهيم والقضايا التى يمكن أن نعتبرها العمق التكوينى (الاستراتيجى ، فى مجال الثقافة والفكر) لتحركنا السياسى الذى كان آنذاك مرتقبا وممكنا ، صوب ارساء ركائز نهضتنا الحضارية بوصفها الوجهة والهدف والغاية والأمل .

كانت هذه الأرضية المشتركة - ولاتزال - ساحة للتلاقى والاختلاف . التلاقى من حيث ادراك الممكن ، أو على الأقل جزء منه ، أى امكانية الافادة من تحريك التاريخ المتجمد

(ظاهريا) بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ من أجل تحقيق تقدم ملحوظ ، أو حاسم ، فى عملية فك الحصار المضروب حول مصر باسم « التخلف » والاختلاف من حيث منهج تناول التحرك فى الظروف التاريخية الجديدة .

الفريق الأول ، التقليدى ، الغالب ، رأى أن العملية تنحصر فى اطار « التنمية » ، بوصفها المفهوم السائد فى النظر الى مجموعة البلدان المتخلفة اقتصاديا بنسب مختلفة عن مجموعة الدول الصناعية المتقدمة - « العالم الثالث » حسب تعبير مجموعة دول المركز ، أو « الثلاث قارات » (أسيا ، افريقيا ، أمريكا اللاتينية) حسب التسمية المتفق عليها فى مؤتمر هافانا ، فى الستينيات فى أعقاب مؤتمر باندونج . « التنمية » ، أى اللحاق بركب الدول المتقدمة صناعيا ، وهى العملية التى تقتضى بالضرورة السير على نفس المسار رأسماليا كان (« السوق الحر ») أم اشتراكيا (« الاقتصاد الموجه ») . وفى كلتا الحالتين ، يمثل الاقتصاد المكانة الأولى

من حيث التأثير والفاعلية . من هنا ، من هذا النهج الثنائى البنية (التقليد / التكرار ، مقرونا بأولوية الاقتصاد) سادت مفاهيم « نقل » ، نقل العلم ، نقل التكنولوجيا ، نقل المعرفة ، وهو موقف له ما يبرره فى مرحلة لم تزل فيه الهيمنة الاقتصادية الاستراتيجية ، السياسية ، الفكرية - بين أيدى مجموعة دول المركز الأوروبى - الأمريكى الغربى ، وقد بدأ اليابان يصعد الى المكانة الأولى بسرعة خارقة خاصة فى مجال الاقتصاد والتكنولوجيا .

ثم بدأت محاولات من نوع مغاير ، لم تنكر بطبيعة الأمر واقع علاقات القوى فى العالم ، ولا حتمية التنمية . ولكنها رأت ، أولا ، أن تكون التنمية اجتماعية - انسانية ، لا تقتصر على البعد الاقتصادى . ثم أضافت أن هذا الموقف يعنى أول ما يعنى الاعتماد على الذات ، أى تفهم خصوصية المجتمع القومى (الأمة) ، أى الذات الفاعلة ، لا الأداة (الموضوع) المستهدفة ، بغية الاهتداء الى خير السبل لتعبئة الطاقات

المرصودة ، وكذا الكامنة ، للتعجيل من التحول الفعال صوب الهدف المتكامل للتنمية الاجتماعية - الانسانية الذى حددته الأمم صاحبة التاريخ الراسخ فى الأجيال بأنه النهضة الحضارية .

من حق القارىء أن يسأل ، ويتساءل : ترى ما هو موقع هاتين الرؤيتين ، المنهجيتين ، من حركة الأحداث ، منذ ١٩٨٩ ، وخاصة بعد عام ١٩٩١ الذى شاهد زلزالا سياسيا وفكريا غيّر ولا شك جذريا الكثير من المسلمات والأفكار التقليدية .وعندنا أن جوهر الموضوع ، بيت القصيد ، للاجابة عن هذا السؤال ، التساؤل الملحّ انما يكمن فى نظرنا الى مسار التاريخ العالمى ، وآثاره على أرضنا المصرية والعربية . التاريخ لم يبلغ طريقا مسدودا كما ادعى من قالوا بـ « نهاية التاريخ » . لم يبلغ ، ولن يبلغ أبدا طريقا مسدودا ، وإلا لانتهت حركة الانسان والمجتمعات البشرية ، وراحت تتجمد نحو الأفول .

ومن ثم ، وبشكل أقرب الى جو السؤال التساؤل ، يمكن ، بل ويجب ، فهم المتغيرات

الجـذرية الجارية ، فى عالم الواقع المجتمعى – السياسى وعالم الفكر ، على أنها تمثل فى مجموعها مرحلة تحول ، وعلى وجه التحديد مرحلة تغيير العالم ، وكذا مرحلة صياغة عالم جديد فى كافة المجالات والقطاعات ، وفى جميع أركان المعمورة ، وخاصة تلك التى ارتفعت فيها حدة التناقضات الجدلية والصراعات المترتبة عليها الى درجة عالية متصلة – وخاصة المنطقة الأورو – آسيوية (أوروبا – آسيا) ومصر ، مركز العالم العربى ، فى قلبها .

ومن هنا ، ومن هذا الموقف فى تناول اشكالية السؤال – التساؤل ، يصبح ممكنا ، بل ولزاما علينا ، أن نحدد التوجه العـام فى تنـــاول أمور التطـور الانســانى بأنه « عــود الى الأركان » ، عود الى الجذور ، عود الى المعانى والمفاهيم التكوينية الرئيسية .

من هنا كانت الدراسات والمحاولات التى رأينا أن نجمعها فى هذا الكتاب محاولة للاسهام فى تأمين واثراء تحركنا المستقبلى انطلاقا من تأكيد

المحاور التكوينية الرئيسية فى ساحة فهم العلاقات العضوية المتشابكة بين « التنمية » و « النهضة الحضارية » . وهى ، فى الوقت عينه ، تأمل أن تكون إسهاما جادا متواضعا فى توجيه حركة الفكر فى مصر والعالم العربى نحو التناول الحضارى لقضايا التطور والتقدم وصياغة المستقبل .

وختاما ، وقبل أن تبدأ هذه الصفحات رحلتها مع اخوتى واخوانى على أرض الوطن والأمة ، أرى لزاما علىّ أن أسجل هنا صادق معانى الوفاء للأستاذ مصطفى نبيل ، رئيس تحرير سلسلة « كتاب الهلال » ، الذى شاء أن يستضيف هذا الكتاب بالترحاب فى اطار هذه المكتبة الثقافية الجادة متصلة العطاء ، وكذا للأستاذ عادل عبد الصمد ، سكرتير التحرير ، الذى ساند هذا الجهد بكل اخلاص وكفاءة .

خطوات فى طريق صياغة أفكار العالم الجديد

والله ولى التوفيق .

القاهرة ، أكتوبر ١٩٩١

أ . د . أنور عبد الملك

الفصل الأول

الثقافة والتنمية

١ - « التنمية » ، أو « الظاهرة الانمائية » مفهومان يعبران عن النظرة المعاصرة - أي النظرة في مرحلة مابعد الحرب العالمية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ - إلى عملية « التقدم » ، التي سادت الربع الثاني من القرن العشرين ، تحت تأثير الفكر والعمل الاشتراكي ، بعد ما يقرب من قرن كان فيه التصور الرئيسي ، المفهوم المركزي ، هو « التطور » . وبهذه المناسبة ، لعله يجدر علينا أن نذكر حركة الانتقال الموازية فيما يتعلق بتصور النظام العالمي من « العالمية » في مرحلة الثورات البورجوازية ، والصناعية ، عصر التنوير والتجميع ، إلى « الاممية » في عصر ظهور الحركة الاشتراكية في المغرب حتى « العالمية - الشمولية » بعد صعود الولايات المتحدة إلى مكانة الهيمنة الاستعمارية في الغرب على أنقاض هيروشيما والاستعمار الاوربي التقليدي .

يندرج هذا التطور البيّن في اطار استقرار نظام عالمي يؤكد مركزة القرار بين أيدي الغرب المهيمن منذ القرن الخامس عشر ،

عصر الاكتشافات الكبرى ، والاستعمار التقليدى ، حتى يالطا
مرحلة اتسمت بتزايد فى معدل سيطرة المجتمعات الانسانية
المتقدمة اقتصاديا على منابع الثروة وكذا ساحات تراكم المجتمعات
المتخلفة - « العالم الثالث » - كما أطلق علينا منذ ١٩٥٥ - عبر
جسور من الحروب الدامية حتى انفجار الحرب العالمية الكبرى
١٩٣٩ - ١٩٤٥ . كانت هذه مرحلة « عالمية العالم » ، أى انشاء
النظام العالمى بمعنى الكلمة بعد أن كان مفهوم « العالم »
محصورا فى اطار التصور الفلسفى ، دون أن يتحقق ماديا وعمليا
فى العلاقات بين الدول والامم والمجتمعات والشعوب . تراكم
هائل اذن فى الممتلكات ، والامكانات ، والترابط ، وعمليات
التفاعل المتشابكة فى كافة المستويات والقطاعات عبر
مناطق العالم الجيو - سياسية ، أو بالأحرى الجيو - ثقافية ،
فى كل من الاطارات الحضارية الكبرى التى تندرج فيها قوميات
الشرق والغرب .

لم ، اذن ، مفهوم « التنمية » ، « الانماء » ، « الظاهرة
الانمائية » ؟

لو كان التراكم متسقا ، مطرادا ، بل ومعدلاته فى تزايد
مطرد، يشمل كافة أنحاء المعمورة بشكل متباين ، نعم ، ولكنه فى
نهاية الامر شمولى ، لربما استقر المقام عند حد « التراكم » أو

« التطور » أو « اطراد التقدم » أو غير ذلك من المفاهيم أحادية البعد ، ذات الجو والمغزى الكمى ، اللا - اشكالى .

ولكنما عجلة التاريخ الجبارة لم تكن أحادية البعد ، رغم النظرة المشتركة للفكر العربى الليبرالى المهيمن من ناحية ، والفكر الغربى الاشتراكى فى القرن التاسع عشر ، من ناحية أخرى ، والتباين بينهما يتركز فى كيفية السيطرة على فائض القيمة التاريخى ، فاما بين أيدى أقلية طاغية مستغلة ، واما لصالح الاغلبية الشعبية الكادحة .

ثم هبت ريح الشرق على وجه التحديد ، ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر ، ومطلع القرن التاسع عشر ، فى وجه الموجة الغربية ، توكيدا لارادة مجتمعات وطلائع شعوب الشرق الحضارى - فى العالم العربى ، الاسلامى ، الآسيوى - وكذا ، وبشكل مغاير ولكنه مشابه أيضا فى أمريكا الوسطى والجنوبية ، ارادة توكيد الذات ، والسيطرة على المجال الداخلى ، الوطنى أو القومى ، والسعى ، حسب الظروف والامكانات والمبادرات ، خاصة فى عصرنا ، لتحقيق مختلف أنواع المشاريع - من « المشروع الاجتماعى » إلى « المشروع القومى » حتى المستوى الأعلى ، مستوى « المشروع الحضارى » . وقد تلت هذه الموجة العارمة من حركات الاستقلال ، والتحرير ، موجة مغايرة ، مظهرا لكنها فى الجوهر مواكبة من حيث

المرمى ، ألا وهى موجة الحركات والثورات الاشتراكية ، ابتداء من أكتوبر ١٩١٧ .

كذا تحول العالم : الاستقلال والتحرر فى معظم القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، والاشتراكية وقد عمت نحو نصف المعمورة ، وفى اطارها غالبية عظمى ، نحو ثمانين فى المائة فى قارات وأقطار لا - غربية ، تعكس الآية ، وتعدل دفة التغيير : ذلك أن « الثورة العلمية والتكنولوجية » ، وهو اللقب الذى أطلق على المرحلة الثانية من الثورة الصناعية ، بدت وكأنها تفتح من جديد طريق التراكم المطرد ، اللا - نهائى ، وتقدم مفاتيح انجاز بل ومشروعية فلسفية جديدة للتقدم ، والتطور .

ومن خلال هذه العوامل الثلاثة - صحوة ونهضة شعوب الشرق ومجتمعاته ، الثورات الاشتراكية ، الثورة العلمية والتكنولوجية - بدأ تغيير النظام العالمى ، بشكل واقعى فعلى . ومن خلال هذا التغيير ، ظهر بوضوح قاطع أن « عالمية العالم » تمثل مفهوما اسطوريا لواقع العالم الواقعى : عالم الهيمنة ، من ناحية ، يزداد ثراء واستقطابا لمفاتيح وامكانات الانتاج والاستهلاك والسيطرة بالسلاح والعلم والتكنولوجيا والفكر والاعلام ، وعالم آخر ، « العالم الثالث » ، يتبدى على شكل مجموعة غير متناسقة من المناطق الجيو - سياسية والجيو - ثقافية ، تنقصها اما الطاقة ،

واما الموارد الانتاجية الواسعة ، واما تراكم الكادر العلمى والتكنولوجى المنتج الفعال ، واما مركزة الجمع بين السلطة الوطنية والثقافة الخلاقة التى وحدها تقدم معانى الابداع فى كل مجالات الفكر والعمل . أى فى كلمة : تبدى بوضوح أن غالبية العالم فى تخلف عظيم بالنسبة لقلة المجتمعات المهيمنة ، والتى بدأت تصارعها مجتمعات أقل تقدما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، انضوت تحت لواء الاشتراكية ودخلت فى طور التقدم المتعجل ، وكذا الصراع المباشر واسع النطاق من أجل تأكيد مكانتها فى جبهة الطليعة .

من هذا التباين المتزايد بين الجبهتين - جبهة عالم الأقلية المهيمنة ، وغالبية العالم التابع - نشأت اشكالية اللحاق بركب التقدم . بالتحرر والاستقلال والتغيير ، بل والثورة ، فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، نعم . ولكنما الاوفق ، هكذا جاءت أجواء العلوم الاجتماعية الغربية المهيمنة ، تتساقط رويدا رويدا على العالم التابع أو المتخلف ، فى ثوب مقبول ، معقول ، يجمع بين الطرح الاخلاقى ، وتأكيد الرغبة المشروعة فى اللحاق بالركب بـ « التنمية » كلقب وعلم لهذا المسعى المقبول ولمشروع العالم الجامح .

بقية الامر معروفة تماما ، لا داعى لتكرارها هنا .

فقد انتقلت فكرية التنمية أو الانماء ، من المستوى المادى ، أى من الاقتصاد ، إلى المستوى الاجتماعى - السياسى ، حيث بلغت مشارف العلم والتكنولوجيا بحيث أصبح مفهوم « التنمية الثقافية » أو « الانماء الثقافى » مفهوماً مقبولاً من كلا الطرفين . ولكن بمعان ومشاريع وأدوات متباينة تماما ، وفى الكثير من الاحيان متناقضة ، متصارعة . أى بشكل جدلى تاريخى على وجه التحديد .

هكذا يتجدد هدف هذا البحث المقتضب : كيف يمكن تفهم التغير الثقافى فى اطار عملية التنمية ، أو فى عبارة أخرى : كيف يمكن تفهم المتغير الثقافى فى اطار الظاهرة الانمائية ؟

٢ - سؤال أول يطرحه تعبير « المتغير » الثقافى . ان استعمال هذا التعبير أى « المتغير » variable ، يحدد أن الهدف من البحث هو أخذ البعد ، العامل ، أو العنصر الثقافى فى الاعتبار ، بوصفه بعدا أو عاملا وعنصرا تكوينيا لعملية التغير ، أو التغير لعملية الانماء والتطور ، والتقدم .

الا أن هذا التعبير ، تعبير « المتغير » تحيل بشكل مباشر إلى أن المقصود هو الغيرية ، أو التغيير ، لظاهرة محددة . ومن هنا يصبح السؤال الأول : هل صحيح أن الثقافة - بوصفها بعداً ، وعاملا ، بل وعنصرا تكوينيا للظاهرة الاجتماعية - يصيبها التغير ، التغيير ؟ ولو كان الامر كذلك ، ففى أى حدود ترى ، وعلى أية صورة .

ان التغيير ، كواقع يتحقق فى اطار العملية الاجتماعية ، عبر التاريخ ، هو بعد تكوينى لهذه العملية ذاتها ، فى كافة المجتمعات والحضارات والعصور . وهذه البديهية ، بدورها ، تنقلنا إلى التساؤل عن حدود التغيير ، وكيفيته ، أى - بعبارة أخرى : تنقلنا إلى دراسة خصوصية التغيير ، وبالتالى خصوصية الثقافة كمتغير داخل عملية التطور التاريخى . ومعنى هذا أن الثقافة ، بوصفها « متغير » ، عامل ، وعنصر تكوينى للتغيير - جزء لا يتجزأ من عموم ظاهرة « الخصوصية » ، أى خصوصية كل من المجتمعات المحددة موضع الدرس .

وقد أكدت نتائج الدراسات المقارنة لعملية تطور المجتمعات فى مختلف اطاراتها الحضارية والجيو - ثقافية عبر التاريخ ، أن معدل التغيير والتطور ، وكذا اتساعه وعمقه وزوايا تحركه ، أى وجهته ، متباينة تماما حسب ظروف يحددها مفهوم الخصوصية والاطار العام لنظرية التفاعل الجدلى بين الخصوصية والعالمية ، كما بيناه فى الاعمال المنشورة تباعا منذ ١٩٧١ ، ابتداء من الدراسات الميدانية التى نشرت منذ ١٩٦٢ .

وباختصار شديد ، ومادام الامر يتعلق بعالمنا العربى ، فان معدل تواجد ، وفاعلية ، ظاهرة خصوصية المجتمعات التى يتكون منها عالمنا العربى - أى طاقاتها الكامنة ، وامكان تعبئتها للتحرك

والتحريك ، للثبات والتطوير ، للاستمرارية والتغيير - تنتمى إلى المستوى الاكثر كثافة ، نظرا لبعد المجال التاريخى لمعظم المجتمعات القومية التى منها تتكون أمتنا العربية . وهنا أيضا ، وجب التدقيق : ذلك أن المجتمعات القومية لكل من مصر والمغرب خاصة تتسم بمستوى عال جدا من إعمال هذه الخصوصية ، نظرا لعمق تواجدها فى التاريخ ، بينما المجتمعات الاكثر حداثة ، وخاصة المجتمعات البدوية منها ، تتسم بقدرة أكبر على المزج بين الاستقرارية المحافظة من ناحية والتشكل السريع تحت تأثير التحديث من ناحية أخرى ، كما أن المجتمعات القومية الحضرية أكثر حداثة من المجتمعات الأقدم ، تقف فى منزلة بين المنزلتين ، وتقدم أنماطا متنوعة من المزج بين عنصرى الاستمرارية والتغيير ، أى أن خصوصيتها مشابهة فى الكثير من الأحيان إلى خصوصية الشريحة الوسطى الاكثر اتساعا فى القارات الثلاث « آسيا ، أفريقيا ، أمريكا اللاتينية » ، اللهم الا الصين وايران .

ومعنى هذا : ان ظاهرة مجتمعات العالم العربى تحتل مكانة متمايزة ، رفيعة المقام ، بين مختلف الخصوصيات العاملة فى عالمنا اليوم - على تباينه وبأخذ الحالات المتمايزة فيه فى اعتبار جاد - وذلك ، من ناحية ، نظرا لان عددا من المجتمعات القومية فى عالمنا العربى ما قبل الاسلام تمت إلى أقدم مجموعة المجتمعات

القومية فى العالم ، ومن ناحية أخرى ، لأن الاطار العربى - الاسلامى منذ القرن السابع الميلادى - الاول الهجرى ، اتسمت بكثافة حضارية متسقة ، تزايدت عمقا واتساعا عبر ثلاثة عشر قرنا من التاريخ .

وعلى هذا ، نرى أن الثقافة - أو « المتغير الثقافى » لو أردنا استعمال هذه العبارة - تلعب دورا مركزيا فى خصوصية العالم العربى، وبالتالى فى عملية الانماء ، والتقدم ، والتطوز فى كافة معالم وأبعاد هذا العالم اليوم .

٣ - نعود إلى المفهوم السائد لعملية التغير ، أو التغيير الثقافى فى قالب اطار التنمية ، كما تعرض له العلوم الاجتماعية ، وعلى وجه التدقيق اقتصاديات التنمية وعلم اجتماع التنمية ، فى الغرب المهيمن اليوم .

نقطة البدء فى كافة اتجاهات الفكر الاجتماعى الغربى هى : ان الغرب هو النمط الامثل ، للتقدم منذ القرن الخامس عشر . وبالتالى ، فان الهدف هو اللحاق به ، أيا كانت نوعية النظام الاقتصادى - الاجتماعى والسياسى - الفكرى الذى تختاره مجتمعات القارات الثلاث ، وان كان التأكيد دوما على أن الاختيار الافضل هو اختيار المجتمعات الرأسمالية المندمجة فى السوق العالمية .

ومما يدعم هذا الاتجاه المشترك - لكافة مدارس الفكر والعمل المعنية بالدراسات الاجتماعية فى الغرب - أن الهوة التى تفصل بين المجتمعات الصناعية المتقدمة من ناحية ، والمجتمعات المتخلفة، أو النامية ، من ناحية أخرى ، تزداد باطراد ، أو هكذا يبدو من دراسة مؤشرات مثل : معدل النمو الكمى للدخل الفردى ، تراكم المديونية ، مؤشرات الاسكان والصحة ، وكذا التعليم الاولى ، نسبة المشاركة فى التجارة العربية ، الخ .. وهذه المؤشرات والمعدلات تخفى ، فى الكثير من الاحيان ، عوامل تكوينية ، مركزية ، من حيث التأثير على عملية التنمية ، ألا وهى : طموح وانجازات المشروع القومى فى عدد من الدول المحورية فى القارات الثلاث ، اما بشكل مطرد (اليابان والصين) ، أو فى مراحل معينة من التاريخ الحديث المعاصر (مصر ، الهند ، الجزائر ، البرازيل ، نيجيريا ، المكسيك ، وبوجه عام شرق آسيا وخاصة كوريا) ، وكذا الحصار المسلح ثم الهجوم المضاد بواسطة الحروب والتوغل الاقتصادى والمالى والفكرى ، وتهجير العقول والافراد ، والتسلط على مسالك التجارة والتمويل على مستوى عالمى الخ .. من ناحية أخرى . أى أن هذه الهوة التى تزداد اتساعا والتى تبدو وكأنها تحول دون اللحاق بركب التمديد والحضارة ، بمعنى التحديث ، تتم فى فراغ خارج عملية التحليل الدقيق للواقع التاريخى المتحرك ، وخاصة تفاعل وضع القارات الثلاث مع المركز الغربى المهيمن .

من هنا ، على وجه التحديد ، نشأ المفهوم المشترك لعملية التنمية – بما فى ذلك المتغير الثقافى – فى كافة مدارس الفكر والعمل فى الغرب المعنية بهذه القضايا . ان هذا المفهوم يؤكد أولوية عملية الـ « نقل » – سواء أكان نقل العلوم والتكنولوجيا ، وبوجه أعم نقل المعرفة – من المركز ، أى الغرب ، إلى الدائرة ، أو الدوائر المحيطة ، أى القارات الثلاث (آسيا ، أفريقيا ، أمريكا).

٤ – ان تحليل هذا المفهوم للتنمية ، والبعد الثقافى فى اطار التنمية ، يقدم صورة أكثر تنوعا من مجرد الايجاب أو السلب :

أ) ان هذا النموذج – نموذج نقل المعرفة ، أى نقل التنمية – يحقق ، فى المقام الأول ، تنمية تابعة بموجب قيامها على أساس التقليد . وأمر « التبعية » هنا يتأرجح بين تبعية المجتمعات ، أو الدول ، ضعيفة المكانة ، أو الارادة الاستقلالية من ناحية ، ومكانة دول تستعمل هذا النموذج من التنمية .

كوسيلة لاختصار الطريق ، وسيلة بين ترسانة من الوسائل الأخرى ، يتم الاعداد لها فى اطار خطة جادة يمكن انجازها بشكل مقبول على المدى الوسيط .

ب) ولكنما هذه التنمية التابعة تتحرك فى اطار قوالب وكماشات وضغوط ومؤثرات السوق العالمية . ومعنى هذا ان الاعتماد فى المقام الاول على نقل العلم والتكنولوجيا والمعرفة ، أيا كانت النوايا

النقدية والاستقلالية الكامنة فى المجتمع الذى يختار هذا الطريق لا يمكن أن تتفادى عملية « تقليد » النمط المتقدم الذى تم اختياره . وهذا الاختيار ، بدوره ، يتم على أساس العلاقات السياسية والثقافية المتبادلة ، عبر التاريخ : هكذا مثلا ، فيما يتعلق بمعظم سياسات التنمية فى العالم العربى بالنسبة للدول الاوربية التى أقامت مع عالمنا العربى صلات جدلية من الصراع والغزو والتبادل عبر قرون عديدة ، منذ يونان وروما ، حتى موجات الاستعمار والتحرر ، ومن خلالها انتشار الاسلام ، فى حوض البحر المتوسط، ثم الحروب الصليبية ، وكذلك الامر فى أنماط التنمية فى جنوب شرق وقطاعات من شرق آسيا بالنسبة للنمط الامريكى ، حول ما أقامته دائرة المحيط الهادى من علاقات انسانية عبر الاجيال ، وذلك منذ عصر الاكتشافات البحرية . وكذلك الامر بالنسبة لامريكا اللاتينية المتأرجحة بين أصولها الاوربية الغربية الايبيرية من ناحية، والتفاعل مع الهيمنة الامريكية الشمالية من ناحية أخرى . ومعنى هذا أن التنمية التابعة أو التنمية بالتقليد فى أحسن الامور ، لا تتم فى اطار مفرغ ، ولكنما تقوم على أسس موضوعية من التفاعل التاريخى عبر العصور . ومن هنا نرى بوضوح أسباب تقبل قطاعات واسعة من الرأى العام والمجتمعات فى العديد من الدول النامية لهذا المنهج البراق الخادع من ناحية ، وهو فى نفس الوقت ذلك الذى يبدو وكأنما يتفق مع واقع المستطاع ، واقع يفيد من

الالفة والتعود - أى فى كلمة ، يقوم على أساس الاستمرارية والسهولة وما يبدو أنه المناخ العلمى الحتمى لصعود سلم التنمية وخاصة في أبعادها الاقتصادية والعلمية - التكنولوجية والمادية .

ج) النواحى التى تبدو أكثر واقعية فى هذا الموقف تتخذ ، بعد تحليل أولى غير متعمق ، طابعا أكثر اشكالية : ذلك أن ضغوط السوق العالمية ، وخاصة فى مرحلة الانكماش ، وهنا كل الازمة ، الذى يعانيه الاقتصاد العالمى فى مرحلتنا الراهنة ، لا تسمح بالمجال المحدود ، المحدود جدا ، الذى كان فى وسع عدد من الدول أن تحتفظ به ، فى هذه الظروف الجديدة . ان استمرارية الهيمنة، هيمنة المركز الغربى ، على الدوائر المحيطة الهامشية ، أى القارات الثلاث ، تفرض فرضا أن يطبق مفهوم التنمية التابعة بشكل حازم ، أى بشكل لا يقبل استثناءات تؤدى فى واقع الامر إلى أن تفلت قطاعات وسيطة من الحياة الاقتصادية لمجتمعات القارات الثلاث من نفوذ وانتشار انتاج المركز المهيمن .

د) ويتم ذلك أيضا بواسطة مضاعفة عملية هجرة ، وتهجير العقول والكفاءات نعم ، ولكنما أيضا الكوادر العلمية والتكنولوجية الوسيطة ، بل والايدى العاملة الماهرة حتى إلى مستوى الفلاحة والحرف اليدوية التقليدية ، والاعمال التقنية البسيطة . تفريغ الطاقة القومية اذن ، فى لحظة تزايد التوغل الاقتصادى لمركز القوة المهيمن على السوق العالمية : من شأن هذه العملية

المزدوجة أن تفرض فرضا التبعية إلى حدود بعيدة جدا على نهج التنمية المتساهل التقليدى ، المقبول أو السائد .

وهنا ، يجدر أن نلتفت إلى أن التحليل السائد للتنمية المنحرفة ينصب فى معظم الاحيان ، على المنهج الاقتصادى ، أى الوجهة السياسية والاقتصادية لعملية التنمية ، الاتجاه إلى اقتصاد السوق الحرة بدلا من التخطيط ، التخطيط البيروقراطى المبالغ : الانفتاح على حساب الانتاج ، النسبة غير الواقعية بين القطاعين العام والخاص ، الخ . ولا شك أن هذه السياسات الاقتصادية تمثل فى المقام الاول ، نوع المسار التنموى الذى اختاره مجتمع قومى معين .

ولكن المهم أن نتساءل : لِمَ ، ومن أين ، هذا الاختيار ؟ أهو اختيار قائم على اعتبارات اقتصادية ، أو منهجية ، مجردة ، لا علاقة لها بالمؤثرات السياسية - الاجتماعية المحيطة ولا بالخصوصية الحضارية - الثقافية - القومية التى صاغها التاريخ ؟ ان قصر الاجابة على التحليل الاقتصادى يمثل طغيان موجة التكنوقراط على الفكر السياسى القومى الذى يرتكز دوما على التحليل فى الاعماق ، أى على البعد التاريخى - الحضارى لكل من المجتمعات موضع الدراسة ، ومكان العمل .

٥ - ماذا ، اذن فى مقابل « النقل » ؟

النقل – نقل العلوم ، والتكنولوجيا ، والمعرفة – جزء تكويني لا يتجزأ من عالمية العالم . لن تعيش المجتمعات في جحور . لا يمكن العود إلى مرحلة تفتت المجتمعات القومية في مناطق جيو – سياسية وجيو – ثقافية وحضارية لا تكاد تربط بينها روابط ، كما كان الامر في العصر القديم . لا مجال لتحقيق أحلام سلفية تؤمن أن المستقبل انما يكمن في هروب إلى عصور مغايرة تماما من حيث الظروف التاريخية ، والاجتماعية ، والبشرية ، والفكرية . لن يعاد تشكيل العالم وكأنه مجموعة من الجزر النائية ، بعد ذوبان القارات . ان اقرار عالمية العالم أمر راسخ مركزي في النظام العالمي القائم الان على الهيمنة الغربية ، والنظام العالمي الجديد المرتقب الذي لابد وأن يتحقق حول تعدد المركز ، واحياء الحضارات ، وفاعلية المناطق الجيو – ثقافية والقوميات . وبكلمة : لا يمكن أن يكون المقابل في هروب إلى أحلام مستقبلية أو سلفية لا تمثل الواقع ، ولا امكانات التغيير الكامنة في هذا الواقع الموضوعي المتنوع على ساحة المعمورة .

نقطة البدء ، لو أردنا أن نختط طريقا مغايرا لطريق « النقل » و « التقليد » ، إنما هي الذات : تحديد الذات القومية ، الثقافة ، الحضارية في خصوصيتها ، الانطلاق من هذه الذات ، إمكاناتها بممكناتها وطاقاتها القابلة للتعبئة ، الاعتماد على الذات في

الاساس ، في علاقة معقولة ، رشيدة ، ناضجة بالوحدات الذاتية الأخرى المتفاعلة في المضمار العالمي .

إن عنوان هذا الموقف السيادى فى تحقيق عملية التنمية إنما هو « الابداع » ، أى الابداع الذاتى ، حضاريا ، وثقافيا ، وقوميا . ذلك فى كافة المجالات : مجال الفكر ، ومجال العمل ، ومن هنا كانت دعوتنا ، فى إطار وبفضل « جامعة الامم المتحدة » ، منذ ١٩٧٦ ، إلى « الابداع الفكرى الذاتي » . وقد أصبح هذا العنوان شعارا لعدد كبير من المشروعات الرئيسية على المستوى العالمي والاقليمي والقومي ، بحيث أصبح الطريق مفتوحا أمام تعدى أو تخطى مسار « النقل » و « التقليد ». الطريق مفتوح : لكنه لم يمسح مسحا منظما بحيث يؤدى إلى تخطيط دقيق شامل ومفصل فى آن واحد بطبيعة الامر . ولكنما الاساس موجود ، ألا وهو مجموع أعمال الندوات الاقليمية الخمس للمشروع الفرعي حول « الابداع الفكرى الذاتى » لمشروع جامعة الأمم المتحدة حول " البدائل الإجتماعية – الثقافية للتنمية فى عالم متغير " والتى خصصت لكل من آسيا ، أمريكا اللاتينية ، العالم العربى ، أفريقيا ، العالم الغربى (أوربا وشمال أمريكا) ، وقد جمعت نخبة ممتازة من كبار الدارسين ، معتمدة على المستوى الأكثر تقدما من البحوث الجارية فى هذا المجال على مستوى عالمى .

ومن الممكن أن نوجز هنا عددا من المحاور الاتجاهية لهذه البحوث :

أ) مسألة المقومات المادية للابداع الذاتى - القومى من حيث الفكر والعمل ، وهذه المقومات تكمن فى وجود مجتمع إنسانى يتسم بدرجة كافية من الكثافة ، والاستمرارية التاريخية ، وكذا المركزة ، بغية تحقيق معانى التراكم الفعال لعموم عوامل وطاقات وإمكانات المجتمع . إن الابداع ، فى الظروف المغايرة ، يقتصر على الدائرة الفردية ، أو دائرة الجماعة الضيقة . ولكنه يبلغ دائرة المجتمع القومى ابتداء من مستوى معين ، يمكن تحديده على أنه المستوى الأدنى لتمكين مجتمع من الاستمرارية عبر الجدلية الاجتماعية ، من الناحيتين الداخلية والخارجية ، أى على الإبقاء على ذاته ، متماسكة متمايزة ، فى مواجهة المشاكل الداخلية والصراعات الخارجية معا .

ب) القدرة على تبين معالم الخصوصية الاجتماعية - القومية لمثل هذا المجتمع ، وهى نتيجة تترتب على العامل الأول ، ولكنها لاتقتصر عليه بالضرورة . أى تقتضى ، بطبيعة الأمر ، أعمال الفكر النقدى على مستوى المجتمع من كافة النواحى ، وكذا عبر مختلف مراحل تطوره التاريخى . ولكنما المقصود بأن هذا العامل الثانى يترتب على العامل الأول هو أن الخصوصية لاتتواجد -

على مستوى الفاعلية الاجتماعية - إلا ابتداء من درجة معينة من تحقيق الظاهرة الإجتماعية موضع الدراسة ، القادرة على العمل الفعال ، ابتداء من ادراكها لذاتها .

جـ - ومن أجل الجمع بين الفكر والعمل ، بشكل مؤثر ، لا بد من تحقيق تراكم فعال لما يمكن تسميته بـ « الذكاء الاجتماعى » Socilal Intelligence ان هذا المفهوم الحديث نسبيا يعبر من مجموع المعلومات ، والمعارف ، ومناهج تنقيب الخصوصية القومية الاجتماعية من ناحية ، وكذا مقارنتها بمعطيات الوحدات الأخرى المماثلة ، أو المختلفة على تعدد أنماطها ، فى العالم الواسع ، بغية صياغة وتعميق المسار الفكري للمدارس التكوينية الأصيلة للفكر والعمل داخل الدائرة القومية . وهذه العملية تتسم بالضرورة ، فى هذه المرحلة الثانية للثورة الصناعية التى نحياها ، مرحلة الثورة العلمية والتكنولوجية حسب التعبير الشائع ، أى بالقدرة العملية على جمع هذه العناصر التكوينية ، الخاصة بمختلف قطاعات النشاط الاجتماعى والعلمى - الفكرى ، فى الداخل والخارج معا ، ثم توظيفها بعد الانتقاء التحليلى والاستيعاب النقدى لصالح تسليح الكادر الوطنى . والصعوبة فى هذا المجال تكمن أولا فى أن مصادر هذه المعارف والمعلومات كلها ، أو تكاد ، بين أيدى عدد قليل من الدول الكبيرة والشركات

والهيئات متعددة الجنسية التى تهيمن على النظام العالمى القائم ، على تنوع معسكراته . إن الافادة من هذه الطاقات ممكنة ، ولكن فى الحدود الدنيا والوسيطة فقط ، إذ أنها تمثل مفتاح القوى ، وبالتالى مفتاح تغيير موازين القوى في مختلف مناطق العالم ، ولا نقول في العالم بأسره اليوم . أن المسعى فى هذا الاتجاه قائم على أساس العاملين السابقين ، أى أنه لا يمكن السعى فى هذا الاتجاه الا إبتداء من تحقيق العاملين السابقين بشكل واضح .

د) جملة القول أذن أن عامل القرار السياسى ، وسيادة هذا العامل السياسى ، أى سيادة القرار السياسى القومى فى مجال إدارة عملية التنمية هو مفتاح المفاتيح ، أن هذا القرار لا يمكن أن يحقق طبيعته القومية الجديرة بهذه التسمية إلا بناء على إدراك خصوصيته القومية – الثقافية بشكل واضح ، وطاقاتها الكامنة الفعالة . وهذا ما يمنح المتغير الثقافى دوره / المركزى فى تحديد مسار وكيفية إدارة ، العملية الانمائية فى مجموعها ، أى فى عملية تطوير تاريخ المجتمعات البشرية ، وخاصة تلك التى تسعى إلى الصعود إلى مكانة الحياة الكريمة المتكاملة ، الانسانية ، لتشارك بذلك فى النظام العالمى الجديد .

٦ – إن إدراك أهمية الثقافة فى مجمل عملية التنمية ، وهو

إدراك متزايد منذ نهاية الحرب العالمية ودخول العالم فى مرحلة تغيير مساره التاريخى ، تثير العديد من القضايا ، والتساؤلات يجدر بنا أن نشير إلى أهمها :

أ) لعل القضية الاولى هى تلك التى تكمن فى مجال « الاصالة » فى علاقتها بالـ« الخصوصية » . وقد لعب المستشرقون ، فى غالبيتهم ، وكذا قطاع واسع من علماء الاجناس والاجتماع المعنيين بالمجتمعات اللا – غربية ، دورا كبيرا مؤثرا فى أعادة ضرورة دراسة هذه المجتمعات ، من حيث أنها مغايرة للمجتمعات الغربية « الطبيعية » ، إلى حيز التركيز على مفهوم « الاصالة » – وكأنها الاطار الواسع الذى يمكن أن يجتمع فى ثناياه مزيج من رواسب الماضى والمظاهر المتخلفة من الحاضر والخاضع للهيمنة الاجنبية . وبما أن المطلوب إنما هو تمييز المجتمعات اللا – غربية عن المجتمعات المتقدمة « الطبيعية » نرى أن هذه الدعوة اتسمت فى معظم الاحيان بطابع يشجع الجمود ، ويواكب المنحنى السلفى ، وذلك بتأكيد ما هو قائم ، بل وجامد ، على حساب المتحرك ، المتجدد ، المتجه صوب مستقبل تقدمى بالضرورة بالنسبة لما هو قائم فى أى مجتمع فى لحظة من تطوره. وقد ذهب عدد كبير من هؤلاء العلماء إلى الاخذ بمفهوم ماكس فيبر ، عن « النمط المثالى » Idealtypus ، وكأن لكل مجتمع

متحـــدد روحاً مثـــالية يفرضها ، أو يقدمها التاريخ ، وهى على تمايز محدد بالنسبة لكافة الذوات الاخرى . والخطورة فى هذا المفهوم - كما بيناه مرارا وتكرارا ، أسوة بمدرسة علماء الاجتماع الآخذين بالاتجاه التاريخى - هو أنه يرد كلا منها إلى جذور نفسية - عرقية ، لا يستطيع التاريخ الموضوعى أن يؤثر عليها ، إما باعادة تشكيل بنائها التكوينى تدريجيا أو باقامة روابط التأثير ، والتأثر الجدلى المشترك بينها . هكذا تصبح الاصالة دعوة إلى التحجر ، بدلا من أن تكون أداة فعالة للتطور المتمايز ، نعم ، ولكنه أيضا التطور المترابط ، الذى يندرج بالضرورة فى عالم متشابك ، ويتصف بالنضال والتكامل ، بالاثراء والقدرة على الاستيعاب والاستمرار معا .

ب) من هنا كانت دعوتنا منذ بداية الستينات إلى تصور « الخصوصية » . فالخصوصية ، وهذا جوهر الموضوع ، تقدم نمطا محددا للمحاور التكوينية الاربعة لكل وجود إجتماعى (إنتاج إحتياجات العيش ، ضرورة استمرار الجنس البشرى بالتناسل ، تمركز كل مجتمع حول مركز للسلطة الاجتماعية ، العلاقة ببعد الزمان والتاريخ والتعالى) ، وهو نمط تتشكل العلاقة بين محاوره الاربعة بطرق متفاوتة حسب طبيعة الاطار الجغرافى الذى يحيا فى هذا المجتمع ، عبر مسيرته التاريخية المركبة . وقد لعب هذا التصور - وكذا إجتهادات عدة مواكبة له - دورا فعالا

فى تحديد النوعية المتميزة لمختلف المجتمعات من ناحية ، وكذا فى الاشارة إلى إمكان إقامة علاقات المقارنة ، والمواكبة بين هذه المجتمعات حسب الظروف التاريخية ، باختلاف مراحلها ومتطلباتها .

وهنا يجدر بنا الا ننسى أن إستعمال الاصالة ، على أيدى غالبية المستشرقين الغربيين وعلماء الاجناس والاجتماع فى أيامنا ، يكرر ما تقدم به عدد من الماركسيين ، ومعظمهم من الاتجاه التروتسكى اليسارى الصهيونى ، باسم « الانتاج الآسيوي » . فاذا كان سلم تطور أنماط الانتاج فى العالم اللا - غربى لا يطابق ذلك الذى يعتبر « طبيعيا » فى العالم (الغربى) ، فكان لابد إذن من اختراع سلم آخر من التدرج ينطبق على المجتمعات « الشرقية » أى اللا - غربية ، وكذا أمريكا اللاتينية - والهدف من هذه المحاولة يختلف فى الظاهر فقط عن تقديم مفهوم الاصالة . فنحن هنا بصدد مفهوم مضاد . ظاهريا ، يهدف إلى جمع الشمل بين المجتمعات اللا - غربية ، ولكنه جمع الشمل بين مجتمعات لا - طبيعية ، أى تجميع مجتمعات « الاصالة » فى سلم يتسم بالحصر النمطى Reductionism ويؤدى ، فى نهاية الامر ، إلى فصل العالم إلى قطاعين : قطاع المجتمعات الغربية ، أى المجتمعات « الطبيعية » ؛ وقطاع المجتمعات

اللا - غربية ، المغايرة ، المتمحورة حول أصالتها واغترابها عن العصرية . محاولتان تكملان إحداهما الاخرى إذن ، ساعية إلى تحقيق مركزة الغرب المهيمن - هذه المرة من زاوية الثقافة وأعمال الثقافة بشكل مركزى فى إدراك تباين مسائر التطور الاجتماعى عبر التاريخ .

٧ - ثم هناك قضية هامة تعترض طريق دراسة مدى فاعلية الثقافة فى عملية التنمية ، وأن كانت أقل وضوحا بكثير من العوامل الاخرى ، ألا وهى قضية أو مشكلة الاولويات .

ذلك أن عملية التنمية تقتضى ، من حيث السياسة العملية ، تحديد الاولويات فى مجتمع معين ، وذلك لمرحلة معينة من تطوره ، قد تتخذ شكل الخطة لعدة سنوات ، أو تقدير أعم بالنسبة للمرحلة التاريخية ، وكذا الاولويات الاكثر دقة من حيث التنفيذ على مدى السنة الواحدة .

أ) هناك أولا تحديد ، أو تعريف ، مختلف أنواع الاولويات :

- سوف يميل البعض إلى إعطاء الاولوية ، المكانة الاولى ، للاولويات النابعة من مجال الانتاج ، الاقتصاد ، والنواحى العلمية والتكنولوجية المصاحبة لها . ومن مثل هذا التطور تتبدى أمامنا مفاهيمه مثل « الانتاجية » و« الاستهلاكية » ثم « السعى وراء المتعة » ، وشعار « الصغير هو الجميل » ، وكذا الانماط الفردية

للتنظيم الاقتصادى ، أسوة بالانماط الجماعية ، وأنماط قطاع الدولة ، الخ ...

- وهناك أنصار منح الاولوية إلى البعد السياسى ، إذ أنه هو الذى يحدد ، فى نهاية الامر ، سلم الاولويات كما تقررها الهيئات والمؤسسات المختلفة فى مختلف المجتمعات . ومن هنا تأتى التفرقة التقليدية بين الليبرالية والاوتوقراطية ، بين الديموقراطية ، والديكتاتورية ، بين الجماهيرية والاستبداد ، بين الاجماع وقيادة النخبة ، الخ ..

- وهناك من يرى أن الاولويات تتحدد أولا فى مجال الثقافة والفكر والفلسفة والايديولوجية والدين ، إبتداء من إطاراتها التكوينية الخاصة . ومن هنا تنبع المواقف التى تؤكد خصوصية المجتمعات الانسانية ، وتمايزها إلى أمم ، ومناطق ثقافية أو جيو - ثقافية ، بما يواكبها من نظرات متخصصة للعالم فى إطار الدوائر الحضارية الكبيرة التى تشمل هذه العناصر كلها .

ب) وهناك أيضا منحى تحليل هذا التمايز بدراسة مختلف أنماط الاولويات :

- نوع أول يتسم بالطابع الجامد - المحافظ ، وهو الذى يجمع الاولويات الاكثر عناية بالاستمرارية الاجتماعية ، وكذا باستمرارية الانظمة الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية - الايديولوجية ، فى

مواجهة موجات التغيير الجذرى ، وكذا للحفاظ على منجزات وانتصارات التقدم الاجتماعى . أى أن ذلك الذى يراد الحفاظ عليه مغاير تماما حسب الظروف والمجتمعات والمراحل التاريخية ، وأن كان فى الظاهر يتسم بالمحافظة .

– وهناك نمط ثان من الاولويات يتسم بالراديكالية المتجهة إلى تغيير المجتمعات بشكل جذرى كامل . أنه جو الاولويات الاشكالية ، الجدلية ، المتناقضة ، السائدة فى مراحل التغيير والثورة والتحرك واسع النطاق .

جـ) ولكنما مجال الصعوبة القصوى فيما يتعلق بتحديد الاولويات أنما يكمن فيما يتعلق بمعدلات تحركها المتباين .

وهناك أولا تباين هذه المعدلات من حيث خصوصية المجتمعات المدروسة . ثم هناك عامل اختلاف هذه المعدلات من حيث أنها تتعلق بالاستمرارية أو المحافظة من ناحية ، والتغيير أو الثورة من ناحية أخرى .

بقى السؤال الكبير : لِمَ تختلف وتتباين معدلات السرعة فى اختيار ، والاستعمال الفعال لسلم الاولويات فيما يتعلق بتطور المجتمعات ، وسياسات التنمية ؟ .

المستوى الاول من الاجابة ، المستوى المباشر ، المعقول ، هو : أن هذا الاختلاف وذلك التباين يرجعان إلى « الظروف الموضوعية»

و« المرحلة التاريخية » ، أى ، بعبارة أخرى : إلى الطابع المتميز لخصوصية المجتمع موضع الدراسة من ناحية ، ثم الاطار الخارجى ، المواكب والمعاصر للجيو - سياسية ، والجيو - استراتيجية للمجتمع والمنطقة موضوع الدراسة .

وقد ذكرنا ، المرة تلو المرة ، أهمية عامل القرار السياسى الوطنى / القومى ، أى أولوية السياسى فى كل آن ومكان ، وكذا أبرزنا دور الاطار الخارجى للجدلية الاجتماعية ، أى الاطار الجيو - سياسى ، وخاصة فيما يتعلق بالعالم العربى - الاسلامى ، وقلبه حول محور المعركة التاريخية ، من القاهرة إلى دمشق ، حول السويس وأرض سيناء .

٨ - ولعله من المفيد أن ننتقل الآن إلى بعد الاشارة المقتضبة إلى الدراسات الميدانية الرئيسية ، وأهمية القيام بدراسة مقارنة بينها بغية إنارة الطريق أمام ما هو موضع لبحثنا ، وسعينا القومى.

إن الدراسة المقارنة للامثلة الرائدة فى مجال أعمال العامل / البعد المتغير الثقافى فى الظاهرة الانمائية ، وفى تطور المجتمعات المعنية ، تقوم على أساس منهج « المقارنة ذات المغزى »

وباختصار شديد تعنى هذه العبارة ، بتسمية المنهج المختار ،

أنه لا يمكن مقارنة أية ظاهرتين ، على تباين تكون كل منها من الناحية التاريخية ، أى بغض النظر عن الطابع الخاص لخصوصيتها ، ولكنما يمكن أن تقوم المقارنة ، بل ويجب أن تتحقق ، بين المجتمعات التى تنتمى إلى مجموعة واحدة ، أو متشابهة من الوحدات الاجتماعية ، من حيث الانتماء إلى الاطارين الحضاريين الكبيرين فى العالم ، وإلى الدوائر الثقافية المتمايزة داخل كل من هذين الاطارين الحضاريين ، وأخيرا وليس آخرا نمط ونوع المجتمع القومى موضع الدرس . إن إهمال هذا المنهج ، لصالح المقارنة المفتوحة على كل الاحتمالات ، وبين مختلف الوحدات المتباينة أحيانا بطريقة / جذرية ، يؤدى إلى خليط لا أول له ولا آخر : مثلما يحدث عندما نسمع الاسئلة المترددة فى الكثير من الاحيان : « لم الفوضى فى مواصلات القاهرة وكالكوتا ، لو قارناها بالنظام المتواجد فى باريس أو لندن ؟ » ، « لم التباين بين مكانة الدين والفلسفة فى الصين بالمقارنة مع ايطاليا وأثيوبيا ؟ » . « كيف يمكن مقارنة الهيكل التصنيعى والتكنولوجى فى اليابان بما هو قائم فى فنزويلا ؟ » ، « كيف يمكن المقارنة بين تعدد الثقافات والقوميات فى إطار دولة واحدة كالهند ، مع ما هو قائم فى الاتحاد السوفييتى ، والولايات المتحدة ؟ » ، إلى غير ذلك من محاولة إقامة / المقارنات المفتعلة التى لا تفضى إلى نتيجة ، اللهم الا اليأس والتعجب ، والانبهار الزائف ، وبالتالى

استمرار الازمة .

من أجل هذا ، يمكن أن تتكون مجموعة أولى من الدراسة التحليلية المقارنة للمتغير الثقافى فى القاهرة الانمائية فى قلب أعم المجتمعات القومية للحضارة الشرقية ، ولنقل مثلا بين مصر ، وايران ، والصين واليابان .

٩ - احتل العامل / المتغير الثقافى فى نهضة مصر الوطنية ، وكذا فى النهضة القومية العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر، مكانة مركزية حقيقة ، من كل النواحى . وقد تحققت هذه المكانة بفضل وحدة رجال الفكر والسلاح ، في إطار دولة محمد على باشا ، أول دولة فى الشرق منذ صعود الغرب إلى مكانة الهيمنة فى القرن الخامس عشر . وكان رمز هذه الوحدة ، حول شخصية محمد على الجبارة ، ابنه سارى عسكر جيوش مصر إبراهيم باشا وصحبه ، ورائد النهضة الثقافية التى فهمت خطأ على أنها تقليد للغرب ، وكانت فى واقع الامر تحديثا قوميا نقديا معاصرا بارما ، الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى وصحبه . وقد استمرت هذه العملية ، رغم أفول دولة مصر فى عهد سعيد باشا ، فى المرحلة الثانية بفضل / الخديوى إسماعيل ، واستعادته لتكوين جيش مصر ، ونظامها التعليمى والعلمى حول على مبارك و « جماعة حلوان » ، وهى الحركة التى وجدت فى أمير الالاى محمد عبيد

البطل الشهيد لمعركة التل الكبير ، وخاصة فى عبد الله النديم خطيب الثورة ، أعلى رموزها . ثم جاء عهد الاستعمار والهوان : كانت الضربة الرئيسية موجهة فى آن واحد إلى جيش مصر ، وكذا إلى مؤسسات التعليم فيه ، بغية تكوين أجيال من العقول التابعة ، والتى حتى لو استيقظت لما وجدت فى صولجان الدولة إطارها الفعال للتحرك ، وفى جيش الوطن مفتاح الفتح . إن دراسة هذه المرحلة الاولى ، العظيمة ، من نهضة مصر الوطنية بين ١٨٠٨ - ١٨٩٢ ، تبين بوضوح أن ضربات الغرب المتتالية من إجماع دول أوربا فى معاهدة لندن ١٨٤٠ لتفكيك الاقتصاد المصرى المحمى إلى طرد اسماعيل عام ١٨٧٩/ لم تتح وقتا كافيا ، فى أضيق الحدود ، لمصر الناهضة ، لطبقتها السياسية بما فى ذلك المثقفين الطليعيين ، لدراسة معانى التواكب ، والتمازج ، والتفاعل الجدلى الخلاق بين الاتجاهين التكوينيين للفكر المصرى ، وكذا العربى آنذاك وحتى الآن ، أى اتجاه العصرية الليبرالية واتجاه الاصولية الاسلامية . وقد ترتب على ذلك أن الانتقال المطلوب من التكوين التجميعى Symbiosis الى التركيب Synthesis لم يتم خلال هذه المرحلة . وهذا ما أوجزناه فى جزء من الرسائل الختامية لدراستنا المنشأة بين ١٩٥٥ و ١٩٦٩والتى نشرت أولا فى باريس عام ١٩٦٩ ، ثم فى طبعتها العربية على أرض مصر باسم « نهضة

مصر » فى ١٩٨٣ :

« هكذا نرى كيف أن كلا من التحليلات التى قدمناها للقضايا المعروضة هنا ، وكذا الموضوع فى شموله ، تتسم بطابع غير متكامل غير متجانس ، نراه يتجلى فى عملية التغير نفسها ، وكذا فى نتائج ذلك التغير . أنها قسمة مميزة عامة يمكن تعريفها بأنها إشكالية الانتقال من التكوين التجميعى إلى التركيب .

إن التكوين التجميعى القائم بين الابعاد الثلاثة للحياة الاجتماعية التى وصفناها فيما سبق ، يعتبر معطى تاريخيا ، أنه تركيب تجميعى يعمل على التمكين من الاستمرارية . فهو يقدم السياج المنيع ، وكذا عادات وتقاليد الممارسة ، أثناء لحظات الاندفاع إلى الامام . ولكن قدراته للتعقيل والترشيد على مستوى المجتمع القومى كله ضعيفة ، فالدولة ، والدولة وحدها ، هى التى تفيد من هذه الظاهرة ، فى نهاية الامر .

والحق أنه ، إذا أريد تحول جذرى بمعنى الكلمة على مستوى الامة كلها وفى كل مجالات الحياة الاجتماعية ، من الاقتصاد إلى الفكر ، فانه لابد من إنجاز شيء آخر غير ذلك التأقلم الوفاقى مع المعطى التاريخى . إذ أريد مثل هذا التحول الجذرى ، فانه يصبح لزاما على الشعب وحركته الوطنية الانطلاق إبتداء من هذا المعطى التاريخى . أى من ذلك التكوين التجميعى ، بغية مواجهة الجدلية

المعقدة التي يثيرها اقتحام التحديث – بواسطة السلاح ، وأيضا الاقتصاد ، والمؤسسات والأفكار – لواقع إجمالي يتسم بالقدم والتأخر ، وأن كان واقعا يستطيع أن يستمر ، ويحيا ، بفضل عمق مجال الخصوصية التاريخية ، متجها نحو مشروع استمرارية لا تنكسر . وعندئذ تصبح اللحظة الثالثة لهذه الجدلية هي عملية التركيب ، أي عملية حل التناقضات على مستوى أعلى من الانصهار الاجتماعي والصياغة الفكرية ، في أمة وقد أعيد تكوينها البنيوي ، ابتداء من خصوصيتها التاريخية ، في قلب المعاصرة .

أن عملية التركيب ، بهذا المعنى ، تفرض اختياراً ، أي مفاضلة نقدية ، وهيمنة حل معين – ألا وهو على وجه التحديد اختيار عملية التحديث النقدية ، وكل ما يلحق بها من نتائج بالضرورة ، وخاصة نبذ الاهتزاز الملازم بالضرورة لكل تكوين تجميعي ، وهو الذي يتسم تكون الفكر والايديولوجية في النهضة الوطنية لمصر الحديثة .

أول المشاكل والقضايا التي يثيرها الفكر والايديولوجية في هذا الصدد ، أنما هو ذلك الذي يمت إلى استمرارية الازدواجية . فقد رأينا كيف أن الايديولوجية الضمنية العميقة تؤكد على الدوام إرادة الجماهير الشعبية في الوجود وفي الاستمرار ، كيف أنها تحكي أيضا المسيرة الملحمية لشعب مصر ، كيف أنها تجعل من

ذاتها أداة للنقد الاجتماعى ، وكذا أيضا لقبول حالة من الاضطهاد والظلم ، سوف يطلق عليها البعض أنها حالة مصيرية مكتوبة ، وكيف أنها إذ تتبدى متأصلة فى أرض التوطن ، فانها كذلك تريد لنفسها أن تعبر على الانفتاح للغير - ولكن لا لغير متفرد ، وكأنه طرف آخر زائر لو صح هذا التعبير ، وليس بمثابة مجتمعات أو دوائر قومية - ثقافية متباينة متميزة ليست اطلاقا فى مجال الرؤية النفسية الجماعية الوطنية والشعبية المصرية . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، فإن الفكر والايديولوجية الصريحة يتبديان على نحو مختلف تماما . أنه نتاج حديث جدا ، نتاج للموجة الغربية ، بشكل جوهرى . أن هذه الايديولوجية الصريحة تحاول أن تعبر عن رسالاتها وعن تحليلاتها حول القضية المزدوجة لانحدار الشرق الاسلامى من ناحية ، وحول شروط نهضته من ناحية أخرى ، بايقاع متعجل ، اذ أنها تستشعر أنها لزاما عليها أن تقدم الاطار الفكرى التصورى للعملية التى تتبدى الحداثة فى مجالى الدولة والمجتمع ، وهى العملية التى أكدنا مرارا طبيعتها المتعجلة ، ومن هنا ، فأن هذه الايديولوجية ملك لحلقة محدودة من الطلائع الجديدة ، ثم تنتقل فى مرحلة ثورة ١٨٨١ - ١٨٨٢ بين يدى البرجوازية المحلية ، وهى التى فى طريق التكوين ، بحيث يصبح فى امكانها أن تحظى بجمهور واسع ، بل وربما جمهور

على المستوى الوطنى ، وخاصة فى المدن وفى منطقة الدلتا .

هذا ولم يتعرض الرجال الذين كانوا آنذاك بمثابة القائمين بصياغة الفكر والايديولوجية إلى تلك الازدواجية المستمرة بنقد جذرى ، ولا حتى بمحاولات للحصر وتعدى الازدواجية . فالتدابير التى يراد لها أن تتحقق إنما تندرج فى إطار تجديد التراث ، من أجل توكيده : كان هذا هو الامر فى مجال الدين ، وكذا فى قضية المرأة ، بين القضايا الهامة آنذاك فالتجديد - فى مجال الفكر والايديولوجية السياسية - يؤكد على علاقاته مع الميراث الثقافى والوطنى على الرحب والسعة ، ولكنه ، وفى الوقت ذاته ، يقيم عناصر الحداثة وكأنها عدد من العلامات على طريق مواز ، دون إعلان القطيعة ، بل وعلى العكس من ذلك تماما . هكذا كان الامر فى مجال التعليم ، وفى مجال الاستقلال الذاتى ، ثم الاستقلال ، وكذا فى الحركة الدستورية .

نحن إذن أمام ظاهرة إزدواجية ، وليس ظاهرة نقد ، أذن سيظل التكوين التجميعى التاريخى هو المهيمن على أعماق الحياة الوطنية فى مجموعها ، وعلى وجه التحديد المهيمن على مستوى الايديولوجية الضمنية التى كانت آنذاك مبعدة رسميا عن الصف الأول من المسرح . ذلك أن تجميع العناصر الشديدة التباين لايديولوجية التحديث الصريحة ، التى بدأت آنذاك أن تتبدى على

صورة عناصر متفردة أو على شكل قطاعات كاملة من الايديولوجية ، تتحقق فى الواقع فى مجال آخر .

ازدواجية اذن – لكنها ليست تركيبا . فالتاريخ ثقيل طاغ ، يؤثر فى اتجاه ولصالح الايديولوجية الضمنية . والسؤال هنا ، على وجه التحديد هو : هل يمكن من الناحية النظرية أن يتحقق التحديث بشكل ظاهر وبطريقة ميكانيكية بحتة ، أى بمضاعفة الضغط والوثوب المؤسسى والايديولوجى ، بينما تترك الايديولوجية الضمنية إلى أمرها ؟ أو بمعنى آخر ، هل يمكن أن تتحقق الحداثة أو المعاصرة بتفادى تعقيد التركيب النقدى بين مختلف العناصر التكوينية التى منها يتكون الفكر والايديولوجية الوطنية ، وذلك بشكل واقعى موضوعى ، أى بدون تغيير جذرى للمجتمع والفكر ، بدون ثورة وطنية ؟وجوابنا هنا بالنفى . ولكنما يمكن اللجوء إلى أمثلة ، وخاصة مثال اليابان ، لترجيح الرأى القائل بامكان استمرارية الازدواجية فى العالم الواقعى على أساس عميق جبار من التمسك بأركان الوحدة الوطنية التكوينية – « العروة الوثقى » – لم ، ولن ، تزلزله موجات العدوان الحضارى المتغرب . هنا ، هنا إذن قضية هامة تستحق دراسات مستفيضة .

إن استمرار الازدواجية فى مجال الايديولوجية يقودنا إلى إثارة مشكلة القوى التى تسبب تلك الازدواجية . ومن الواضح ، على أساس التحليل الذى قدمناه ، أن العناصر السببية المباشرة ،

على صورة الطبقات الاجتماعية ، غير كافية لتفسير هذه الظاهرة على اتساعها ، وفى أعماقها . والسبب الاول فى هذا الامر يكمن فى أننا نعالج هنا تكون الفكر والايديولوجية الوطنية ، على إختلاف اتجاهاتها الفرعية وبوجه شامل ، دون دراسة تكون مختلف الايديولوجيات المتناقضة فى قلب هذه المجموعة الايديولوجية ذات الوجهة الوحدوية بالضرورة خلال مرحلة تكوينها . ومع ذلك ، فأن التغير المتعجل للاقتصاد ، وكذا تغير التركيب الاجتماعى ، وهذا الاخير بشكل أكثر دقة بين ١٨٩٢ - ١٩٠٥ ، لهى ظواهر ذات أهمية . ذلك أننا نستطيع أن نتبين أن ايديولوجية البرجوازية المحلية فى مرحلة تكونها ، من الدولة العسكرية لمحمد على إلى الطبقة الجديدة التي تتصدر الصفوف وتحاول أن تؤكد ذاتها على يدى اسماعيل وثورة ١٨٨١ - ١٨٨٢ . وفى الوقت نفسه ، نرى أن فريقا من هذه الجماعات الاجتماعية يؤكد أنه يريد أن يتباعد عن ذلك التحديث ، وأن يتسلح بأيديولوجياته الذاتية ، ابتداء من التراث على وجه التحديد . وكذا، فى الجانب الآخر تماما من سلم المجتمع ، فاننا نرى أن هذه المحاولة الكبرى الاولى لغرس أفكار التحديث ، أو المعاصرة ، بين صفوف الشعب إنما يقوم بها مثقفون ذو وجهة شعبية يتمتعون بصلات لم تنقطع عن القطاعات الاجتماعية المسلوبة ، فى المدينة وكذا فى القرية .

ومن هنا كان موقفنا فى توكيد التفسير لتلك الازدواجية الايديولوجية من ناحية ، وكذا لتمايز الاتجاهين الكبيرين التكوينيين للايديولوجية والفكر الاجتماعي من ناحية أخرى ، ابتداء من مجموعة من العناصر الاجتماعية الفعالة بالمعنى الواسع لهذا التعبير ، حيث تلعب المسببات والتكوينات العلوية الايديولوجية دورا من الطراز الاول ، بدلا من التفسير الاقتصادى الآلى لبتداء من مفاهيم طبقية بحتة . ولهذا الشأن نؤكد هنا أن هذا الموقف مختلف عن موقف توكيد مسألة الدور المستقل نسبيا لجدلية الافكار والابنية العلوية الاجتماعية ، وهو دور لم يعد ينكره الكثيرون ، وإنما الموضوع هنا يتعلق بمنبع الاختلافات الفكرية والايديولوجية ، بأسبابها العميقة فى المقال الاول .

ان أنصار الايديولوجية الصريحة ، يبدون فى نهاية الامر ، بمثابة رجال مرتبطين ، بمختلف الاشكال والصور ، إلى قطاعات الاقتصاد التى أثرت عليها الغزوة الاستعمارية الامبريالية الاوربية ، بينما يظل مجال الايديولوجية الضمنية بين أيدى القطاعات المختلفة والتقليدية معا . وإذا كان الامر كذلك ، فكيف إذن نفسر أن منظرى وأعلام الايديولوجية السائدة للتراثية ، أى الاصولية الاسلامية فى مرحلة تكونها ، يمتون إلى نفس المجموعات الاجتماعية ، وبخاصة مثقفو المدن وملاك الارض ، على الاقل فى بداية الامر ؟

نقطة بدء مشتركة ، مشتركة جزئيا فى بداية الامر .

لقد بينا ، فى أعمال أخرى ، أن التمايز أنما جاء نتاجا لانقسام البرجوازية المصرية إلى جناحين متميزين ، إبتداء من حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . أما الآن ، فاننا لم نصل إلى هذا الحد بعد ، ولانزال أمام مجموعات اجتماعية ، المجموعات الاجتماعية المكونة لهذه البرجوازية وهى تتبدى على صورة التمازج النسبى .

ومن هنا كان لزاما علينا أن نبحث عن مصدر آخر للدوافع المسببة لهذه الظاهرة . ومن هنا بدأت مسيرتنا التحليلية التى من خلالها قدمنا الفرض القائل : أنه من الواجب علينا أن نبحث عن أسباب ذلك التمايز فى التكون الثقافى لفئة المثقفين الجديدة، أكثر مما نبحث عنه فى انتمائها الطبقى . أن جزءا من الطلائع المثقفة ، وهى أيضا متصلة بالقطاعات المتقدمة آنذاك مرحليا من الاقتصاد والحياة الاجتماعية وخاصة من قطاع الدولة ، يتوجه نحو الثورات الاوربية الكبرى باحثا فيها عن التفسير المعقول لمرحلة الانحدار ، وكذا عن مصادر التفكير ، عن مفتاح وأنماط المستقبل ، عن سر النهضة . وهذه الطلائع فى الاساس هى تلك التى تكونت فى المدارس الحديثة في مصر ، وكذا فى البعثات الاوربية الى أوربا ، أستاذها الفكرى وصاحب اليد العليا فى تحقيق رسالتها أنما هو رفاعة رافع الطهطاوى . وهناك جزء آخر من هذه الطلائع ، ذلك الذى تكون فى الاطار التقليدى للتعليم الاسلامى حول الازهر ،

هؤلاء المثقفون سيتجهون بطبيعة الامر نحو البحث فى أركان الذاتية وهذا البحث عن الذاتية ، وأركانها، سوف يتجه إلى ضرورة العود إلى الجذور المبدئية للدين ، حيث توجد العناصر التى لا بد منها للنهضة أمام الباحثين ، وذلك على أيدى الشيخ محمد عبده .

والمشكلة التى تتبدى هنا هى كالآتى : هل يمكن لتمايز فكرى أيديولوجى ، يقوم هو نفسه على نظرة فكرية أيديولوجية مختلفة للعالم ، هل يمكن له أن يقوم وأن يصبح فعالا ما لم يرتكن على تمايز بين الطبقات والمجموعات الاجتماعية المختلفة ، فى صراعها من أجل سلطة القرار فى قلب الدولة الوطنية ؟ وجوابنا هنا بالنفى : أن الفاعلية تفترض التمثيل ، اذ أنه هو وحده الذى يدفع إلى التأييد ، واقامة المؤسسات التمثيلية ، وهى عملية لا يمكن أن تقوم الا على أساس التأييد والاتفاق الاجتماعى فى مستوى متقدم . ولكن القضية لا تزال قائمة ، ألا وهى قياس قدرة التواجد ، والاستمرارية ، وامتداد المجال الايديولوجى ، ابتداء من دوافع ايديولوجية بحتة. (١)

---

(١) أنور عبد الملك : « نهضة مصر » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ٥٤٦ - ٥٥١ .

وكذا ، فان دراسة المرحلة الثانية نهضة مصر الوطنية – من ١٩١٩/١٩٢٣ إلى ١٩٦٧ /١٩٨٣ – تبين أن هذه المعادلة الصعبة لم تحل بعد . المرحلة الاولى من بعث الحزب الوطنى عام ١٨٩٢ إلى تكون الوفد المصرى وثورة ١٩١٩ – ١٩٢٣ ، وما تلاها حتى إنهاء النظام الملكى وثورة « الضباط الاحرار » فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تبين بوضوح أن الاتجاهين الرئيسيين للفكر المصرى ظلا على فراق ، رغم الوئام الظاهرى ، أى رغم اللا – صدام . كانت السلطة ، فى الاساس ، بين أيدى المحتل البريطانى وحلفائه من نخبة كبار الملاك . ولم تكن البرجوازية المصرية ، ولا نقول الجبهة الوطنية المتحدة ، أو الثورة ، فى مكانة الامساك بمقاليد الامر ، إذ أن الوفد المصرى نفسه لم يحكم إلا سبع سنوات ونصف بين ١٩٢٣ و ١٩٥٢. استمرار التباين واللا – تلاقى بين الاتجاهين الرئيسيين للفكر المصرى . وكذا تباعد مستمر بين الحياة الفكرية ، حول الجامعة المصرية واتجاه التحديث الليبرالى المتمثل فى الوفد وأحزاب البرجوازية المصرية صاحبة الاقلية من ناحية ، وبين الدولة ، وقد أضعفها الاحتلال البريطانى إلى حد بعيد ولم تبدأ فى استرداد مكانتها الا بعد أن فتح الوفد أبواب الكلية الحربية / عام ١٩٣٦ أمام أبناء الطبقات الشعبية – ومنهم من أصبح فيما بعد أعضاء تنظيم « الضباط الاحرار » . ثم فترة تالية ، فترة الثورة المصرية المنطلقة من التحرك الثورى بين ١٩٣٥/ ١٩٣٦

و ١٩٤٦/١٩٥١ ، ثم استيلاء « الضباط الاحرار » على الحكم فى ١٩٥٢ ، كانت تبشر بامكان حل المعادلة الصعبة . وقد تراكمت ظروف بحيث جاءت « الحرب فى الظلام » بين « أهل الكفاءة » و« أهل الثقة » ، ابتداء من ربيع ١٩٥٤ ، واضعاف الجامعة المصرية ، مدرسة كادر الطبقة السياسية المصرية والعربية آنذاك ، فى الوقت الذى تمكنت فيه دولة مصر ، بقيادة جمال عبدالناصر ، من معانى القوة ، فى مجالات الصناعة ، والعمران ، والقوات المسلحة ، واتجهت بخطى جادة نحو تحقيق وحدة الامة العربية حول مركزها مصر . فالآية هنا تبدو معكوسة : فئة المثقفين ، وكذا الطبقة السياسية - من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار دون استثناء - تعانى الاضطهاد والتفكك ، وبالتالى لا تستطيع بحال من الاحوال أن تمارس معانى التلاقى والتركيب الفكرى المنشود . بينما إعادة تكوّن الدولة المصرية القوية الفعالة لا يستطيع أن يلقى صدى فى الطبقة السياسية أو فئة المثقفين بشكل كاف ، رغم محاولة تصحيح المسار بعد يونيو ١٩٦٧ الاسود وبيان عمق الفساد فى الجهاز الحاكم نفسه أى أن روافد النهضة الثقافية المصرية - منذ محمد على ورفاعة الطهطاوى حتى ربيع ١٩٥٤ ، ا أثار انتباه العالم واحترام العدو وكذا تربصه ، وحماس الامة العربية والعالم الافريقى - الآسيوى حتى باندونج - كل هذا بدأ يتفتت تحت ضربات لم يكن لها من وجهة أو علة ، أو مغزى

معقول ، اللهم الا تأثير تحليلات العدو الاستعماري الحضاري على قطاعات فعالة من الاعلام وجهاز الدولة أثناء ثورة مصر . وترتب على ذلك مأساة يونيو ١٩٦٧ ، وكذا ترتب عليها سهولة الانتقال من مرحلة الثورة الايجابية إلى مرحلة الانفتاح باسم العود إلى الحريات ، وفك الحصار المضروب على العديد من القوى بين ١٩٥٤ و١٩٧٠ ، رغم ايجابية النتاج التاريخي بالمعنى الشامل . وقد أدى « الانفتاح » إلى تقويض أركان ومعاني الطاقة المصرية ، أو كاد : أن عزل ثم تفكيك القطاع العام في الاقتصاد والصناعة خاصة ، واضعاف القوات المسلحة بعد ١٩٧٥ ، رغم انتصار أكتوبر ١٩٧٣ الباهر ، الريادي ، ثم تفكيك المشروع المصري ، واحباط الهمم ، وبداية تهجير المثقفين والكوادر المصرية إلى الخارج ، أو اسكاتهم وعدم استعمالهم في الداخل ، ترتب عليه اضعاف الطرفين معا : فئة المثقفين والمفكرين من ناحية ، والدولة الوطنية الفعالة من ناحية أخرى . وهنا أيضا نلحظ أن ما كان يمكن تصحيحه، ألا وهو ابعاد المثقفين من الفاعلية التاريخية ، تحول إلى محاولة مطردة ، مكثفة ، ضارية ، لتغريب مصر ، أي لاجهاض العامل الثقافي ، من كل فاعلية ، بوصفه أخطر مفتاح في الموقف المصري خاصة بعدما أنشأته حرب أكتوبر ١٩٧٣ من آمال كبرى في قطاعات واسعة من مصر والامة العربية ، رغم محاصرة نتائجها بسرعة ودهاء بالغين في الخارج والداخل معا .

ومن هنا ، فإن إشكالية النهضة المصرية ، ومن ثم النهضة العربية ، تكمن فى إعادة تعبئة الطاقة الوطنية حول العروة الوثقى بين رجال الفكر والسلاح ، أى كيفية إعطاء العامل الثقافى دوره الكامل ، الفعال ، لتحريك الايجابية التاريخية ، يدا فى يد مع الدولة الوطنية المستقلة التى استعادت خطوة خطوة عناصر تحركها الفعال فى الداخل والخارج معا ، ولو كان ذلك ببطء شديد ، تمليه الظروف ، وضرورة الحرص البالغ على ما تم انجازه حتى الآن . المعادلة الصعبة لا تزال قائمة ، ولكنها الآن مطروحة بوضوح ، بين قطاعات واسعة من الرأى والعمل على أرض مصر والامة العربية ، وابتداء من التجارب التى لابد وأن تكون محل دراسة مكثفة متنوعة فى كل المدارس التكوينية للفكر والعمل فى مصر وأمتنا العربية .

١٠- ننتقل الآن إلى اليابان .

وهنا أيضا فى دراسة هذا المثل العملاق للتحديث والتغير الشامل ، فى قلب مرحلة تغيير النظام العالمى ، نرى أن السيل الجارف للمحاولات والدراسات والتحليلات الذى يتدفق من الغرب منذ حين ، وخاصة منذ أزمة البترول ، يحارب فى جبهتين . جبهة أولى ، بطبيعة الامر : ألا وهى أن التجربة اليابانية تمثل أبرع نوع ونمط من « نقل العلم » و« نقل المعرفة » وخصوصا « نقل التكنولوجيا » . أى أن اليابان هو« الناقل الامثل » . ويسهب

أصحاب هذا المنحى إلى أن عملية النقل البارعة هذه جاءت بداية لعملية تالية ، مكنت اليابان من تخطيط الغزو الصناعى والتكنولوجى المضاد ضد الغرب الصناعى الرأسمالى إلى حد أنه توغل فى كل أسواقه ، بل وبلغ حد تهديد أركان هيمنته الاقتصادية والصناعية فى عقر دارها .

هذا المنحى الاول ، يمثل على وجه التحديد ، اتجاه التحديث ، أى اتجاه التنمية بواسطة النقل ، وإن كانت هذه المرة ليست تابعة . وقد استجابت له قطاعات واسعة من رجال الفكر والاقتصاد فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، بادىء الامر ، وكذا فى أمتنا العربية حتى بداية السبعينات : هانحن ذا قد وصلنا إلى مفتاح اليابان الغامض ، إلى نتاج ثورة « ميجى » ، إلى البديل الناجح لمحاولة محمد على ، إلى إيجابية الشرق الحضارى - بشرط أن يتم تقليد الغرب على أحسن صورة وأدق تخطيط ، بوجه شامل لا يترك مجالا للشك فى أن التغريب هو الطريق والتقليد هو المفتاح ، والمغايرة أو الخصوصية هى الوجهة التى لا تؤدى الا إلى المأزق والفشل والازمة . تمت الدائرة من منظرى التغريب فى الغرب المهيمن إلى تلامذتهم ورجالهم أنصار النقل والتقليد والتبعية فى الشرق ، وذلك باسم «التجربة اليابانية » كما أراد السواد الاعظم من التكنوقراط أن يفهموها آنذاك .

ثم جاءت الموجة التالية على أزمة البترول بعد حرب أكتوبر ، وظهر بوضوح أن الصيغة اليابانية - داخليا وخارجيا - لا تمثل نقلا للصيغ الغربية . فمن الناحية التكوينية الداخلية ، أى من حيث نوعية نمط الانتاج ، اتضح بجلاء أن الرأسمالية اليابانية بوجه عام ، وخاصة القطاع الصناعى منها ، وأيضا المالى ، يعمل بطريقة مغايرة ، بل ومغايرة كيفيا وبشكل تام ، لانماط الغرب سواء فى أوربا أو فى أمريكا : تفضيل استثمار الارباح بشكل مكثف فى البحث والتنمية الاستراتيجية العلمية والتكنولوجية والصناعية على توزيع الارباح ورفع سعر الاسهم بالمضاربة المصرفية ، تفضيل ضمان العمل بالنسبة لكافة العاملين فى المؤسسات الكبرى ولو بواسطة نقلهم إلى وحدات غير وحدات العمل الأصلية ، وتخفيض الأجور فى نهاية مرحلة العمل على البطالة وارهاق الدولة بمصاريف الدعم للعاطلين والهامشيين ، وكذا الشيوخ ، ضبط الفوارق بين مختلف مستويات الاجور ، من رئيس مجلس الادارة إلى مساعدى النظافة بحيث لاتتعدى حدود المقبولية السيكولوجية ، تواجد هيئة المديرين فى قلب رجالهم من العمال والمباشرين بشكل متصل ، بغية صياغة الوحدة العاملة الفعالة دون البيروقراطية والادارة المكتبية من فوق . ثم ربط كل هذا بحب الوطن ، والولاء لليابان ، ومستقبل اليابان ، ومجد اليابان ، لا بفكرة الربح والاستهلاك والتفرد ، والانانية ، وهى

القيم التى اتصفت بها الرأسمالية فى الغرب ولا تزال ، فى عصر هبوط معدل نموها فى أوربا الغربية الآن .

ثم تساءل المفكرون والباحثون ورجال العمل عن أسباب هذه الظواهر الغريبة : فهل ترى أن الرأسمالية اليابانية تتصف بلعبة داخلية لم يفهمها الغرب ، أو قطاعات الشرق الاخرى ؟ . أى أن اليابان – من يدرى ؟ ! ربما ليس « مقلدا » ؟ وأن لم يكن اليابان مجرد مقلد الذى قيل به ، فمن هو ؟ ...

وهنا بدأ العد التنازلى من سيادة مفهوم التقليد بشكل مطلق لتفسير سيادة الظاهرة اليابانية ، إلى بوادر استعمال مفهوم الخصوصية لادراك ما هو كامن وراء الترسانة الجبارة التى بدأت تزلزل أركان الهيمنة الغربية فى الاقتصاد العالمى كله ، استنادا إلى موارد الطاقة الغربية – الايرانية – الاسلامية .

وفى الحق ، كانت هناك عدة دراسات عن تاريخ اليابان بوجه عام ، وتاريخه الحديث بوجه خاص ، تقدم وصفا لا بأس به لصياغة هذا المجتمع الشامخ . ولكن الدراسات المتخصصة فى تحليل التجربة اليابانية منذ عهد « ميجى » إلى اليوم – وخاصة تلك التى حاولت أن تفسر صعود اليابان إلى ثانى مكانة فى الحركة الاقتصادية والصناعية العالمية ، ربع قرن بعد ضرب هيروشيما وناجازاكى بالقنبلة الذرية ، وحرق العاصمة طوكيو

الذى دمر كل معانى العمران بها عام ١٩٤٥ - لم تربط بشكل واضح أو فعال بين الأرضية التاريخية المعروفة وبين الظاهرة المتحركة الفعالة التى فاقت كل تقدير . وكيف لا ؟ ألم نكن أيام التنكر بالنسبة لمفهوم الخصوصية ، والتردد الشديد أمام الاخذ بها لفهم النوعيات المغايرة لمسار مختلف المجتمعات ، فى اطاراتها الحضارية والثقافية ، أو الجيو - ثقافية ، والقومية ؟ . فما بالنا أمام هذه الظاهرة التى أراد لها الاعلام العالمى الغربى أن تكون مجرد ظاهرة متفردة ، مقلقة ، بمهمة ؟

ان تحليل الظاهرة اليابانية الخارقة يجب أن يتمركز حول العناصر / المحاور التالية ، النابعة من صياغة خصوصية اليابان التاريخية على وجه التدقيق :

أ) يتكون اليابان من مجموعة من الجزر حول جزر رئيسية ثلاث ، ظل على منأى من الغزوات بشكل متفرد عبر التاريخ ، اللهم الا من ناحية كوريا ، التى امتزجت مع مجتمع الجزر اليابانية الأصلى لتكوين اليابان فى العصور الوسيطة ، بعد أن بدأ عصر الامة - الدولة اليابانية فى القرن السابع الميلادى . وقد حاول الغرب باصرار ، من خلال توغل الارساليات الكاثوليكية ، أن يدخل اليابان بعد وصوله إلى الصين فى نهاية القرن السادس. ولم يبدأ الغزو الغربى لليابان الا عندما فتح الكومودور « بيرى »

ميناء « ناجازاكى » تحت ضغط الاسطول الامريكى فى ١٨٥٨ .
ومعنى هذا ، على وجه التدقيق ، أن اليابان ظل فى عزلة تامة عن كل ما عرفه ، مثلا ، العالم العربى والامة الاسلامية ، من غزوات بالسلاح ، منذ القرن التاسع . وهو أمر ضئيل نسبيا لو قارناه ، مثلا ، بتاريخ مصر ، منذ غزوات الهكسوس / حتى عبور أكتوبر ١٩٧٣ . أن هذه الظاهرة متفردة حقيقة ، بالنسبة لمجتمعات الحضارة الغربية ، وليس فقط بالنسبة للمجتمعات الشرقية . أنها ظاهرة فريدة حقيقة ، مكنت اليابان من الدرع الواقى الجغرافى والتاريخى معا الذى عزله عن التأثير الاجنبى - اللهم الا تأثير الصين وكوريا والبوذية ، وهى تأثيرات شرقية آسيوية مواكبة له - حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ... ومن خلال هذه العزلة الجغرافية التاريخية معا ، تكون إطار صياغة الخصوصية اليابانية ، المتفردة فى شعورها ومنظورها ومفهومها بالنسبة لكل الخصوصيات الاخرى ، وهى تنظر بعين الابتسامة الساخرة ، الصامتة ، لدعاة « النقل » و« التقليد » ، الذين اعتبروا اليابان مستعمرَة غربية مثل العديد من الضياع غير المعروفة التى سيطر عليها الاستعمار الغربى بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر . ومعنى هذا التفرد الجغرافى / التاريخى أن جوهر خصوصية اليابان يكمن فى قوة الوحدة الوطنية ، ووضع الاتفاق الوطنى Consensus فوق أى اعتبار آخر ، إلى حد أن مفاهيم

« الاغلبية » و« الاقلية » يكاد يكون لا معنى لها من حيث الفاعلية الاجتماعية على المستوى القومي ، اذ أنها تفرض تفتيت هذه الشمولية القومية وهذا الوفاق الاجتماعى – الثقافى – الحضارى الذى يكون جوهر خصوصية اليابان . ويترتب على هذا الجوهر التكوينى المركزى للخصوصية اليابانية أن كل ما هو آت من الخارج ، أى من خارج دائرة تكون واستمرارية الخصوصية اليابانية القومية ، لا يمكن أن ينظر إليه الا من حيث فائدته بالنسبة لاستمرارية هذا التفرد الجغرافى التاريخى – وليس بالعكس . وهنا نرى مواكبة ملحوظة بين اليابان والصين فى عصر التحديث والنهضة . فهذا مثلا نص « قسم الميثاق » الذى أعلنه الامبراطور « ميجى » فى ١٨٦٨ : « يجب البحث عن المعرفة فى كافة أرجاء العالم ، بحيث تتوطد أركان الحكم الامبراطورى » ، ثم « مرسوم التعليم » عام ١٨٩٠ : « إن الطريق الذى رسمناه هو ، فى واقع الامر ، التعليم الذى ورثناه عن أجدادنا الاباطرة ، وهو التعليم الذى يجب أن يتبعه خلفهم ، وكذا كافة المواطنين ، تعليم صائب لاثغرة فيه بالنسبة لكافة العصور وصحيح فى كل مكان » . وشعار ماوتسى تونغ المركزى فى قلب ثورة الصين ، بعد تحريرها ، وتحديثها : « فليخدم كل ما هو عالمى كل ما هو صينى ! » .

ب) المحور التكوينى الثانى يترتب ، بشكل دقيق على هذا المحور الاول الذى يكوّن ، كما قلنا ، القالب ، أو الاطار الاعم ، لتكون خصوصية اليابان . أن المركزية الحيوية للوفاق القومى تعنى ، على وجه التطبيق ، سيادة النظرة الداخلية ، فى كل آن ومكان على أية نظرة أخرى ، أيا كانت الظروف والاعتبارات . ولكنها لا تعنى ، بحال من الاحوال الانغلاق ، وتعادى بشكل أساسى السلفية التى تتمايز هنا بشكل جذرى عن الاصولية .

هكذا نرى ان ذلك الذى فهمه الغرب على أساس أنه « تقليد » كان ، بالفعل ، عملاً دائباً ، من داخل القلعة اليابانية لادراك مفاتيح ووسائل ، وأهداف الترسانة الغربية المتقدمة ، الغازية فى القرن التاسع عشر ، أى المرحلة التى بلغت فيها الهيمنة الغربية أوجها . فان المطلوب هو المسح الشامل ، والمسح الشامل لا يعنى التقليد الشامل . المسح الشامل معناه جرد الترسانة الغربية بشكل شامل .دقيق أولا وقبل كل شيء ثم تأتى المرحلة الثانية ، مرحلة الانتقاء النقدى ، بغية اثراء ما هو قائم فى اليابان بالفعل ، حسب تعليمات الامبراطور « ميجى » وأسلافه فى قلب الطبقة السياسية اليابانية . فماذا ترى هو ذلك « الذى هو قائم » فى القلعة اليابانية قبل تحديثها ؟

المعطى الاول – المركزى المركزى الحياتى بمعنى الكلمة – هو

الوحدة القومية ، الوفاق القومى . ولكنما هناك معطى ثان ، غاية فى الاهمية . ذلك أن اليابان يتكون من جزر بركانية ، كانت تحتوى على القليل النادر من المواد الغذائية ، ولا يحتوى على وجه الاطلاق على مواد الطاقة . ومن هنا تشكل نمط الحياة الفردية والاجتماعية فى اليابان : السيطرة على البحار المحيطة للصيد والمعيشة ، الاعتماد على تحويل كل ما ينبت على أرض اليابان البركانية ، من خضرة نادرة ، وجذور ، وكافة أنواع النباتات حتى التى تبدو بعيدة عن الالفة ، وتحويلها بالطهو البخارى إلى مشهيات ومشروبات ساخنة كحولية ، لمحاربة البرد الشديد ، مع الاعتماد على نتاج البحار . وقد ترتب على الاجيال المتتالية من هذا النمط الغذائى ، النقى ، الطازج ، البعيد عن الدهونيات والتقلية ، أن تميز الانسان اليابانى بالصحة والقوة البدنية ، مما أهله إلى مراس كافة ألوان التمرينات الرياضية والحربية الخشنة ، وجعل منه ، رجالا ونساء ، مجتمعا صحيا على أرفع مستوى من القوة والاحتمال ، على أساس الاكتفاء بما هو قائم ، وتطويعه برضى وذكاء . فكان أن ارتفع اليوم العمر المتوسط فى اليابان إلى أرفع مرتبة ، رغم تباين الظروف المعيشية والغذائية تماما بالنسبة لتراكم الترف فى الطبقات المتوسطة والمرفهة لمجتمعات الغرب الصناعى منذ قرون . ومعنى هذا ، أن الادخار الداخلى

فى اليابان ، على أسـاس حياة التقشف هذه ، بلغ مستوى رفيعا جدا أسوة بالصين .

وقد حاول محللو الغرب تفسير هذه الظاهرة بأنها « نمط الحياة الكونفوشية » Confucius .وحاولوا أن يفسروا بها ظاهرة النمو الصناعى المطرد فى عموم أقطار شرق آسيا ، من كوريا حتى جزر المحيط الهادى شرقى أندونيسيا . الا أن تأثير أفكار « كونفوشيوس » – الاعتماد على الجماعة ، احترام سلم الاولويات العائلية والقومية ، العمل الدائب – تلعب ولا شك دورا هاما فى الصين وكوريا واليابان ، ولكنها ليست بحال من الاحوال العامل الاوحد ، لان خصوصية كل من اليابان وكوريا والصين متباينة تماما ، وكذا فهى مغايرة تماما أيضا عن خصوصية فييتنام ، ولاوس ، وكمبوديا ، وتايلاند ، والفيليبين ، والملايو ، وسنغافورة ، وأندونيسيا .

إن التفسير على أساس « روح الكونفوشية » هو تفسير نابع من تأثير مفهوم « النمط المثالى » لماكس فيبر ، وليس عن دراسة دقيقة لخصوصية كل من هذه المجتمعات القومية العريقة فى الحضارة .

جـ) والمحور الثالث يتمثل فى أنه ، من أجل تحقيق هذا الانتقاء النقدى الفعال ، لصالح الترسانة اليابانية لابد من موقف

بالنسبة للعالم المحيط ، يتشكل حسب احتياج تطوير هذه الترسانة الداخلية . فاذا كان ثمة ثغرة ، كما حدث بالنسبة للمواجهة مع روسيا القيصرية فى بداية القرن العشرين ، يمكن الإنقضاض وكسر السياج المحيط كما حدث فى انتصار اليابان عام ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ، وكذا كما حدث أثناء بناء الإمبراطوية اليابانية بين ١٩٢٠ و ١٩٤٥ ، حول تدمير الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى . فى بيرل هاربور . وإذا كان ميزان القوى لايسمح بذلك ، فيجب الإرتداد إلى مستوى " السياسة الهادئة " المتجاوبة ظاهريا مع مقتضى الأمر ، حتى تتغير الأمور ، فتستطيع اليابان أن تستعيد مكانتها فى النظام العالمى . وهذا ماحدث بالضبط بعد هزيمة ١٩٤٥ النووية حتى ظهور بوادر التجديد السياسى عام ١٩٨٢ : لاستعادة المكانة القيادية لليابان . ولكن الجدل قائم بين قطاع واسع من الطبقة السياسية والمثقفين ، التى تتخوف حتى الآن من أى دور فعال لبلادها فى عالم صاخب ، وبين القيادة السياسية الجديدة التى ترى أن هناك منزلة بين المنزلتين ، وأنه لابد من التحرك الفعال إلى مستوى مقبول من القوة ، حفاظا على مكانة اليابان المتفردة فى المجالات الإقتصادية والصناعية والتكنولوجية وكذا الأدبية فى قطاعات واسعة من العالم ، خاصة بعد معاهدة السلام والصداقة الصينية – اليابانية عام ١٩٧٨ .

ولو أجملنا القول فى الجمع التحليلى بين هذه المحاور الثلاثة

لخصوصية اليابان ، لأدركنا أن العامل / المتغير الثقافى - الحضارى يلعب الدور التكوينى المركزى لتحديد هذه الخصوصية ، وهى خصوصية المجتمع القومى الذى بلغ أوج النجاح فى عملية التحديث ، وقمة مجموع عمليات النمو العاجل ، الناجح ، الثابت ، المطرد فى تاريخ العالم الحديث .

سوف نقتصر ، فى هذا البحث المقتضب ، على هذين المثلين لما بهما من امكان لإقامة مقارنة ذات مغزى ، تنير الطريق ، وتبين مكانة المتغير الثقافى فى الظاهرة الإنمائية .بجلاء وبشكل حساس وفعال معا .

هنا وهناك ، تحتل الثقافة ، العامل أو البعد الثقافى ، مكانة مركزية . ولكنها لاتتحول من امكان إلى عنصر فعال واقعى إلا من خلال ، وفى إطار القالب الإجتماعى - السياسى ، أى فى إطار السياسية القومية على المسار القومى بأسره ، سواء أكان هذا المسار فى مرحلة الإستمرارية ، أو فى مرحلة التطور العاجل نحو النمو السريع ، أو فى مكانة صد العدوان والإبقاء على معانى ذلك النمو الذى لولاه لاتتحقق مكانة الأمم .

الفصل الثانى:

الثقافة العربية فى عالم متغير

أولا : أصول ومقومات الوحدة الاجتماعية - الثقافية للأمة العربية

١ - عمق المجال التاريخى :

من المعتاد أن تكون نقطة البدء فى تقييم وحدة الامة العربية فى مجال المشاركة فى الثقافة ، واللغة ، والدين ، وكذا السيرة التاريخية منذ القرن السابع الميلادى . وعندنا أن تدقيق النظر فى تحليل البعد التاريخى ، بعد الصيرورة التاريخية ، سوف يكشف لنا عن القسمات المميزة التى بها تنفرد هذه الوحدة ، أو تكاد ، بالنسبة للظواهر الموازية لها فى عالمنا المعاصر .

تكونت الامة العربية من جميع المجتمعات والقوميات القائمة بين المحيط الاطلسى غربا والخليج العربى فى التحامه بالمحيط الهندى شرقا من ناحية ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى الصحراء الافريقية الكبرى ومنابع النيل جنوبا من ناحية أخرى . والمهم هنا أن هذه المجموعة المتباينة من المجتمعات والقوميات

تشمل عددا من أقدم حضارات العالم القديم ، خاصة فى مصر – أقدم مجتمع قومى موحد عرفه التاريخ – ، والمغرب ، وعراق ما بين النهرين ، وفلسطين وتدمر ، واليمن السعيد . أى أن الأمة العربية – منذ عصر الفتوحات العربية إلى عصرنا هذا – تمد جذورها وأصولها إلى عشرات الاجيال وهى جذور وأصول تجمع عددا من أكثر حضارات وثقافات وقوميات العالم تأصلا فى التاريخ القديم ، أى فى تكوين معالم ومعانى الانتاج ، الزراعى ، والفنون والعلوم والتكنولوجيا ، وكذا الاديان والفلسفة والفكر البشرى بأسره ، وذلك منذ عشرات الاجيال قبل أن تكون الأمة العربية بمعنى الكلمة .

وما ان تمت الفتوحات العربية الاسلامية حتى أخذت معالم التكوين الاجتماعى – الثقافى الموحد تتشكل بسرعة بالغة فى اطار الامة العربية الناشئة ، بينما استمرت دول ومجتمعات آسيا الاسلامية الصاعدة إلى مكانة الصدارة متفرقة ، لا تجمعها ثقافة واحدة . فقد وجدت الدعوة الجديدة أرضا خصبة ممتازة فى غالبية المجتمعات العربية ، سواء أكانت مجتمعات زراعية فى مصر ووادى النيل والعراق ، أو مجتمعات قائمة على أسس العصبية فى جبال المغرب ، وكلها يملك من معانى التجانس الاجتماعى – القومى والاستمرارية الاجتماعية حول مركز الحكم ما جعل منها خير مستقبل للفتح والوحى والفكر الجديد . وهكذا نرى كيف أن

عمق المجال التاريخى الفريد لمجموعة المجتمعات والقوميات التى انصهرت فى بوتقة الامة العربية لعب دورا حاسما ، أو كاد أن يلعبه ، فى التعجيل ببلورة هذه الوحدة المتجانسة وتأصيلها عبر أجيال المواجهة .

٢ - اتصال الوحدة فى مواجهة الغزو الخارجى :

كانت المرحلة الاولى من عصر المواجهة ذات طابع دينى ، من القرن التاسع حتى القرن السادس عشر . والملاحظ هنا ، أولا ، أن الحروب الصليبية ضد القوة العربية الاسلامية الجديدة عرفت كيف تحدد محاور الضرب ، وذلك بالتركيز على الدول العربية القوية ، ومراكز القوى الكامنة فى المقام الأول ، ومن هنا كان التركيز على مصر والشام أولا ، ضد لواء الوحدة الذى رفعه صلاح الدين الايوبى مع العناية أيضا بساحل أفريقيا الشمالية فى المغرب . وكذا ، فقد عملت موجة الحروب الصليبية فى الوقت نفسه - وهى ملاحظتنا الثانية - على الغاء مكانة العرب المرموقة كمركز عالمى فريد آنذاك للتجارة ، والتكامل الاجتماعى وتفاعل الحضارات بين الشرق والغرب ، وذلك بواسطة موجة الاكتشافات البحرية حتى أصبح طريق رأس الرجاء الصالح بديلا للشرق العربى ابتداء من القرن الخامس عشر .

كانت هذه إذن همزة الوصل بين المرحلة الاولى من عصر المواجهة - الموجة الدينية الصليبية من القرن التاسع حتى القرن السادس عشر - وبين المرحلة الثانية ، مرحلة الغزو الاستعمارى المباشر منذ القرن الثامن عشر إلى اليوم ، بعد مرحلة انتقالية اتسمت بضعف الدولة العربية ، وانهيارها أيام الغزو المغولى ، وانتقال الخلافة إلى تركيا .

٣ - وحدة المصير الحضارى :

وقد ترتب على عمق واتساع هذه الموجة الثانية التى شملت جميع أقطار العروبة أن امتدت وتعمقت معانى الوحدة ، الوحدة المتصدية للمواجهة ، ورد الغزو ، واسترداد مكانة العرب الحضارية فى عصرهم الذهبى .

هكذا كانت مسيرة العرب المشتركة ، ولا تزال ضد موجات الغزو الاستعمارى الثلاث : الاستعمار التقليدى ، وخاصة فى صورتى الاستعمار الاستيطانى والاستعمار الثقافى ، أولا ، ثم الاستعمار الامبريالى المهيمن ، وأخيرا ، الاستعمار الصهيونى العنصرى .

وللمرة الثانية ، نشهد أثر عمق المجال التاريخى . فقد عمت حركة تعمق الوحدة العربية جميع نواحى الحياة الاجتماعية وقطاعاتها ومعانيها : من تحالف وائتلاف وتوحيد الانظمة

والهيئات السياسية (حركات التحرر ، الجبهات الوطنية ، الحركة القومية العربية ، الاحزاب والهيئات النقابية والمهنية وكذا مؤسسات الدولة ذاتها) ، إلى تنسيق الطاقات والامكانات الاقتصادية ، إلى تعبئة الفكر والوجدان فى سبيل الابداع والخلق والنهضة .

والحق أن مفهوم « النهضة » يمثل نقطة إنصهار كافة هذه العناصر والعوامل . فقد سبق العرب سائر قوميات المشرق فى استعمال هذا التعبير واعتباره رمزا وشعارا لوثبتهم فى مطلع القرن التاسع عشر ، بعد أربعة أجيال من عصر الانحدار دبت فيه معانى التفكك إلى قلب الامة العربية ، وأشاعت الفرقة السياسية والفساد الاجتماعى والسلفية الفكرية والتبعية وضعف المبادرة والاقدام فى السلوك الشخصى . أى « فقر الدم » على حد تعبير مفكر عربى معاصر – ومن بعده الغاء فعالية الكيان العربى وتأثيره الحضارى فى العالم الحديث . هكذا كان التحدى ، وهو بكل دقة وبمعنى الكلمة تحدى حضارى شامل ، غير مقصور على السيطرة الاقتصادية والسياسية كما كانت الحال مثلا فى العديد من مناطق العالم الاخرى . ذلك أن هذه المناطق النائية عن حوض البحر الابيض المتوسط – الذى كان يمثل آنذاك محور التطور التاريخى العالمى – لم تمثل أى خطر واقعى أو أى تحد واقعى من حيث زعامة حركة التطور التاريخى فى العالم ، يمكن أن ينال من

صعود الغرب إلى مكانة الهيمنة التاريخية ، من عصر الاكتشافات البحرية وتكون الدول الحديثة بقيادة البرجوازية فى أوربا حتى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ وما ترتب عليها من آثار تاريخية عميقة .

ثانيا : العلاقات المتبادلة بين الثقافة العربية والثقافات العالمية الكبرى فى عالم متغير

٤ - نوعية العلاقات بين الثقافة العربية والثقافات العالمية فى عصر ما قبل النهضة العربية :

أدت مكانة الامة العربية ، حول الخلافة الاسلامية ، فى قلب الاطار الحضارى الهندى - الأوربى من ناحية ، وكذا كعنصر تكوينى رئيسى فى الاطار الاسيوى - الصينى من ناحية أخرى إلى قيام نسيج من العلاقات المتبادلة بين الثقافة العربية ، والعديد من الثقافات الكبرى آنذاك ، بين القرن السابع والثامن عشر - وكان هـذا النسيج من العـلاقات متميزاً باسـتمرار الاتصال والفاعلية الخصبة ، وهو ما تنكر له الغرب .

قامت هذه العلاقات الثقافية المتبادلة مع عدد هام من الثقافات العالمية فى الشرق والغرب على السواء :

* مجموعة الحضارات والثقافات فى غرب آسيا (الشرق الاوسط فى تعبير اليوم) ، منطقة التراث الاغريقى - الرومانى فى امتداده المسيحى (ايطاليا ، اسبانيا ، جنوب فرنسا ، البلقان ابتداء من اليونان) ، وقد شملتها موجة الفتح الاسلامى .

* حضارة وثقافات أوربا المتوسطية الجنوبية .

* عدد من ثقافات أوربا الشمالية والوسطى (انجلترا ، ألمانيا على وجه التحديد) ، من خلال موجات الحروب الصليبية المتعاقبة .

* غالبية ثقافات القارة الافريقية : أولا بفضل الجذور التكوينية المشتركة العميقة التى تربط بين مصر والسودان من ناحية وبين أعماق القارة وشرقها حيث منابع النيل ، وكذا نسيج مواز بين المغرب العربى وغرب أفريقيا ، ثم ثانيا فى الاجيال التالية لمرحلة الفتوحات الأوربية ، حيث نشاهد امتداد الاسلام إلى أفريقيا عاملا على توحيد مناطقها الكبرى والقضاء على التفتيت الاقليمى والوثنية .

* الجزء الاكبر من حضارات وثقافات آسيا الوسطى والجنوبية من الخليج العربى إلى بحر الصين ، وجزء من حضارة الصين غربا وجنوبا ، بينما ظل الاطار الحضارى الاسيوى حول الصين (أى معظم القارة ، باستثناء جنوبها) يدور حول محوره

الخاص ، الصينى فى الاساس ، فى عزلة كبيرة عن سائر العالم حتى بداية العصر الحديث فى القرن السادس عشر . وهنا يجدر بنا أن نلحظ أن العلاقات الثقافية العربية في آسيا دارت أساسا حول الاسلام ، دينا وحضارة ، الذى أصبح ثاني الاديان فى آسيا بعد البوذية حتى عصرنا هذا .

* امتازت العلاقات المتبادلة بين الثقافة العربية من ناحية ، والثقافات الكبرى فى هذه الحقبة التاريخية من ناحية أخرى ، بدرجة كبيرة من فعالية الثقافة الغربية وعمق تأثيرها فى الثقافات الاخرى وهو ما استمر حتى القرن الرابع عشر ، مما لعب دورا عظيما فى تشكيل معالم النهضة الاوربية - فى مجالات العلوم النظرية والتطبيقية أسوة بالآداب والفنون والفلسفة والمعمار ، بينما ظل تأثير الثقافات الاخرى وخاصة الاوربية منها ، محدودا ، متقطعا ، ضئيل الأثر . وقد بدأت حركة إعادة تقييم هذه العلاقات المتبادلة منذ سنوات قليلة كرد فعل لتحرك الامة العربية ، وأن اقتصرت فى معظم الاحوال على إبراز النواحى الحسية والوجدانية على حساب النواحى العلمية والاجتماعية والسياسية .

ثم بدأت مرحلة الانحدار ، والازمة الحضارية ، من أواخر القرن الرابع عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر ، من « مقدمة » ابن خلدون فى التنقيب عن أسباب ضياع أفريقيا (أى شمال أفريقيا ، أو المغرب العربى) وتفتت العصبية إلى « تخليص

الابريز » لرفاعة الطهطاوى تنقيبا عن مناهج الالباب وأسباب النهضة .

كان طبيعيا أن تتسم العلاقات الثقافية فى هذه المرحلة الثانية من عصر ما قبل النهضة العربية بعكس ما اتسمت به فى المرحلة الاولى .

بدأت معالم النهضة الأوربية تتحدد فى اتجاه يمزج بين الثقافة والتقدم الاقتصادى ، بين الفكر والفن من ناحية وقيام الدولة العصرية الأوربية من ناحية أخرى ، بين العلم والسلاح – أى أن جميع أسباب الفتح والهيمنة تجمعت بين أيدى الطبقات البرجوازية النامية حول عصر الثورات الأوربية ، وقد واكبه وتلاه عصر الفتح الاستعمارى والامبريالى . معانى القوة والنهضة الحضارية الشاملة من ناحية الشمال اذن ، وفى مقابلها – فى الأمة العربية – معانى الضعف والتفتت « وفقر الدم » .

٥ – نوعية العلاقات بين الثقافة العربية والثقافات العالمية فى عصر النهضة العربية :

بدأت موجة الفتوحات الغربية تؤكد هذا الارتباط العضوى بين الفكر والسلاح بين الثقافة والسياسة ، وذلك على أيدى الحملة الفرنسية ضد مصر التى قادها بونابرت الشاب(١٧٩٨ –١٨٠١) ومعه صفوة من قادة الثورة الفرنسية العسكريين وكذا « البعثة

العلمية » التى نقلت معالم النهضة الحضارية العلمية الأوربية إلى العرب ، وقد تركز الفتح الثقافى الغربى على المناطق التى وقعت تحت سيطرة فرنسا منذ ذلك الحين (المغرب ، الجزائر ، تونس ، ثم لبنان وسوريا) ، أكثر مما حدث فى المناطق الأخرى وذلك نظرا لسياسة فرنسا التقليدية فى نشر ثقافتها ولغتها جنبا إلى جنب مع السيطرة الاقتصادية والسياسية والاستيطان .

دارت حركة العلاقات الثقافية بين العرب والعالم الخارجى فى الاساس مع أوربا خلال القرن التاسع عشر ، وحتى الثلث الاول من القرن العشرين . وقد اتخذت هذه العلاقات الممتازة المحصورة لكونها أحادية البعد – أى أنها كانت فيضا ثقافيا من أوربا آتيا إلى العرب ، على شكل الفرض أو الغزو الفكرى تارة، أو اتخذت صورة التقليد الموضوعى فى أغلب الاحيان . كان الاختيار ، فى أحسن الاحوال ، بين النقل والتقليد الاعمى للموجة الغربية ، وبين محـاولة تحليل ثقافات أوربا وانتقاء العناصر الايجـابية النافعة منها ، من خلال عملية دراسية تحليلية نقدية جادة ، ومقارنة ، بغية اثراء العناصر التكوينية القومية ، كما فعل رفاعة الطهطاوى فى الاساس وكذا خير الدين . الا أن هذه العملية المركبة لم يتح لها أن تكتمل : فقد اشتدت الموجة الاستعمارية باطراد ابتداء من ١٨٤٠ إلى أن شمل الاحتلال الاوربى جميع أقطار العروبة فى

الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، واضعا حدا إلى حين لعملية صياغة فلسفية وسياسية عربية مستقلة للثقافة الوطنية ، مما أتاح فرصا جديدة للنقل والتقليد الاعمى الذى عمل على تشويه معالم النهضة الحضارية العربية ، واثارة قضايا ومتناقضات مفتعلة لا يزال أثرها الضار يطغى إلى يومنا هذا على نواح عديدة من الثقافة العربية .

وإلى جانب هذه العلاقات المحصورة أحادية البعد مع أوربا ، كانت هناك قنوات متصلة مع القارة الافريقية ، وأخرى متقطعة مع غرب وجنوب آسيا خلال القرن التاسع عشر ، دارت حول ردود الفعل أمام الموجة الاستعمارية ، والتساؤل عن دور الاسلام فى تجديد حياة المجتمعات والشعوب والدول الافريقية - الآسيوية ابتداء من أفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده .

بدأت الحقبة الثانية من هذه المرحلة فى مطلع القرن العشرين ، وبلغت أوجها فى عصر الثورات التحريرية العربية منذ ١٩١٩ حتى يومنا هذا . انها حقبة تحرير الدول العربية من السيطرة الكولونيالية والاستعمارية الغربية ، واقامة مجموعة الدول الوطنية المستقلة ، والعمل على توحيد هذه الدول فى اطار جامعة الدول العربية وكذا توحيد الجبهات الوطنية والحركات الشعبية لتحرير أرض فلسطين وسائر الاراضى العربية المحتلة من قبل حملات

الغزو الصهيونى ، وتنمية الاقتصاد وتطوير المجتمعات على اختلاف وتباين أنماط تلك التنمية وذلك التطوير من الاشكال التقليدية المحافظة إلى الطريق الاشتراكى ، بفضل ظهور مجموعة من العوامل الجديدة فى مجالات الطاقة البشرية والبترول والثورة الصناعية والهجرة المكثفة من الريف إلى المدن الخ ...

انها حقبة تجديد معانى النهضة العربية ، التى يمكن أن يطلق عليها تسمية المرحلة الثانية للنهضة العربية ، وهى مسيرة بالغة الاهمية نراها تواكب وتوازى وتتفاعل مع العديد من عمليات التجـول فى مصائر أمم وشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وكذا أمم وشعوب الدول النامية فى أوربا وأمريكا الشمالية .

ومن هنا كان لزاما على جميع المعنيين بالثقافة المعاصرة أن يعيدوا النظر فى طرح القضايا الخاصة بالعلاقات الثقافية ، بغية تحديد نوعية العلاقات الثقافية المتبادلة فى عصرنا وفى المستقبل المنتظر ، وكذا التنقيب عن مجالات التلاقى والتفاعل الخلاق فى سبيل اثراء حضارات العالم فى اتجاه التكامل الخلاق .

ثالثا – تحديد المناطق الثقافية العالمية الكبرى :

نقطة البدء فى الحديث عن العلاقات الثقافية المتبادلة تكمن فى تحديد تلك الثقافات التى تحيط بالثقافة العربية فى عصرنا . فكيف يمكن التوصل إلى مبدأ التصنيف فى هذا المجال ؟

هناك أولا ، وفى مستوى التصنيف الاكثر شمولا ، ذلك الذى يبدأ من مفهومى الشرق والغرب بالمعنى التاريخى الحضارى التقليدى ، خاصة كما طوره أرنولد توينبى وجوزيف نيد هام . ومن الممكن أن نقدم هنا صورة مقتضبة لذلك التصنيف على سبيل المثال ، وعلى سبيل الاهتداء العام به ، ولكننا رأينا أن نركز على التصنيف المعمول به فى هيئة اليونسكو نظرا لطابعه العملى .

ان المناطق الثقافية الكبرى التى اعتادت هيئة اليونسكو أن تعمل من خلالها تشمل أحيانا عددا من الثقافات العالمية ، بحيث يمكن تقديم الصورة التالية كأساس للتصنيف الاقصى للثقافات العالمية :

أ) منطقة أوربا وشمال أمريكا (أى الغرب الحضارى) :

- أوربا
- شمال أمريكا (عدا دول أمريكا اللاتينية) .
- جنوب أوقيانيا (وهو يعتبر فى الاساس امتداد لاوربا الانجلوسكسونية) .

ب) منطقة آسيا وأوقيانيا :

- آسيا الشرقية والوسطى .
- آسيا الجنوبية .
- آسيا الجنوبية الشرقية .
- آسيا الجنوبية الغربية .

- أوقيانيا (دائرة المحيط الهادى عدا جنويه الغربى) .

ج) منطقة أفريقيا :

د) منطقة أمريكا اللاتينية

هـ) منطقة العالم العربى

يقودنا هذا التصنيف الثقافى الجغرافى المألوف إلى مسألة جديدة ، ألا وهى ان كل منطقة ثقافية تتضمن عددا من الثقافات المتمايزة تشارك من ناحية فى الثقافة الأم ، ولكنها من ناحية أخرى تتسم بسمات مميزة تشكل خصوصيتها . هذا شأن كل من الثقافات الفرنسية والانجليزية ، والالمانية ، والروسية ، والاسبانية، والايطالية فى نطاق « منطقة الثقافة الاوربية » وكذا بالنسبة لكل من ثقافات الصين واليابان وكوريا ومنغوليا وفيتنام فى منطقة الثقافة الآسيوية الشرقية الخ ... سوف يكون لزاما علينا اذن تحديد الثقافات العالمية الكبرى التى نرى أنه من المفيد واقعيا - أن نبحث فى علاقاتها المتبادلة مع الثقافة العربية ، وذلك فى مجال تحديد مشاريع البحث المقترحة .

رابعا - معنى العلاقات الثقافية المتبادلة : من النقل إلى الابداع :

ان نوعية العلاقات الثقافية المتبادلة بين ثقافات عالم اليوم تماثل نوعية العلاقات بين مختلف مناطق العالم فى مجالات

الاقتصاد ، والسياسة ، أى أنها تتأثر بطبيعة ميزان القوى والنفوذ بين مختلف الاطراف المعنية ، على الاقل كنقطة بدء . ومعنى هذا أن العلاقات الثقافية المتبادلة سوف تبدأ من واقع الامر الذى يمنح ثقافات الدول المتقدمة - أى دول الغرب بالاساس - الوزن الاكبر فى مجال الثقافة والفكر والعلوم .

لكن هذه نقطة بدء ، ليس الا ، ان هذا التوازن غير المتكافىء آخذ فى التحول التدريجى بنسب وإلى درجات متفاوتة حسب المجالات الثقافية ، وكذا فى مختلف المناطق الثقافية ، وذلك فى وجه مقاومة قوية لاتلين فى حقيقة الامر . ومهما كان الامر ورغم كل شىء فان السمة المميزة التى تتسم بها نوعية العلاقات الثقافية المتبادلة فى عصرنا هذا انما تكمن فى مجال « التحول » ، « التغير » ، وأحيانا « التبدل » ، أى أنها علاقات تتسم بدرجة أكبر من « التبادلية » ، وبنسبة أقل من « أحادية البعد » . ان نهضة مجتمعات وقوميات ودول وشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يواكبها تميز الثقافة الغربية نفسها ، بين ثقافة - مجموعة ثقافات - غربية ليبرالية فى أوربا الغربية وشمال أمريكا ، وثقافة - مجموعة ثقافات - غربية ، اشتراكية ، فى دول أوربا الشرقية والوسطى - هذا من حيث شكل نوعية تلك العلاقات .

أما من حيث المضمون ، فان المساهمة الثقافية المتزايدة باطراد - لبلدان - آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - والامة

العربية فى قلبها - تمتاز بالمواقف الاكثر ايجابية . ومعنى هذا ان تزايد العلاقات الثقافية ، وكذا نسبة اسهام الثقافة العربية فى هذه الحركة ، وتنوع قنواتها ، يسير جنبا إلى جنب مع ظواهر لا تمت إلى النقل ، انما إلى مجال التقييم النقدى والابداع :

أ) ان كمية وثقل التحاليل النقدية المعنية بالثقافات الغربية المتقدمة ، والاهتمام بنواحى التأزم والقصور فيها ، تلفت النظر وتدل على أن عنصر أحادية الطرح انتهى إلى حد بعيد ، ان لم يكن إلى غير رجعة .

ب) وفى نفس الوقت ، تهتم ثقافات القارات الثلاث ، وفى قلبها الثقافة العربية ، بابراز ايجابية تراثها الحضارى والثقافى ، وامتداد هذه الايجابية فى عصرنا هذا ، ودراسة امكانات تلك الطاقات .

جـ) وفى بعض الاحيان ، نرى بعض هذه الثقافات القديمة المعاصرة معا تؤكد قدرتها على الابداع الثقافى ، شكلا ومضمونا ، رغم تجاهل الدوائر الثقافية الفكرية فى الدول النامية فى معظم الاحيان ، وكأنه لا يعقل أن يقدم العقل والوجدان فى القارات الثلاث تجديدا للحلول المعهودة ، أو يكتشف نواح غير معروفة من اشكالية الانسان فى عالمنا المتغير . الامثلة هنا عديدة ، ولكنها مبعثرة ، لا يعنى بتجميعها وابراز أهميتها العلمية والتاريخية رجالها ، كما يجب .

وقد تطور مفهوم الابداع الثقافى تطورا ملحوظا بقدر تطور المجتمعات المعنية ذاتها ، وخاصة من حيث قوتها وقدرتها على النمو الاقتصادى والاجتماعى ، بحيث أصبح من الممكن أن نركز على مضمون الابداع فى المقام الأول . حتى عهد قريب يكاد ينحصر فى نطاق « المغايرة » والندرة ، أو يمتزج بهذه المعانى . ذلك أن عددا كبيرا من مثقفى آسيا وأفريقيا - والعرب فى قلبهم بطبيعة الامر - قبلوا النظرة والمفاهيم الاستشراقية ، وكأنهم ومجتمعاتهم وثقافاتهم مجموعة من الظواهر الهامشية المتواجدة خارج نطاق المألوف النظامى . ومن هنا ، أصبح الابداع الثقافى يكاد يماثل « البدعة » ، وهو على كل حال من شأن جماعات محدودة ، أو أفراد متمايزين يقدسون ألوانا غريبة من افراز المخيلة أو الذهن الملتهب .

ب) كانت نقطة التحول الاولى فى اعادة صياغة مفهوم الابداع الثقافى انما هى فى تأصيل الثقافة وتأكيد خصوصيتها فى مختلف المجتمعات والقوميات ومن هنا برز مفهوم « الثقافة الوطنية » مواكبا لحركات التحرير وتحقيق الاستقلال والشروع فى التقدم الاجتماعى الشامل . وقد اتسع مجال ذلك المفهوم الجديد بحيث انتقل من تأكيد السيادة فى مجال القرار الثقافى ، إلى التركيز على معالم الخصوصية القومية الظاهرية وخاصة فى مختلف قطاعات الثقافة الشعبية ، حتى بلغ مجال التنقيب عن

جذور وأبعاد الخصوصية القومية - الثقافية كما صاغتها الاجيال . كانت هذه سنوات ظهور أفكار ومفاهيم « الشخصية القومية » ، « الخصوصية الثقافية » ، وهى مرحلة جديدة ، بدأت فى الخمسينات ، ولا تزال تقدم افرازاتها الخصبة التى تمثل تخطى العقل الآسيوى والافريقى والامريكى اللاتينى لحدود الحصر النمطى le reductionism السائد حتى ذلك الحين ، والتى لا تزال بالغة النفوذ فى الاعلام التقليدى حتى الآن .

جـ) ثم اتسع مفهوم الابداع الثقافى فى السنوات الاخيرة إلى بعد نوعية القائمين به ، بحيث أصبحت هذه النوعية تشمل القاعدة الاجتماعية الواسعة من جماهير الشعب فى المدن والقرى جنبا إلى جنب مع فئات المثقفين المتخصصين . لم يعد مفهوم الابداع مقصورا على الانتاج الثقافى المحدد ، وانما راح يجمع طاقات وامكانات القاعدة الاجتماعية الشعبية الواسعة فى تعاملها اليومى مع فنون الحياة - الطبيعية ، الزراعة ، الانتاج ، الطهو واللهو والفراغ والعمل والانتاج ، الحب والعواطف ، السلوك الاجتماعى والرأى العام ، الدين والطقوس والفلسفة الشعبية السائدة ، ادراك العالم الخ ...

ومعنى هذا التشكيل الجديد لمضمون مفهوم « الابداع الثقافى » انه يضع مسألة معايير تقييم عملية الابداع فى مكانة الصدارة ، موليا العوامل القومية الداخلية مكانة أكبر باطراد حتى

بلغت درجة الصدارة حديثا ، وهى عملية تثير فى نفس الوقت مسألة العلاقات المتبادلة بين مثل هذا التقييم الجديد القومى - الثقافى من ناحية ، وبين القيم والمفاهيم القومية - الثقافية ، كذا القيم والمفاهيم العالمية ، من ناحية أخرى .

هكذا نكون قد بلغنا ، تدريجيا ، جوهر الموضوع العميق .

خامسا - تغير العالم ومكانة الثقافة :

يكاد يجمع الدارسون على أن تغير العالم أمر واقع يتراوح مداه بين ١٩٤٥ و١٩٧٣ - حسب التقديرات المختلفة - ، وإن كان ادراك الرأى العام لذلك التغير وشموله للعالم بأسره ، أقرب إلى سنة ١٩٧٣ منه إلى ١٩٤٥ . وعلى كل فان هذه المرحلة التى تمتد من نهاية الحرب العالمية وتحديد معالم توازن القوى العالمية فى يالتا (١٩٤٥) من ناحية ، إلى نهاية حرب فيتنام وحرب أكتوبر (١٩٧٣) من ناحية أخرى ، وهى بمثابة مرحلة التحول الكبير ، مرحلة تغير العالم .

أ) هناك أولا الرأى القائل بأن ذلك التغير اقتصادى - سياسى مباشر ، أساسا حول أزمة الطاقة ، وأنها بمثابة تغير . . . تِ الاثر فى القطاع الاقتصادى على وجه التخصيص ، ولكنه لا يمتد إلى مجال توازن القوى العالمية الا بالقدر اليسير . وعندئذ يكون العلاج بواسطة اعادة تشكيل انماط العلاقات الاقتصادية فى

الاســاس ، ومن هنا تسمية « النظام الاقتصادى العالمى الجديد »، والاهتمام بالعـلاقات الاقتصـادية العـالمية من خـلال « مؤتمر الشمال والجنوب » و الحوار العربى الاوربى مثلا .

ب) ثم هناك وجهة النظر التى تذهب إلى الربط العضوى الوثيق بين تبدل الموقف الاقتصادى من ناحية ، وتغير الموقف السياسى والاستراتيجى العالمى من ناحية أخرى .والتركيز هنا على البعد السياسى بمعناه الشامل ، التقليدى ، والاهتمام بمراكز القوة والنفوذ المؤثر ، والمقارنة بينها كما كانت قبل ١٩٤٥ - ١٩٧٣ وكما تبدو اليوم ، مع محاولة التنقيب عن أبعادها المستقبلية المنتظرة ، ومن هنا كانت محادثات مرحلة الوفاق الدولى ، ومؤتمر هلسنكى ثم بلغراد ، والبحث فى دور ومكانة آسيا الجديدة ، ودور ومكانة الامة العربية وأفريقيا بعد ١٩٧٣ .

جـ) وهناك وجهة النظر التى تعتبر أن فترة ١٩٤٥ - ١٩٧٣ جاءت تتويجا لمرحلة تاريخية بأسرها شهدت وثبة شعوب ومجتمعات وقوميات وحضارات آسيا وأفريقيا والعالم العربى فى الاساس بعد أجيال الانحدار منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وقد شاركت أمريكا اللاتينية فى هذه الوثبة منذ عهد قريب ، وهى المرحلة التاريخية التى شهدت حركات التحرر والاستقلال فى طريق السيادة السياسية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والنهضة

الحضارية التى لا نزال نعيش فى أرجائها حتى يومنا هذا . ومن هنا كان الاهتمام بفكرة « المبادرة التاريخية » ، مشاركة الشرق والغرب فيها ، وربما انتقال مفاتيحها تدريجيا إلى القارات الثلاث حيث تمثل آسيا وحدها ٥٦٪ من سكان العالم والجزء الاكبر من ثروات العالم الاقتصادية وطاقاته القائمة أو الممكنة . وقد رأى المؤتمر العام لليونسكو فى دورته التاسعة عشرة (١٩٧٦) ، ابتداء من تقرير السيد المدير السديد ، أن يؤكد معنى التغير بمعناه الواسع الشامل دون الخوض فى وجهات النظر التفصيلية ، داعيا الامانة العامة على وجه التخصيص ، وكذا جمهرة المثقفين فى كل أرجاء العالم ، إلى العناية بصياغة الفكر والسياسات الثقافية فى اطار تفاعلها مع ، وتأثيرها فى ، هذا العالم الجديد ، عالمنا الانسانى المتغير .

وفى نفس الوقت ، بدأ تحول هام فى ادراك الرأى العام لدور الثقافة وكذا فى مفهوم الثقافة لدى الاخصائيين ، وذلك فى اتجاه ابراز مكانة الثقافة فى عملية تغير العالم ودورها المرموق فى جميع المجالات .

أ) لم تعد الثقافة محصورة فى الاطار المتخصص للنشاط الثقافى ، على اتساع ذلك الاطار وتشعب معانيه ومسالكه . وقد عرضنا فيما سبق إلى بعض نواحى هذا التحول ، وخاصة فى ما

يتعلق منهـا بمشـاركة القـاعدة الاجتماعية الواسعة . وقد بدأ التحول ، فى مفهوم دور الثقافة من نقطة جوهرية فى الحركة الوطنية ، ألا وهى ضرورة النضال فى تبين الشخصية القومية ، وهو نضال بدأ تدريجيا فى نفس مستوى الاهمية التى اعتاد المراقبون أن يعترفوا به لمعانى الاستقلال السياسى والاقتصادى المعهود – ذلك أن السيطرة الاجنبية والهيمنة الاستعمارية بلغتا درجة الجمع بين التضييق على التعليم والتعبير الثقافى الوطنى وبين محاولة استئصال الثقافة الوطنية ذاتها من جذورها وبتر معالمها واحلال ثقافة الدولة المحتلة مكانها . ،كان طبيعيا أن يؤدى جيل النضال من أجل بعث القارات الثلاث – وفى قلبها الامة العربية – إلى تعميق البعد الثقافى للنضال الوطنى وتأكيد دور الثقافة فى الحياة القومية المستقلة وابراز أهمية الثقافة فى تحديد المسار الاجتماعى – وفى كلمة : أصبحت الثقافة فى عصرنا عاملا تكوينيا فعالا من أرفع مستوى فى حياة المجتمعات القومية المعاصرة ، خاصة وقد عمت شبكة – الاعلام الجماهيرى كل بيت وكل قرية ، المدينة والصحارى والبحار على حد سواء .

ب) وفى الوقت نفسه ، وبطريقة موازية جغرافيا وزمنيا ، بدأ الرأى العام ورأى الاخصائيين على السواء يدرك أن هناك علاقة عضوية وثيقة بين الثقافة من ناحية ، وعموم العمليات الاجتماعية التى تندرج تحت تعبير الثورة – من تحول ، إلى تغير ، إلى تبدل

إلى صيرورة تاريخية ، إلى تطور اجتماعى جذرى ، الخ .. ذلك فى اطار عدد من أكبر عمليات تطور تاريخى شهدها العالم وقعت فى آسيا ، وخاصة فى الصين وفيتنام المعاصرتين ، وقد نشأ فيها شعار « الثورة الثقافية » مبرزا دور الثقافة فى قلب عملية التحول كلها وقد أثارت هذه التطورات الهامة اهتمام الرأى العام والاخصائيين ، واتجهت الانظار إلى عصر الثورات الغربية الكبرى ، فاذا بها تتبين أن الظاهرة « الجديدة » هى ، فى واقع الامر ، قديمة معهودة مألوفة : فقد سبق الثورة الفرنسية الكبرى (١٧٨٩) عصر التجميع « الانسيكلوبيديا » ، وكذا الحال فى ثورات انجلترا والمانيا من قبل ، ثم حركة توحيد ايطاليا والمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وكذا الحال أيضا فى حرب استقلال أمريكا وماواكبها من حركة تنوير فى العالم الجديد . لم تكن إذن أعمال الاعلام ـ من دانتى إلى هيجل ، ومن توماس مور إلي ديدرو وفولتير ، ومن فيكو إلى فاجنر ، ومن شيكسبير إلى هومبلدت ـ مجرد نتاج هامشي على معزل من التاريخ وانما كانت بمثابة الكشاف الفكرى والوجدانى العملاق لتحرك المجتمعات وتغير التاريخ وتبدل مصائر الانسان . عدنا اذن إلى صوابنا ، وأعدنا الثقافة إلى مكانتها الحقة ، فى قلب عملية تغير العالم المعاصر .

وهنا يجدر بنا أن ندقق النظر فى وجهة الثقافة فى عصرنا .

سادسا - الوجهة الحضارية للثقافات المعاصرة :

بلغنا اذن نقطة الجوهر فيما يتعلق بالثقافة المعاصرة - الانتاج الثقافى والسياسة الثقافية ، وكلاهما يحدد نوعية العلاقات الثقافية المتبادلة بين ثقـافات العـالم الكبرى - ألا وهى أن القسـمة المميزة للثقـافات الكبرى المعـاصرة ، أو خصـوصية طـرح اشكالية الثقافات العالمية الكبرى فى عصرنا ، انما هى أن الثقافات تتجه وجهة حضارية شاملة استجابة لتحديات مصيرية انسانية شاملة .

لقد تجمعت اشكاليتا المجتمعـات المتقدمة (ومعظمها من الغرب) ، والمجتمعات النامية ، (ومعظمها من الشرق باضافة امريكا اللاتينية) فى تفاعل يزداد يوما بعد يوم من حيث درجة الترابط والاحتدام والتناقض وكذا النزوع إلى التكامل .

أ) أن اشكالية ثقافات المجتمعات المتقدمة من الغرب أساساً تتركز فى كيفية الحفاظ على سيادة وعى الانسان وارادته وأصالة وجدانه فى اطار رابطة اجتماعية متآخية عادلة ، وذلك فى مواجهة تحديات ايديولوجية « التقدم بأى ثمن » التى اتسم بها الغرب منذ مطلع عصر الثورة الصناعية والعلمية . فاذا كانت عملية التقدم العلمى غير محدودة ، واذا كان انتاج السلع غير محصور ، واذا

كانت عملية الاستهلاك والتمتع لامتناهية ، اذن فما العمل لو أدركت الانسانية - فجأة - أن هناك حدودا للطاقة ، وحدودا للجهد البشرى ، وحدودا للغة - أى فى كلمة ، ما العمل لو عادت الانسانية إلى صوابها وأدركت أن الانسان كائن فان ، وأن الزمان وحده هو نسيج الوجود الازلي الابدى ؟

ب) وعلى الضفة الاخرى من النهر ، تتركز اشكالية ثقافات المجتمعات النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكيا اللاتينية - والامة العربية فى قلبها ، وكذا فى مهب الرياح - فى كيفية تحقيق النهضة الحضارية الشاملة ، في الفكر والوجدان والعمل ، جنبا إلى جنب مع تحقيق معانى القوة الاجتماعية المادية التى لا غنى عنها لتأسيس مثل هذه النهضة . ما العمل لو تراكمت الازمات ، واستفحل الحصار ، واختلت مقاييس الاصالة بحيث حلت الردة السلفية مثلا مكانة الخصوصية الخلاقة ؟

أدت هذه العملية الجدلية المتزايدة تعقيدا وتركيباً بشكل ملحوظ على مر الايام إلى بروز التساؤل الفلسفى الحضارى حتى بلغ مكانة الصدارة فى حياتنا الاجتماعية - الثقافية المعاصرة كلها .

أ) إن تطور مسار الفكر الفلسفى فى العالم المعاصر يلفت النظر . فقد بدأت موجة الفلسفات محدودة الافق - الوضعية ، التكوينية ، اللغـوية التحليليـة - تتراجـع رويدا رويدا ، وزالت ،

أو أوشكت أن تزول ، الفكرة القائلة بذوبان الفلسفة فى عصر العلوم وأخذ التساؤل الفلسفي يرتفع من جديد فى معظم الثقافات العالمية الكبرى . الفلسفة الاولى إذن من جديد ، بعد أن أكسبتها العلوم والتكنولوجيا – انجازاتها وكذا حدودها – عمقا جديدا وحاسة أكثر حدة من ذى قبل : ما الوجود ؟ ما الزمان ؟ ما الانسان ؟ ما العالم ؟ ما التاريخ ؟ ما المجتمع الصالح ؟ ما العدل ؟ الخ : أسئلة كلها تقود إلى طرح مفاهيم الايمانية طروحاً جديدة ، مما منح الأديان السماوية الكبرى حيوية جديدة كثيرا ما تتخذ مسالك وصورا تمد جذورها إلى القاعدة الاجتماعية الواسعة ، شعورها ، وجدانها ، ارادتها ، احتياجاتها الحيوية ، آمالها ، كما أنها تقود – فى آن واحد – إلى العودة إلى فلسفة الاجتماع والسياسة إلى البحث عن انسانية « المدينة الفاضلة »

ب) إن البحث عن مشروع حضارى جديد يحقق للانسانية – على تنوع ثقافاتها وقومياتها ومذاهبها الفكرية وأنظمتها الاجتماعية – حدا معقولا من الوئام والتقدم والرفاهية يقوم على أساس قبول فكرة الجمع بين الاستقلال والتكامل بين مختلف وحدات العالم السياسى . وكذا ، فان مثل هذا التكامل بين وحدات العالم المستقلة يعنى أول ما يعنى أنه أصبح لزاما على الثقافات الوطنية أن تقيم جسور التعارف فالتعاون ثم التكامل بين بعضها

البعض . ذلك أن « المدينة الفاضلة » لم يعد من الممكن الاهتداء اليها بمجرد الاضافات المادية الكمية فى الانتاج والانشاءات والقوة . وإنما تتشكل سبل وطرائق الاهتداء اليها على أساس مشروع حضارى جامع ، يتكون من مشاريع ثقافات العالم وقومياته الرئيسية ، بما تحتويه من تنوع وتباين وتناقض وابتكار وامكانات تكامل .

هذه إذن أهمية ومكانة الوجهة الحضارية لدراسة العلاقات المتبادلة بين الثقافة العربية والثقافات العالمية الكبرى فى عالمنا المتغير .

سابعا — التنفيذ : مشروعات البحث المقترحة :

الصورة العامة لتنفيذ المشروع :

يتم تنفيذ المشروع الكامل بواسطة انجاز عدد من مشروعات البحث تقدم أعمالها ونتائجها من خلال اجتماعات أو ندوات علمية وسلسلة من المؤلفات .

يتكون كل مشروع من مشاريع البحث المقترحة من شقين :

أ) دراسة الوضع العلمى الراهن .

بغية تحديد أهم القضايا ، والتساؤلات ونقاط التلاقى والتباين ، الخ .. توطئة لتخطيط العمل المستقبلى .

ب) دراسة مايمكن أن يكون ، الوسائل المختلفة لتحقيق الممكنات ، فى إطار تغير العالم الحاضر والمرتقب .

وهذا ، وقد لوحظ فى إختيار مشروعات البحث المقترحة عدم التكرار الذى ربما يحدث فى حالة تركيز اليونسكو على القسم الأول المعنى بدراسة الوحدة الثقافية والاجتماعية للأمة العربية من الداخل – وهو الأمر الذى توليه " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم " ، وكذا مجموعة الهيئات الثقافية فى مختلف الدول العربية عنايتها ، ولاتزال ، بشكل أصلى ومتصل منذ سنوات عديدة . ومن هنا تركز اختيار مشروعات البحث المقترحة فى معظم الأحيان على موضوعات القسم الثانى .

ومن ناحية أخرى ، وتحقيقا لمعانى المقارنة والتكامل العلمى ، وكذا المشاركة الثقافية الدولية ، وتمشيا مع أحدث المناهج السائدة فى مجال إنجاز مشاريع البحث العلمى الكبرى ، فأنه سوف يكون من المفيد أن تتحقق المشروعات المقترحة بالمشاركة بين هيئة اليونسكو من ناحية ، وعدد من الهيئات والمؤسسات الثقافية الأقليمية و / أو القومية من ناحية أخرى ، على النحو المبين فيما يلى :

مشروعات البحث المقترحة :

أ – دور التراث فى استمرارية الوحدة الثقافية – الاجتماعية للامة العربية .

ب - مقومات وشروط الابداع والتجديد فى الثقافة العربية .

جـ - نظرة الثقافة العربية إلى تغير العالم ، واسهام العرب فى تشكيل المشروع الحضارى فى عالم متغير

د - العلاقات المتبادلة بين الثقافة العربية ، وثقافات العالم الغربى (أوربا وأمريكا الشمالية) .

هـ - العلاقات المتبادلة بين الثقافة العربية وثقافات آسيا وأفريقيا وأمريكيا اللاتينية .

الفصل الثالث :

النهضة الحضارية

جاء تحرك ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وكأنه مفتاح فتح فجأة مخزن الآمال ورفع فجأة كابوس الانحدار والعجز وجاء فجأة مؤشرا ساطعا بطاقات كامنة هائلة كان العالم الغربى يتنكر لها وراء ستار السم الصهيونى المتغلغل فى كافة مجالات الفكر والثقافة والاعلام ، وكنا نحن أيضا نجهلها أو نتجاهلها ، أو لا ندرك أبعادها . وكأن ، فجأة ، جاء اليوم الذى بدأ فيه الانسان العربى يستجيب لنداء الكرامة والنهضة . وكأن المستقبل أصبح ممكنا . وكأن الكابوس ليس أزليا أبديا . وكأن الممكن ممكنا .

جاء تحرك ٧ أكتوبر ١٩٧٣ وكأن النهضة الحضارية على الأبواب .

ثم تراكمت الاسئلة والتساؤلات ، وبدأ العقل العربى يتأجج وأسرع العملاء الحضاريون يدنسون التحرك ويتصايحون بالأزمة - ونحن فى عبور - ويؤكدون أن لا مفر من الانحدار وأن ٦ أكتوبر ما كانت الا سرابا أو مناورة أو تآمر .

لكن العدو الاستعماري لم يخطيء التحليل فقد بلور التحرك العربي في أيام قلائل عملية تبدل ميزان القوى في العالم أجمع وانكسر وهم الجبروت اليهودي الصهيوني وارتفع نداء السلام والمعقولية . وأسرعت الطبقة الحاكمة في عدد من دول أوربا الغربية لحصر التحرك واستغلاله لمنفعتها الطبقية المحدودة . وتصايح بعضهم بالصداقة التاريخية للعرب ، وهم يعملون أولا وقبل كل شيء لضرب الوحدة الطالعة ، وعزل مصر ومحاصرتها من كل جانب ، والاعداد للتحرك الاقتصادي والعسكري والامعان في تسميم العقول .

بدأت مرحلة جديدة من الحروب الصليبية ونحن مازلنا في مطلعها . بينما قطاعات واسعة من الرأى العربي مازالت تتساءل . ومن هنا كان لزاما علينا أن نعرض بوضوح لعدد من تلك التساؤلات اسهاما في العمل المشترك من أجل اضاءة الطريق أمام التحرك العربي في عصرنا .

١

– اذ نتحدث عن « النهضة » فماذا نقصد بالنهضة واذ نتحدث عن « الحضارة » فماذا نعني بالحضارة ، وما علاقتنا ، كدول وكشعوب ، بالنهضة الحضارية ؟

نقطة البدء أنما هى فى إدراك مكانة العرب التاريخية والحالية والمستقبلية فى تفاعل الحضارات والثقافات فى العالم .

أن الصورة العامة تتكون من ثلاث أنواع من الدوائر هى : الحضارات ، المناطق الثقافية ، المجتمعات القومية .

وتبدو الصورة العامة كما يلى :

١ - الحضارات : هذه هى الدائرة الخارجية الأعم ، ويمكن تقسيمها من خلال بند هام إلى :

أ) دائرة الحضارة الهندية - الآرية .

ب) دائرة الحضارة الصينية .

(هذا يترك أميركا اللاتينية بدون تحديد على هذا المستوى من التحليل لكننا سنتناولها فى مكان آخر) .

٢ - المناطق الثقافية : وهذه هى الدائرة الوسطى ، وغالبا ما يجرى الخلط بينها وبين الدائرة الحضارية كما حصل فى مؤلفات أرنولد توينبى الذى يمكن متابعة محاولاته المتكررة فى دراسة الرموز . وبشكل عام يمكن تحديد المناطق الثقافية التالية :

أ) فى دائرة الحضارة الهندية الآرية :

- المناطق الثقافية المصرية ، الفارسية ، ما بين النهرين فى العصور القديمة

– المنطقة الثقافية اليونانية – الرومانية القديمة

– المنطقة الثقافية الأوروبية

– المنطقة الثقافية الاميركية الشمالية

– أجزاء هامة من المنطقة الثقافية الهندية – الاوربية فى أميركا اللاتينية

– المنطقة الثقافية جنوب الصحراء الافريقية

– المنطقة الثقافية الاسلامية ، وخاصة المنطقة العربية – الاسلامية والمنطقة الفارسية – الاسلامية (دون أن تضم المنطقة الثقافية الآسيوية – الاسلامية المرتبطة بالدائرة الحضارية الصينية) .

ب) فى دائرة الحضارة الصينية :

– الصين

– اليابان

– منغوليا – اسيا الوسطى

– فيتنام وجنوب شرق آسيا

– شبه القارة الهندية

– أوقيانوسيا (باستثناء أوستراليا – نيوزيلنده)

– المنطقة الثقافية الآسيوية – الاسلامية (من ايران إلى الفيليبين) هاتان الدائرتان الخارجيتان الاهم يجب تفسيرهما من خلال تقديم الفارق التاريخى الرئيسى بين عالمى البشرية : الشرق والغرب .

والواقع أن « الشرق » يمكن النظر إليه بوضوح على أنه مؤلف من العناصر التالية :

أ) دائرة الحضارة الصينية ، ومناطقها الثقافية

ب) دائرة الاسلام (الحضارية – الثقافية) التى تظهر بوضوح على أنها حلقة الوصل الرئيسية بين دائرة الحضارة الهندية – الآرية ودائرة الحضارة الصينية وكلاهما يحتل موقعا وسطا وكلاهما يمثل أحدى مناطق التوتر الهامة (١) .

جـ) أجزاء من المناطق الهندية – الاوربية فى أميركا اللاتينية المرتبطة مباشرة مع أفريقيا ، وبالتحديد البرازيل وجزر الكاريبى .

د) المنطقة الثقافية جنوب الصحراء الافريقية .

---

(١) تقوم هذه الدراسة على أساس العمل المتصل منذ ١٩٦٠ لاعادة بناء صرح النظرية الاجتماعية والسياسية العامة بناء على تفاعل حضارات وثقافات الشرق والغرب . وقد صدر المجلد الاول من هذا العمل النظرى بعنوان « الجدلية الاجتماعية » فى باريس عام ١٩٧٢ وهو فى طريقه إلى العربية قريبا . وكذلك تعتبر هذه الدراسة مواصلة للأفكار المعروضة فى لقاء د. أنور عبدالملك مع محمود حداد فى مجلة « الثقافة العربية » الصادرة عن النادى الثقافى العربى فى بيروت (نيسان ١٩٧٣، ص ١١٦ – ١٣١) تحت عنوان « من أجل استراتيجة حضارية » .

أى أن الغرب مؤلف من الأجزاء الرئيسية الهندية – الآرية .

٣ – الأمم (أو التكوينات القومية) : وهى العناصر الرئيسية فى وجود واستمرارية ونمو وتطور العمليات المجتمعية واسعة النطاق .

وقد اقترحنا تقسيمها إلى خمس مجموعات :

أ) الأمم الاساسية أو التى يمكن وصفها بأنها الأمم التى بعثت من جديد ، (مصر ، الصين ، ايران ، تركيا ، فيتنام ، المكسيك ، المغرب)

ب) النموذج الأوربى ، ثم الغربى ، للأمة – الدولة .

جـ) الأمم – الدول الجديدة التى تسير باتجاه الوحدة – وهى تضم كلا من الامم – الدول بالتحديد (أثيوبيا ، غانا ، مالى ، بورما ، تايلاند الخ .) . والتشكيلات القومية داخل أطار المجموعات المتعددة القوميات (أرمينيا ، جورجيا ، أوزبكستان ، الخ ..) .

د) الأمة – الدولة الثنائية الهندية . ثم الاوربية ، خاصة فى أميركا اللاتينية .

هـ) الدول الجديدة ذات المهمات القومية (بشكل رئيسى فى أجزاء عديدة من جنوب الصحراء الافريقية ، وفى قسم صغير من أميركا الوسطى والجنوبية اللاتينية) .

وعلى هذا الاساس تبدو مكانة العالم العربى بوضوح ، فهو يكون أحد قطاعى الدائرة الحضارية - الثقافية الاسلامية وهى تتكون من العالم العربى وامتداده فى أفريقيا من ناحية ، ثم الاسلام الآسيوى من تركيا إلى الفيليبين - وهى الدائرة الحضارية - الثقافية التى تربط بين الاطارين الحضاريين الكبيرين فى العالم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان العالم العربى يكوّن المركز الحركى الاول لهذه الدائرة الحضارية - الثقافية الاسلامية ، كما أنه يكوّن النقيض التاريخى والعصرى لعملية التناقض الجدلى بين التحرك الغربى وتحرك الشرق الناهض .

ومعنى هذا ، بكل دقة ، أن العرب ، شعوبا ودولا ، لا يواجهون اليوم قضية «استقلال » ، لا « استقلال صورى » ، ولا حتى « استقلال حقيقى » فحسب ، وهم شعوبا ودولا ، لا يواجهون قضية تحرر وطنى أو حرب تحريرية فحسب ، وهم شعوبا ودولا ، لا يواجهون عملية التغلغل الاستعمارى فى اقتصادياتهم من أجل التنمية الاقتصادية ، سواء أكانت رأسمالية صناعية تقليدية ، أو قطاع عام فى نطاق التخطيط ، أو اشتراكية ، فحسب ، وهم ، شعوبا ودولا ، لا يواجهون قضية « تحديث » مجتمعاتهم على أساس التقليد والمواكبة والعمالة الحضارية لدول الغرب المهيمنة حتى الآن .

أن العرب ، شعوبا ودولا ، وذلك منذ اللحظة الاولى لبداية تحركهم فى القرن التاسع عشر ، حددوا لأنفسهم شعارا واحدا لم يتبدل هو شعار النهضة . كانت النهضة هى دعوة محمد على وإبراهيم باشا والشيخ رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك فى مصر . وكانت دعوة عبد القادر فى الجزائر والحركة الاصلاحية فى تركيا المشاركة لمسيرة العرب آنذاك ، وكانت دعوة عبدالكريم فى المغرب، وكانت عنوانا وشعار للنهضة الادبية والثقافية فى لبنان وسوريا وفلسطين ، وكانت برنامجا وخطا عاما لكافة الاحزاب والتنظيمات السياسية الوطنية من يمينها إلى يسارها ، من دعاة الاصولية الاسلامية إلى رجال الثورة الاشتراكية الشعبية .

وعلى وجه التدقيق أيضا ، وبكل صراحة ، ليس العالم العربى مجموعة من الجزر النائية تحظى فجأة بمقعد فى هيئة الامم . وليست مصر مثلا دولة محدثة ولدتها ظروف دبلوماسية طارئة ، وليست الثقافة العربية تجمع هزلى من المؤشرات السياحية ومظاهر التخلف ونهجات الضياع . وليس الاسلام ، ولا المسيحية الشرقية ، عقائد وقتية سطحية ، مصطنعة فى بيئاتنا العربية ، وليست الدول العربية ، حول الدولة المصرية ، تجمعات من العسكر والمماليك المتخاصمين والمرتزقة الاجانب والمكاتب المتخلفة - وقد بدأ العالم يذكر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بعد يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (أسماء صلاح الدين ومحمد على وجمال عبد الناصر بين

الطلائع المرموقة للتحرك السياسى العربى التاريخى والمعاصر .

ليس العرب ، شعوبا ودولا ، مجموعة « احتياطى البترول » ، ولا هم مجال لتوظيف رؤوس الاموال السياحية ، ولا هم مجموعة من المجتمعات الجرداء المتعطشة إلى غزو الغرب ، على اختلاف اعلامهم ، بغية تحضير العرب واحالتهم إلى جماعات بشرية عصرية محترمة .

أن تحرك العرب لا يمكن أن يهدف الا إلى الجمع بين الثورة الوطنية التحريرية والثورة الاجتماعية الجذرية فى سبيل تحقيق النهضة الحضارية للعالم العربى . وهذا بالضبط هو شأن الحضارات القديمة التى تنبعث إلى المعاصرة من خلال الثورات الواسعة فى جيلنا ، وعلى رأسها حضارة الصين الشعبية ، تواكبها اليابان وفيتنام والهند على اختلاف مسالكها ، ويواكبها أيضا اتساع مجال الثورة الاشتراكية الاوربية إلى آسيا السوفياتية فى تلاق مع الدول الاشتراكية لهذه القارة .

٢

– وما دام الحديث عن النهضة ، والنهضة الحضارية ، هل يمكن المقارنة بين النهضة الحضارية العربية وبين عصر النهضة فى أوربا على وجه التحديد ؟

النهضة فى أوربا ، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، جاءت تواكب عصر الاكتشافات البحرية ، وتراكم المواد الاولية والخامات ، بفضل تلك الاكتشافات فى موانى أوربا ومخازنها ، وامتزاج هذا التراكم بمجموعة من الاكتشافات التكنولوجية والعملية بعضها وارد من الشرق (الورق ، الطباعة ، المدفعية ، البورصة ، الخ ..) وبعضها نابع من الغرب (الآلة البخارية على وجه التحديد) وقد ترتب على هذا الامتزاج فى ظروف مناخية وجغرافية تمتاز بالاتزان والتنوع أن تكونت قطاعات أجتماعية سعت إلى أبتكار أساليب أنتاج جديدة متحررة من قيود النظام الاقطاعى تعمل على توحيد المجال الاقتصادى القومى لصالح وتحت سيطرة طبقة المدن ، أى البرجوازية ، وقد اقتضت هذه الحركة الاجتماعية الواسعة أن تعمل الطبقة الجديدة الصاعدة على تكوين أطارات سياسية وثقافية من نوع جديد ، أى أطارات تكون قد تكونت على أساس فلسفة مختلفة ومناقضة لفلسفة أطارات الانظمة الاقطاعية فى أوربا .

ومن هنا ، بالضبط ، كانت نشأة حركة التنوير فى أوربا ، حركة أدخال العقلانية مكان الفكر الاسطورى ، حركة نمو الفلسفات الواقعية والمادية فى مقابل الفلسفات المثالية واللاهوتية ، ومن هنا أيضا كانت حركة الابداع الفنى التى مزجت بين أنوار بحرنا الابيض المتوسط وثراء البيئات الثرية فى شمالى ووسط أوربا .

والذى يجب أن نلحظه هنا ونتمعن فيه بدقة أنما هو ظاهرة امتزاج تلك بالنهضة الحضارية الاوربية مع نشأة الدول الوطنية المستقلة وصعودها إلى مكانة الصدارة فى العالم خلال أربعة أجيال من الحروب والغزوات فى أوربا أولا ، ثم في المستعمرات وامبراطورية بريطانيا العظمى ، وأخيرا فى الامبراطورية الأميركية المعاصرة ، وذلك رغم انكسار جبهة الانظمة الرأسمالية بشكل جذرى بفضل ثورة أكتوبر ١٩١٧ ونشأة النظام الاشتراكى فى دولة ثم مجموعة من الدول أصبحت اليوم تكوّن أكثر من نصف القوى العالمية الفعالة .

ومعنى هذا ، بكل تدقيق : أن النهضة الاوربية لم تكن نهضة الا لكونها قوة سياسية واقعية جبارة ، دون اقتصارها على الصعيد الثقافى أو الادبى أو الفكرى أو الفنى . ولم يشهد العالم قبل ذلك الا نهضات من هذا القبيل ، أى نهضات ثقافية امتزجت واقترنت بشكل عضوى جذرى لا ينفصم بالقوة السياسية والحربية الفعالة . هكذا كان أمر مصر الفرعونية وبلاد الفرس . هكذا كان أمر امبراطورية الاسكندر ، هكذا أيضا كان أمر تشييد دولة الاسلام فى عصرها الذهبى .

ليس هناك أذن ، أو على الاقل لم يشهد العالم أبدا « نهضة » لم تقترن بقوة فعالة . أما الحركات الابداعية فى الادب والثقافة

والفكر والفن التى لا تصاحبها القوة الفعالة ، فهى موجات ابداعية ثقافية على وجه التحديد ، يمكن أن تندرج فى أطار نهضة حضارية حقة . ولكنها لاتكوّن تلك النهضة الحضارية فى حد ذاتها .فأن المدرسة السوريالية مثلا تمثل ابداعا هاما ونشيدا لذيذا فى عالم التصوير والشعر المعاصر ، وكذا أشكال التجديد المعمارى التكعيبى وغيره . التى واكبتها ، وكذا حركات التجديد فى النشر مثلا ، والأعلام ، والأذاعة والتليفزيون . ولكنها كلها ، وفى العالم الغربى فى القرن العشرين ، تمثل ظواهر مواكبة لحركة أفول نجم الهيمنة الغربية على مصائر العالم : أفلا يتصايح مثقفو الغرب بحق منادين بالتأزم الحضارى فى كل مكان ؟ القوة لاتزال موجودة . هذا صحيح ، ولكنها ليست قوة فعالة ، ليست قوة نامية ، وأنما قوة للدفاع والحفاظ على مراكز ومكاسب وامتيازات الغرب على حسب شعوب الشرق .

على هذا الأساس نتبين واقعية تلك الظاهرة التى نطلق عليها النهضة الحضارية العربية المعاصرة . أن ثورات التحرر ، وثورات التغيير الأجتماعى الجذرى تمتزج هنا بقوة وعنف بتأجج ثقافى وفكرى وفنى عارم لازال يتحسس طريقه بين الأصولية والتجديد . بين البذور والتطلعات ، ويقترن كذلك ببناء قوة مادية فعالة تجمع بين الجيش العصرى ، السياسة البترولية والتحركات الشعبية

الجماهرية الواسعة . والتعامل وجها لوجه مع مراكز القوى فى العالم المعاصر بغية الأفادة منها لحماية التحرر العربى .

وهذا تماما مايتم فى حركات النهضة الحضارية فى قطاعات الشرق الأخرى التى ذكرناها (الصين ، اليابان ، فيتنام ، الخ ..) وهو يحدث فى عالمنا العربى على شكل حركة ثورية وحدوية تجميعية للطاقات والقوى مما يعجل ويعمق من امكانيات تحقيق النهضة الحضارية الفعلية .

وهكذا أصبح العرب حقيقة فى لقاء مع القدر ، لن تدوم الفرصة طويلا أذ يتربص الاستعمار العالمى بقطاعاته المختلفة للتحرك والتدمير من الداخل . ولكن حساب الايجابيات أعلى – بكثير – من قائمة السلبيات ، والعالم العربى أيضا ، وهذا واقع يجب تمعنه ، أختار لنفسه حليفا رئيسيا على صعيد الدول : تلك المجموعة من الدول التى تكوّن الجبهة العالمية للدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتى والصين الشعبية . أى أن التحرك العربى فى مطلع نهضتنا الحضارية عرف قدر القوة الفعالة تماما ، وحدد حليفه التاريخى بواقعية وذكاء . مما بدأ يجلب طاقات غير منظورة من قبل إلى صف العرب فى معركتهم المصيرية التاريخية .

٣

– أذا كان الأمر كذلك فما هى الاحتياجات الملحة المطروحة أمام العرب ، شعوبا ودولا ، من أجل تحقيق النهضة الحضارية ؟

* يمكن عرض بعض النقاط على أساس ما سبق قوله :

أولا : ضرب السراب الثقافى ، أى القضاء على ذلك الوهم المتـأصل فى عقـول وقلوب العديد من المثقفين العرب والزاعم أن لا جودة الا فى الغرب ، ولا تطـور الا ويسير فى دروب الغرب ، ولا ذوق الا ويكون انعكاسا لعادات وتقاليد الغرب ، ولا عصرانية الا على شكل مواكبة الظواهر الغربية .

وقد بلغ السراب الثقافى أقصى مداه بين نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ وعبور ٦ أكتوبر ١٩٧٣. وفى هذه الفترة بالذات ، حرضت دول الغرب المهيمنة رجالا يحملون أسماء عربية ليقنعوا الرأى العام العربى بالوهن والتخلف الذى لا مفر منه ، اللهم الا بالتنكر لخصوصيتهم التاريخية ، وأصالتهم الحضارية الموضوعية ووجهتهم وهى النهضة الحضارية الحقة فى عالم متقلب ، ظهرت آلاف الدراسات والرسائل والكتب تتغنى بالأزمة ، تسفّه حركة التجديد والابداع الصادرة من بين صفوف العرب أنفسهم ، تحاول

دفن انجازات الثورة العربية المعاصرية باسم « الثورية » وباسم عدم محاكاتها لثورات الغرب – التى لم تحدث ، كان هذا موقف المتياسرين العملاء من ثورة الضباط الاحرار فى مصر وثورة التحرير الجزائرية ، من ثورة اليمن الجنوبية والمقاومة الفلسطينية ، من العمل الدائب للربط بين القومية والأشتراكية فى الفكر العربى المعاصر ، ومن السياسة البترولية البارعة من التحالف مع الأتحاد السوفياتى والتقرب من الصين الشعبية ، من الانفتاح على الغرب ومصادقة أوربا ، من بعث الاسلام السياسى عالميا واقامة الجيوش العصرية الطليعية ، من السد العالى والتصنيع الثقيل ، من الاصلاحات الزراعية وموجة تشييد الجامعات ، من تعبئة الكفاءات القومية وهجرة العقول – وأكاد أقول من اشراقة الشمس وغروبها على الارض العربية .

كان مكتوب علينا الضياع – وما ضعنا ، وكان مكتوب علينا الفشل – وانتصرنا ، وكان مكتوب علينا الموت فى خجل وعار – وكانت عودة الروح .

لقد آن الآوان لضرب وتفتيت دعاة السراب الثقافى وهم فى الواقع عملاء حضاريون للغرب المهيمن بشعارات متنوعة وأن كان جوهرها واحدا ، ألا وهو أن مصر والعالم العربى قطعة من أوربا والغرب ، وذلك لعزلنا عن نهضة شعوب الشرق ، ونحن فى طليعتها ، فى تفاعل جدلى مع حضارة الغرب .

ثانيا : توكيد وتعميق الحلف العضوى الجذرى بين جماهير الشعب من ناحية وجيش الوطن من ناحية أخرى . هذا من جهة وتوكيد وتعميق الترابط العضوى الوثيق بين السياسة والثقافة من جهة أخرى .

أن النهضة الحضارية العربية المعاصرة بدأت تتحقق بالفعل بتلاقى إرادة الشعب مع جيش الوطن ، ومعنى هذا أن الأسلوب المتميز الذى اتخذته هذه النهضة بالفعل وبفضل الحصار المكثف للعدوان العنصرى الاستعمارى من حولنا ، هو بالفعل الطريق الأوحد الذى يؤمن المسيرة كلها . اذ يضع قوة السلاح جنبا إلى جنب مع قوة الارادة الشعبية . أن أعداء العرب الحضاريين فرضوا عليهم فرضا فى الواقع أن ينهجوا المنهج الوحيد القادر على تأمين نهضتهم . اذ ليس هناك من يدعو إلى عودة الجيش إلى ثكناته أو انصراف الشعب إلى ميادين الانتاج وتولى « صفوة » من الأذكياء الأبرياء أمر مواجهة جبروت الاستعمار الحضارى والعدوان العنصرى .

ثالثا : أن الموقف متخلف إلى درجة بعيدة فيما يتعلق بعلاقة الثقافة بالسياسة ، مازال القطاع الثقافى بوجه عام ضعيفا من حيث فاعليته فى مجال الحكم الوطنى أما لنفاذ السراب الثقافى بين صفوف قطاعات هامة من المثقفين أو بالتفرقة المستمرة بين

أهل الكفاءة وأهل الثقة ، أو لفرض وجوه هزيلة عقيمة منبوذة كأعلام مزينة للحياة الثقافية فى بعض البلدان العربية ، أو لضعف حركة النشر والتوزيع على الصعيدين المحلى والعربى .

ولعل من دواعى التفاؤل أن تحرك ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وضع الآن أمام جميع القطاعات المسئولة ذلك التساؤل الحيوى ألا وهو : السبيل إلى الربط بين الفكر والعمل ، بين الثقافة والسلطة ، بين الوجدان والسلاح ؟ وعندنا أن النهج الذى نهجه محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨) فى اقامة أول دولة عصرية فى الشرق عموما والعالمين العربى والاسلامى على وجه التخصيص ، لهو النهج السليم القيم ، ذلك أن محمد على ، بفضل رفاعة الطهطاوى باعث النهضة المصرية العربية ، كون جهاز الدولة - أى قادة السلاح والامن والادارة والعدل والرأى - من صفوة أعضاء البعثات العلمية إلى أوربا آنذاك ، كان المبعوث يعود إلى الوطن بعد تخرجه فيقيم فى قلعة القاهرة عدة شهور وكأنه سجين الدولة وضيفها وذلك حتى يفرغ من ترجمة عمل هام فى مجال تخصصه إلى العربية ، فما أن يتم له ذلك حتى يعين ملازما ثانيا بالرتبة العسكرية ويعين فى احدى وظائف الحكومة ، ومعنى هذا أن جهاز الحكم فى دولة محمد على تكوّن من صفوة المثقفين المصريين ، مما جعل من مصر فى سنوات قلائل آنذاك دولة فى الصف الاول من العالم أجمع حتى انكسارها عام ١٨٤٠ ثم احتلالها عام ١٨٨٢ .

الطريق واضح كل الوضوح : يجب أن يتكون جهاز الحكم فى دولنا العربية من أذكى وأصلب طلائع المثقفين الوطنيين المخلصين الأكفاء الذين يلعبون دور « المثقفين العضويين » على حد تعبير غرامشى ، والذين بدونهم لا تستطيع نهضتنا أن تواصل تقدمها بالسرعة والفاعلية المنشودتين .

رابعا : وجوب درس الربط بين القومية والاشتراكية . ومعنى هذا أن تكون نقطة البدء هى خصوصية شعوبنا العربية ، واسهام الفكر العربى القومى والاشتراكى والتركيز فى المقام الاول على كل ما يدعم ويعمق هذا الاتجاه القومى الاشتراكى . ونحن نملك اليوم تراثا غير قليل وعلى رأسه حياة وأعمال رفاعة الطهطاوى ومن جاء بعده فى هذا الاتجاه .

وبديهى أن هناك العديد من النقاط التى يجب دراستها بدقة ومن بينها : مضمون الفلسفة الاجتماعية القومية الاشتراكية ، مسألة الموقف الفلسفى العام بين المثالية والمادية والواقعية ، تقييم الدور الحضارى التاريخي للدين ، اعادة الخلافات الايديولوجية بين مختلف التيارات القومية والاشتراكية إلى أصول خصوصيتها الوطنية ، تدقيق النظر فى الايديولوجية المهيمنة فى العالم الغربى وهى ما أطلقنا عليه تسمية « الفكر السالب » البنيوية الوظيفية الجديدة . الردة إلى مجتمعات اسطورية مختلفة ،

موجة التنكر للوضعية القومية للجدالية الاجتماعية باسم الكوزموبوليتية وهى فى الواقع ستار لتحرك الجماعات الفوضوية الصهيونية ضد الدول الاشتراكية والدول الوطنية المستقلة ونهضة شعوب الشرق .

خامسا : امعان النظر فى خصوصية تكوين الجبهة الوطنية المتحدة في عدد من البلدان العربية ، ذلك أن الجبهة الوطنية المتحدة تتكون فى رأينا وفى هذه البلدان بالذات ، وخاصة فى مصر ، من مستويين :

أ) مستوى الطبقات الفكرية والفئات الاجتماعية سواء عن طريق ممثليها المباشرين أو عن طريق أحزابها .

ب) مستوى المدارس الفكرية المختلفة العاملة فى قلب الحركة الوطنية داخل الطبقة والفئة والحزب الواحد بوضوح فى حالات عديدة . ان أهمية هذا المستوى الثانى تأتى من كوننا نجتاز مرحلة نهضة حضارية وليس فقط مرحلة مقصورة على التحرر الوطنى السياسى والاقتصادى .

معنى هذا أنه يجدر بنا أن نفتح الابواب واسعة أمام التعبير الصريح المتميز لكل من هذه القطاعات الاجتماعية والتيارات الفكرية بهدف اثراء الوحدة الوطنية وتعميق جذورها وتأمينها ضد الضغوط الخارجية والمغامرات والافادة من مجموع امكانياتها وطاقاتها الكامنة .

٤

هذه النهضة الحضارية أهى نهضة مصر أم نهضة العالم العربى ؟

الحق أن هذا التساؤل هو ذلك الذى نواجهه فى مناسبات كثيرة حول العلاقة بين القومية المصرية والأمة العربية . وقد عالجنا هذا السؤال بشكل أساسى منذ عام ١٩٦٢ على أساس واضح ألا وهو تقديم مفهوم الأمة ذات المستويين أو ان أردت دائرتى الوجود القومى ، المستوى الأول : هو مستوى القومية المحلية فهناك مثلا القومية المصرية الموجودة فى المجتمع المصرى المكثف عبر ٧ آلاف عام عبر تتالى الحضارات الفرعونية ثم القبطية ثم الاسلامية . وهناك مستوى الامة العربية ، بالمعنى القومى - الثقافى وهى التى تجمع فى بوتقة واحدة جميع الشعوب والقوميات المحلية المتواجدة فى العالم العربى والناطقة بلغتها العربية .

وهذا الوضع نجده فى ظروف موازية مع بعض الاختلاف ، فهناك من ناحية الدول القومية الموحدة فى ألمانيا وايطاليا المعاصرتين ، وقد توحدت الأقطار الالمانية والايطالية حول قطبى بروسيا وبيدمونت لم يكن لهما تاريخ قومى متميز عن

بقية المقاطعات الالمــانية والايطالية . وهنــاك على مستوى آخر انجلترا مثــلا فى بوتقة مجموعة دول الكومنــولث ، واســبانيا فى مجموعة دول أميركا اللاتينية الاسبانية ، وقوميات الهند المختلفة فى نطاق الاتحاد الهندى .

ومن الواضح أن الموقف فيما يتعلق بين مصر وبقية البلدان العربية يقع فى منزلة بين هاتين المنزلتين . فانه من الممكـن أن نميز نهضة مصر من محمد على إلى حزب الوفد إلى جمال عبد الناصر . ولكن هذا التمييز لا يعنى أن هذه النهضة تحققت فى انفصال عن النهضة العربية . والحق أن نهضة مصر المعاصرة جزء لا يتجزأ من النهضة العربية الشاملة وان كانت متميزة وموازية لتلك النهضة . كما أن النهضة العربية المعاصرة بمعناها الشامل لا يمكن فصلها عن نهضة مصر التى هى بمثابة بوتقة النهضة العربية العامة كلها .

وعلى هذا الاساس نتبين أن تدقيق النظر يؤكد وحدة المصير من خلال تنوع الوحدات المشاركة فى ذلك المصير .

لقد حاولنا وضع بعض التساؤلات المتعلقة بالنهضة الحضارية العربية المعاصرة كما حاولنا تقديم عدد من التوضيحات الأولية . بقى سؤال غاية فى الخطورة ، ألا وهو ذلك الذى يتعلق بنوعية الاســهام الحضارى للنهضة العربية .

الفصل الرابع :

من الوضعية إلى الابداع الفكرى

-١-

نقطة البدء فى تناول مكانة ، ودور الفلسفة فى عالمنا العربى اليوم – بين عصر الثورات والحروب ، ومشارف تغيير العالم ، بين هيمنة الغرب منذ عصر الاكتشافات البحرية فى القرن الخامس عشر حتى يالتا ، إلى صعود شعوب الشرق إلى مكانة المبادرة التاريخية – يتبدى أمام المفكر العربى على نحو شديد الصعوبة ، عصيب التركيب ، لا مجال للانسياب الرتيب فى تناوله ، وكأن وجهة البحث ، ابتداء محفوفة بمصاعب خاصة ، أو متخصصة . وفى الوقت نفسه ، يستشعر المفكر العربى ، وعلى وجه التخصيص المفكر الفلسفى ، وعلى وجه أخص المفكر المعنى بالفلسفة الاجتماعية والسياسية وكذا فلسفة التاريخ ، ان هناك مجالا واسعا ، فسيحا ، اطارا عميقا للتحرك الفكرى الفلسفى حقيقة ، يمتد أمامه ، مثيرا لعديد من الاسئلة والتساؤلات ، على شكل التحدى ، وكأن الرأى العام العربى ، الشارع العربى ، وكذا

عـالم القـــرية والريف ، فى نهـم حقيقـــة إلى شىء آخر ، إلى « بديل » .بديل – لأى شىء آخر ؟ نهم وشغف – لأى شىء ، لأى نوع من الاسهام ؟ .

جو غريب ، شديد التعقيد والتركيب . جو يندرج ، هو ذاته فى اطار خارجى كله تهـديد وعدوان وتصـدى ، بغية الكسر ، والتمزيق ، والاجهاض .

من هنا نشأت فكرية الأزمة ، جو « الازمة » ، ابتداء من كسر تحرك القومية العربية ، حول مصر فى يونيو ١٩٦٧ ، ورغم بريق حرب اكتوبر ١٩٧٣ قبل محاصرة أبعاده السياسية العربية على وجه التحديد .

ومعنى هذا ، معنى تجمع هذه الروافد المتشابكة ، داخليا وخارجيا – ونحن هنا نعرض لمجرد تلمس الجو العام المحيط بالفكر الفلسفى فى عالمنا العربى المعاصر – إن التعرض لشرح اشكالية الفلسفة العربية المعاصرة ، بالنسبة للتحرك العربى أولا ، وفى اطار التفاعل السياسى – الفكرى العالمى ، يصعب أن يتخذ شكلا رتيبا ، منسقا ، ومبوبا ، يتدرج رويدا رويدا من المقدمات إلى النتائج الحتمية ، وكأننا فى مجال المحاضرة التعليمية التقليدية . العرض هنا ، بطبيعة الأمر ، بطبيعة خصوصية الموضوع ذاته ، عرض اشكالى ، جدلى ، يطرح التساؤلات ، وكذا

تصور الاجابات ، أو الحلول ، الممكنة ، على شكل رسائل - رسائل اشكالية ، رسائل اشكالية الفكر الفلسفى فى عالمنا العربى اليوم ، فى قلب مرحلة تغيير العالم .

- ٢ -

نعود بالذاكرة إلى القرن الماضى ، عصر اقتحام الغرب الرأسمالى المهيمن لعالمنا العربى ، ابتداء من غزوة بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ ، ثم موجات الغزو والاقتحام الحربى والمالى والسياسى والفكرى لعموم بلدان وأقطار وأمم عالمنا العربى وقد تم احتلاله حربيا بشكل كلى فى ١٨٨٢ .

كان طرح الاشكالية آنذاك ، كان التساؤل المركزى للفكر فى اطاره العربى الأعم آنذاك ، هو : لم الانحدار ؟ ومن ثم ما السبيل إلى كسر الانحدار ، أى ما السبيل إلى النهضة ؟

كانت محاولاتنا للاجابة على هذين التساؤلين ، فى مطلع الستينات ، على النحو التالى :

أ) رأت مجموعة أولى - تمت فى الأساس إلى الاوساط الاسلامية ، وكذا المسيحية الشرقية ، فى المدن أساسا حول اعادة الدولة الشرقية الحديثة الاولى منذ القرن الخامس عشر ، أى دولة

محمد على باشا فى قاهرة المعز عام ١٩٠٥ – أن السبب فى الانحدار انما يكمن فى فوات الفرصة ، أى فى أن العالم العربى – الاسلامى لم يستطع أن يواكب عصر الثورات – العلمية ، الصناعية ، السياسية – فى أوربا البورجوازيات النامية حول ثورة فرنسا ١٨٨٩ . ومن ثم ، فان مفتاح كسر الانكسار ، مفتاح النهضة ، انما يكمن فى الافادة من هذا الرافد الخارجى عظيم الفاعلية والتأثير ، افادة نقدية ، انتقائية ، أى افادة لا تشوه الشخصية الحضارية العربية – الاسلامية ، على وجه التخصيص آنذاك المصرية ، بما تستقبله من عناصر وتكوينات ومؤثرات وأجواء تحديثية غربية ، أى أوربية آنذاك ، بكل ما يواكبها من اغراء وترغيب ، واستثارة للاهتمام والهمم والفضول . فالاعجاب بالغير لا يمكن أن يصبح مفتاحا للقرار الوطنى . كان هذا الاتجاه الرئيسى التكوينى الاول للفكر العربى ، وقد اقترحنا « التحديث الليبرالى » تسمية له ، هو على وجه التحديد اتجاه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، ودولة محمد على باشا ، ثم ابراهيم ، والخديوى اسماعيل فى مصر ، وقد تلتهم دولة الخلافة العثمانية بعد عشرين عاما من خلال التنظيمات ، وأخيرا كان تأثير تجربة محمـد على الشـامخة واضـحا ، مركزيا فى تجديد المجتمع اليابانى فى عصر « الاعادة » على أيدى الامبراطور ميجى عام ١٨٦٨ .

ب) وكان من جراء انكسار المرحلة الاولى لنهضة العالم العربى ، حول مصر ، ابتداء من فرض معاهدة لندن ١٩٤٠ على محمد على ، وفرض الانفتاح الاقتصادى بالترغيب والسلاح ، أثر بالغ فى تشكيل الاتجاه الرئيسى الثانى للفكر العربى المعاصر . بدأ التحـرك هذه المرة من الشرائح والقطاعات الاجتماعية التقليدية ، وخاصة فى البيئات الريفية ، وكذا فئات من الطلائع التقليدية المتعاملة مع الغرب .تشكل اذن الاتجاه الرئيسى الثانى للفكر العربى المعاصر ، اتجاه « الاصولية الاسلامية » حول الشيخ محمد عبده وصحبه ، فى مصر والشام والمغرب العربى . وعنده أن أسباب الانكسار تكمن فى ابتعاد شعوب الأمة الاسلامية من أصول الدين الحنيف ، تحت تأثير أجيال الاضافات غير الاصلية ، والحوار على هوامش الهوامش ، وكذا تدهور المفاهيم الاصولية فى اطار الخلافة العثمانية . ومن ثم ، كان لابد أن يكون مفتاح كسر الانكسار ، طريق النهضة ، انما هو العود إلى أصول الاسلام بوصفه النهج القويم لمواجهة تحديات العصر ، فى كافة مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية .

ج) هكذا تشكل الفكر العربى الحديث ، فى القرن التاسع عشر ، فى مواجهة الاقتحام الاستعمارى الغربى ، وموجات التحديث الذى جمع بين تشويه معالم التكونات الاجتماعية - الاقتصادية وكذا الثقافية والفكرية العربية المتقدمة من ناحية ،

ونقل العديد من الاضافات العلمية والتكنولوجية والتنظيمية إلى ولايات الخلافة العثمانية المنهارة . كان من شأن المسار التاريخى الطويل نسبيا لتشكل هذين الاتجاهين الرئيسيين للفكر العربى الحديث أنه جعل من الممكن أن يتحول كل من هذين الاتجاهين من مجرد اتجاه فكرى ، أى من مجرد مدرسة فكرية الى اتجاه فكرى وكذا اجتماعى سياسى ، أى الى « مدرسة فكر وعمل » على وجه التحديد ، فى مواجهة الاحتلال الغربى من ناحية ، وكذا العمل من أجل الابقاء على أركان الوجود القومى ، والاستمرارية الحضارية - الثقافية - القومية من ناحية أخرى ، مادامت النهضة بعيدة المنال .

د) ثم جاء عصر انحسار الاستعمار الغربى ، ابتداء من حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وانكسار معسكر الغرب فى روسيا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية ، الى أن بلغت الأزمة حدها الاقتصادى الحاسم بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ . لم يعد من المستطاع ، فى هذا الجو ، أن يتحرك الفكر الفلسفى العربى ، وكذا الحركة السياسية ، فى جو تسوده مطالب الاصلاح ، أى الاستقلال الذاتى فى اطار الاستعمار الاجنبى الغربى ، أو استمرار التسلط العثمانى ، ولا أيضا المطالبة بالنظام النيابى أو الحريات الغربية التقليدية . أوشكت مرحلة الليبرالية أن تنتهى تماما ، رغم استقرار عدد من أنظمة الاستقلال الذاتى النسبى ، ومعها

التجارب البرلمانية ، ابتداء من المجلس النيابى العربى الاول بعهد الخديوي اسماعيل عام ١٨٧٦ . وقد أدرك الرأى العربى ، وفى الاساس رأى الشارع في المدن ، ووجدان الريف العميق ، أن المأزق لا مفر منه فى اتجاه استمرار الاتجاهين الرئيسيين على ما كانا عليه ، خاصة وأن التركيب المنسق بينهما لم يتم : فالاستعمار الغربي ما كان له أن يسمح بظهور بنية فكرية فلسفية قومية عربية متسقة ، تجمع بين الأصالة والمعاصرة ، بين خصوصية التكون والمسار والعالمية فى مجالاتها البناءة ، المتقدمة ، اقتصاديا ، وسياسيا وفكريا .

وعلى هذا ، نشهد ان كلا من الاتجاهين الرئيسيين ، من مدرستي الفكر والعمل فى العالم العربى بدا يتشعب إلى شعبتين داخليتين : شعبة ، أو اتجاه فرعي ، محافظ ، وشعبة ، أو اتجاه داخلى ، راديكالى . وباختصار شديد فقد تشعب التحديث الليبرالى إلى شعبتين : الشعبة المحافظة تجمع بين فكرية الفئات والطبقات الرأسمالية الوطنية ، نصيرة التحديث الليبرالى ، والتأقلم مع الموجة الغربية ، بشرط ان تتمتع باستقلال ذاتى نسبى ، وحريات عامة على النسق الغربى ، من حيث التمثيل النيابى وقدر من الحريات العامة والخاصة : وشعبة راديكالية ، رأت فى الاشتراكية ، فكرا وعملا ، باعتبارها ، من حيث المضمون ، عملية تحقق أهداف القومية التقدمية أو القومية

الديمقراطية ، أو القومية الشعبية ، نهجا ومسارا . وتم نفس التشعب فى اتجاه « الاصولية الاسلامية » : الشعبة المحافظة ، وقد ارتكزت فى الاساس على مجتمعات البدو دون المجتمعات الزراعية والصناعية المتقدمة ، وهى شعبة الاسلام السلفى ، وشعبة راديكالية استندت على العكس ، على القطاعات المتقدمة الحركية ، فى قلب الحركة السياسية والاقتصادية التنموية فى المجتمعات الزراعية المستقرة حول مراكزها الصناعية والتجارية والمالية فى المدن ، واتخذت شكل الاسلام السياسى ، أو بتعبير أدق ، الاسلام السياسى - الحضارى فى عصرنا .

وعلى هذا ، يبدو من الواضح للأعين أن شبكة التكوين الداخلى للفكر العربى المعاصر ازدادت تعقيدا ، بقدر ما تشعبت فيه الحركة الوطنية والحياة السياسية بقدر ما انعكست هذه الجدلية الاجتماعية المركبة فى أعماق الفكر الفلسفى ، وكذا الحياة اليومية فى المجتمعات العربية المتقدمة .

- ٣ -

ظاهر الأمر - فى الفكر العربى على وجه العموم ، والفلسفة العربية على وجه التخصيص - أن الأمور تسير بشكل رتيب :

أ) الموجة الغربية السائدة فى معظم مجالات الحياة الاجتماعية ، تكاد تكون مسيطرة تماما على القطاع الحديث من الفكر والفلسفة العربية . أيديولوجية الاحزاب السياسية العصرية تهتدى بهدى الفلسفة السياسية الليبرالية ، المحافظة أو الاصلاحية على حد سواء . أيديولوجية القومية العربية تواكب الاتجاه الفكرى السائد لحركات الوحدة السياسية التى شهدتها ايطاليا وألمانيا فى نهاية القرن الماضى ، إلى درجة اعتبار مجموع المجتمعات البشرية المتواجدة فى اطار العالم العربى وكأنها ايطاليا أو ألمانيا أخرى مادامت هذه المجتمعات ملتصقة فى اللغة ، وكذا قريبة المسار فى تاريخها الحديث ، ابتداء من القرن السابع . ولو دققنا النظر فى هذين المجالين ، لأدركنا أن مواكبة الفكرية السياسية العربية للفكر والفلسفة السياسية الاوربية والغربية على حد سواء معناها أن هذه الفكرية تتجاهل المسار التاريخى ، الموضوعى ، المغاير تماما لمجتمعات عالمنا العربى ، لو قارناها بمجتمعات أوربا وأمريكا الشمالية . أن الأساس الركين الذى لولاه لما استطاعت الديمقراطية الغربية ، مثلا ، أن تنطلق لا يعدو أن يكون الوجه الآخر لما أصاب العرب ، مسلمين ومسيحيين ، وكذا عموم شعوب الشرق ، من كسر ، وفقر دم وانحدار، وهامشية تاريخية ، بعد أن سيطر الغرب بالنار والسلاح على مصائر الشرق ، منذ عصر الاكتشافات البحرية حتى يالتا : خمسة أجيال من القهر

بالسلاح ، استطاع أن يجمع فيها « فائض القيمة التاريخى » ، وهو الاساس لإيجابيات الغرب التى نقدرها بحق ، ولكنه أساس قام على تفريغ العالم العربى والاسلامى والشرقى من إمكاناته الإيجابية ، وبالتالى لا يمكن بحال من الأحوال أن يتكرر على أرضنا بقرار ذاتى لا يدرك إطارات الجبرية التاريخية .والأمر كذلك بالنسبة للمفاهيم المتتالية التى اردنا أن نعبر بها عن وحدتنا الحضارية الأكيدة ، ووجهتنا التوحيدية المرموقة : ذلك اننا إنتقلنا بين ١٩٤٥و ١٩٨٣ من الـ « جامعة » إلى الـ « وحدة » ، ثم من الـ « قومية » إلى الـ « أمة » ، – حتى انتهى المطاف بقطاعات من الفكر العربى إلى اعتبار مجموع المجتمعات العربية المتواجدة فى العالم العربى كله وكأنها « وطن » واحد . ومن هنا ثارت اشكاليات عديدة ، بعد أن قدم عدد من الاتجاهات هذا الأمر بصورة حماسية ، تكاد تكون اسطورية ، مما أحدث صدمة عنيفة لجيل الشباب ، بعد تأزم الجمهورية العربية المتحدة فى عام١٩٦٠ ، ثم تباعد الدول العربية فى جو من الانطواء على أحسن تقدير ، بل وأحيانا المواجهة السياسية الرأسية ، وكذا بعد مأساة حركة التحرر الفلسطينى إلى غير ذلك من الأمور التى كان من الممكن تحليلها بطريقة موضوعية وأسلوب واقعى ، – نقول تحليلها لاتفاديها بالضرورة – بدلا مما أصاب عقول الشباب من صدمات تلو صدمات ، من جراء التخطيط الأعمى لمفاهيم ونظريات

وايديولوجيات مجتمعات مغايرة تماما للمجتمعات العربية ، فى إطار جيو - ثقافى وتاريخى مناقض تماما لذلك الذى نحيا فى اطاره .

ب) والأمر على هذا النحو تماما فى جميع المفاهيم والتصورات الفلسفية المواكبة لعمليات التطور الإقتصادى - الاجتماعى وعلى وجه التخصيص عملية التنمية أو التحديث ، خاصة بعد أن حولت حرب أكتوبر النفط من سلعة إلى سلاح ، لفترة قصيرة نسبيا ، حوصر فيه التحرك الممكن بذكاء ودهاء وعلى أرض طيعة بحيث أوشك أن يفقد فاعليته تماماً أو يكاد .

ان التحليل النقدى فى هذا المجال ، يندرج فى إطار « أزمة الفكر التنموى » ، أو بعبارة أخرى ، أزمة أيديولوجية فلسفية التقدم . كان من المفروض ، حسب نظرية التقليد الفكرى التى تجمع بين جميع أطراف اتجاه التحديث الليبرالى ، وكاد قطاع كبير من الشعبة الراديكالية للأصولية الإسلامية ، كان من المفروض أن يستطيع العرب تقليد مسيرة الغرب - فى الأساس الغرب الصناعى الرأسمالي - بحيث يصل الأمر لمختلف الدول العربية ومجتمعاتها المتباينة إلى مستوى السيطرة على الطبيعة ، بغية الدخول فى دولاب الانتاج بلا حدود ، والاستهلاك دون قيود ، والمتعة بلا آفاق . هكذا تصور أنظار الموجة الغربية

على أرضنا مسألة التقدم ، والتنمية : نقل الفردوس من أرض الند والعدو الحضارى إلى أرض المقهور والمحتل ، وهو نقل لابد من دفع ثمنه ، الا وهو تقليد الغرب بنقل العلم ، والتكنولوجيا ، والمعرفة . بالنقل - أى بالموقف الوضعى مما هو قائم ، بتقليد ماهو متاح ومستساغ ، بالسير فى القوالب المعمول بها .

جـ) نقل الغرب إلى أرض العرب بالتقليد : هذا هو جوهر الفكر الوضعى فى قلب فلسفتنا العربية وأيديولوجياتنا السياسية في مختلف أقطار أمتنا العربية . هو جوهر الجمود . يوفر علينا الجهد ، نعم . ويفض أمامنا أبواب التحرك الإيجابى والتقدم إلى إمساك مفاتيح المبادرة التاريخية ، حتى فى حدود أرضنا وبالنسبة لمصائر معظم شعوبنا .

كم من رسالة للماجستير والدكتوراة فى فلاسفة وفلسفات الغرب ، وكم من مئات بل وآلاف الدراسات والكتب عنها وعنهم يتساءل المرء حقيقة : لم إذن ، باندونج ؟ لم ، إذن ، حركة التضامن الشعوب الآسيو - أفريقيـة ؟ لم ، إذن ، حركة الحيـاد الإيجابى أولا ، أيام الرئيس جمال عبد النـاصر ، ثم حركة عدم الإنحياز اليوم ؟ كم من دارسى الفلسفة ، كم من الفلاسفة الشباب ، من أسـاتذة الفلسفة فى جامعاتنا اهتموا ، أو يهتمـون بفلسفات الـشرق ، والفلسفة الصـينية أكثرها عراقة ، ومن

بعدها الأطار الفلسفى والفكر الفسيح المعقد لشعوب الهند واليابان وكوريا وفيتنام ، وكذا أخواننا في القارة الأفريقية ، وإلى حد مغاير ، فى المجتمعات الهندية الأصيلة فى أمريكا اللاتينية ؟ . من منا يتابع اليوم ، التطور العصرى ، ذات معدل النمو السريع المتعجل ، الفكر السياسى ، والإجتماعى وكذا فلسفة التاريخ والحضارة والثقافة على تنوعها فى هذه الدول العملاقة ، ذات التأثيرالمتزايد فى الحياة الدولية فى كافة مجالاتها ونواحيها ، والتى تربطنا بها أواصر الأخوة الحضارية ، والصداقة السياسية، والمصلحة الاقتصادية والإنسانية ؟ .

لقد أصابت الوضعية ، النظرة الوضعية إلى الأمور ، نقل الموقف الوضعى للفلسفة الوضعية الغربية إلي أرضنا العربية ، أصابت فى الصميم الرؤيا العربية ، وشوهتها إلى درجة بعيدة ، مما تسبب في عرقلة تناول قضايانا القومية والإجتماعية والثقافية بشكل موضوعى واقعى ، فعال .

ولعل السبيل الأمثل لتبين الخطورة الناجمة من سيطرة الفكر الوضعى على معظم مجالات الفكر والفلسفة فى العالم العربى اليوم إنما يكون بمقارنة الموقف الوضعى من الفكر – أى ، فى الأساس ، نقل الفكر الغربى إلى أرضنا العربية ، بعد تعريبه – بطرح نفس القضايا من زاوية الفكر القومى الذى يستند أساسا علي مفهوم « الابداع الفكرى الذاتى » .

- ٤ -

فلننظر أولا إلى إشكالية الفكر العربى بالنسبة لقضايا الشخصية العربية والمجتمع العربى ، - أى بالنسبة للدائرة الداخلية للجدلية الإجتماعية .

أ) **المسـألة الأولى هى : مسألة تحـديد تصور** الوجـود الإجتماعى العربى ، أى مسألة نوعية هذا الوجود الإجتماعى، مكانتها من سلم التكوينات الإجتماعية . وقد ذكرنا ، فيما سبق تدرج النظرة العربية من « الجامعة » إلى « الوطن » . وأشرنا ، بنفس هذه المناسبة ، إلى مدى تأثير هذا التدرج على الممارسة السياسية العربية ، فى واقع العالم المتغير و نحن فى قلب أخطر المناطق الجيو - سياسية قاطبة . ألا أن الحساب التنازلى بدأ منذ أكتوبر ١٩٦٠ ، ابتداء من النقد الذاتى التاريخى الذى ألقاه رائد الوحدة آنذاك . وقد انعكس هـذا النقـد فى النظرية التى قدمناها حول « الأمة ذات المستويين » : المستوى القاعدى ، الأساسى ، أي الأمة بالمعنى الدقيق ، على أسـاس كونهـا المجتمـع القومى ، الوطن ، على وجه التحديد ، خاصة بالنسبة للتكونات الاجتماعية داخـل إطـار أمتنـا العربيـة التى

تمت إلى أبعـاد التاريخ ، بل وأبعـادها قاطبـة ، مثل مصر ، ثم اليمن والمغرب ، ثم المستوى الأعم مستوى الوحدة القومية - الثقافية ، أو الوحدة الجيو - ثقافية وهو الإطار / المستوى الذى يجمع جميع المجتمعات القومية ، الأوطان علي وجه التدقيق فى إطار أعم هو إطار اصطلحنا على تسميته بـ « الأمة العربية » ، بدلا من التسمية الأكثر شمولا والتى ربما تبدو وكأنها أقل من اللازم ، تسمية « العالم العربى » . إن نقطة البدء لصياغة هذا المفهوم لم تكن فى حال من الاحوال تقليد أى من الروافد الوافدة من الغرب . فهذه أوربا ، مثلا ، التى تدعى أنها تسعى إلى وحدتها ، فلم تنجح الا أن تشكل « سوقا مشتركة » ، بدلا من المشروع القومى - الحضارى المشترك . وانما انطلقت محاولتنا لصياغة هذا المفهوم ابتداء من الممارسة الاجتماعية - السياسية العربية منذ الاربعينات ، ومقارنتها بالتجارب التحريرية - التوحيدية المواكبة ، فى نصـف القارة الهندية ، فى أمريكا اللاتينية ، فى الدائرتين اللغويتين الرئيسيتين لافريقيا السوداء اللا - عربية ، والحق أن هذا المفهوم أصبح اليوم مقبولا على أوسع مستوى شعبى ومؤسسى معا ، على الاقل على مستوى الممارسة الفعلية ، الواقعية - وهى بيت القصيد . ومن هذا المفهوم يمكن أن ننطلق ، خطوة خطوة ، نحو تحقيق وحدة عربية شاملة ، واقعية ، فى آن واحد ، كما اقترحناه بمجرد عرض هذا المفهوم ، أى على

أن تتحقق هذه الوحدة فى كل من المناطق الاربع التى منها تتكون أمتنا العربية : المغرب ، أو شمال أفريقيا العربى ، حوض النيل ، الشرق الادنى ، الذى يجمع بين الاقطار المنشقة من الولاية العثمانية بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وأخيرا شبه الجزيرة العربية والخليج . وعلى أساس هذه التجمعات العربية الاقليمية التى تمثل حلقة وسطى بين المجتمع القومى ، الدولة الوطنية المستقلة المتحددة فى الوضوح ، من ناحية ، والدائرة الثانية ، الاعم ، أى الدائرة القومية - الثقافة ، أو الجيو - ثقافية ، للامة العربية من هذا المستوى المتوسط يمكن التدرج من المجتمع القومى المتخصص إلى الوحدة العربية الشاملة ، حسب الظروف ، والامكانات ، والمصالح . تلاقيها ، ثم تبويب انسجامها ثم مركزة القرار فى اتجاهاتها الرئيسية .

وقد تمت اجتهادات أخرى لعدد من المفكرين العرب فى نواح هامة ، نذكر منها على وجه التخصيص ، مفهوم « العصرية » ، و « المعاصرة » الذى قدمه الاستاذ الجليل سى علال الفاسى ، موضحا بذلك التفرقة كل التفرقة الرئيسية فى كتابه « النقد الذاتى » ، بين المفهوم المتغرب لعملية التطور الاجتماعى من ناحية ، والتحديث القومى النقدى الاصيل من ناحية أخرى . والحق أن من المهم أن نبحث بشكل محدد ومنظم ، عن تنوع مثل هذه الاسهامات ، لتجميعها ، وعرضها على العقل العربى وخاصة

الشباب الصاعد ، تشجيعاً للابداع الفكرى الذاتي وتأكيداً لقدرة الفكر والعقل العربى أن يواجه التحـدى الذى تفرضه الظروف الجيو - سياسية والتاريخية الشاقة على أمتنا العربية ، فى جملتها ، وكذا على وحداتها المختلفة ، بدرجات متفاوتة من ناحية أخرى .

ب) ثم هناك المسألة المستمرة ، التساؤل الاشكالى المؤرق ، حول الاصالة والتجديد ، حول التراث والتحديث . لقد اجتهد المستشرقون ، جيلا بعد جيل ، وخاصة منذ الاربعينات ، أى فترة تواكب تأزم الانظمة الاستعمارية التقليدية من ناحية ، وصعود الدولة الصهيونية الغازية من ناحية أخرى ، وجها لوجه مع اتساع مجال وفاعلية حركات التحرر الوطنى ، موجة الثورات الوطنية والاجتماعية التى عمت قسما هاما من أمتنا العربية . كان بيت القصيد ، الخط العام للاستعمار الاستشراقى ، هو : ايهام العقل العربى أن العرب ، أو العالم العربى ، أو الامة العربية ، ظاهرة على حدة ، مغايرة تماما للظواهر « الطبيعية » ولا شك أن مجتمعات الشرق الحضارى - فى آسيا ، والعالم العربى - الاسلامى ، وأفريقيا - مغايرة تماما للتكون التاريخى لمجتمعات الغرب ، وخاصة المجتمعات الصناعية الرأسمالية المتقدمة منها . ولا شك أيضا أن التناقض بين الاصالة والتراث فى هذه المجتمعات - فى هذه المجتمعات كلها ، لا فى المجتمعات العربية أو الاسلامية منها - وبين مقتضيات التحديث والتنمية من ناحية

أخرى أكثر خطورة من تلك التى تشهدها المجتمعات الغربية المتقدمة . علينا أن ننظر بدقة مسيرة التحديثات الاربعة فى الصين بعد انتصار حركة التحرر الوطنى فى أول أكتوبر ١٩٤٠ ، وخاصة اليوم ، والتناقضات المستمرة فى اليابان أعظم دولة تكنولوجية وتصنيعية فى العالم المعاصر ، وما تستشعره مختلف قوميات الهند - شبه الجزيرة الهندية من جراء هذا التناقض ، الخ .. ولكن المهم فى الموضوع هو أن ندرك أن الخط العام الاستشراقى الاستعمارى موبوء حقيقة وخاطىء علميا تماما : فالتناقض بين الأصالة والتحديث ، بين التراث والعصرية على أشده فى مناطق متقدمة ، أو هكذا تبدو ، فى صقلية وأسبانيا ، وبريتانى فى غرب فرنسا ، وايرلاندا ، وبولاندا ، وقطاعات واسعة من يوغوسلافيا ، الخ . إن المجتمع الوحيد الذى لا يمارس مثل هذا التناقض أنما هو ، على وجه التحديد ، المجتمع الامريكى : ذلك أن الولايات المتحدة الامريكية هى ، على حد تعبير توماس جيفرسون ، « الامة الجديدة الوحيدة حقيقة - لا تراث ولا أصالة الا تلك التى جلبها معهم المستوطنون البريطانيون ، ومن ثم فالمجال مفتوح انفتاحا كاملا للتحديث ، والتعصير ، خاصة وأنها بلاد لم تعرف معنى الاحتلال والحروب والدمار . ومنها ، منها على وجه التحديد ، وفدت الينا معانى ومفاهيم الفلسفة الوضعية الجديدة ، وما يواكبها من النظرية الاجتماعية الوظيفية والتركيبية ، وكلاهما

مبنى على مفهوم الحصر النمطى حيث يهيمن المركز على العالم الهامشى ، ونحن بالتأكيد ، على حد اعتبارهم ، جزء لا يتجزأ من هذه الهوامش العاجزة .

كان يكفى أن ندرك أن المقولة التى اسقطها علينا رجال الاستشراق الاستعمارى مقولة عنصرية فاسدة كان يكفى أن نهتدى إلى ايجابية إنجازات قطاعات هامة ، عزيزة ، من أمتنا العربية ، إلى الاسهامات الرائدة لعدد هام من المفكرين العرب ، على تنوع اتجاهاتهم الفلسفية والايديولوجية . كان يكفى - وهذا جوهر الموضوع - أن ننتبه إلى جذورنا ، إلى انجازاتنا ، الى اسهامنا ، الى ذاتنا القومية - الثقافية ، الى جذورنا الحضارية فى امتدادها العصرى - بدلا من إدراك الذات ابتداء من مرآة الغير ، وهو الند الاستعمارى ، والامبريالى ، والصهيونى .

لو فعلنا ذلك لأدركنا بوضوح أن التراث والتجديد ، الاصالة والعصرية أو التحديث لا يقفان موقف الند من بعضها البعض ، فهناك تحديث أصيل ، التحديث القومى المستقل ، النابع من الارادة القومية المستقلة ، فى قلب وعلى قمة الدولة الوطنية المستقلة التى تستطيع ، وحدها ، أن تعبىء طاقات الشعب ، معتمـدة على إرادته ، معبرة عن مصالح ، لتشكيل المشروع القومى ، وفى بعض الامور - وهذا شأن أمتنا العربية - المشروع الحضارى . إن التناقض ليس بين « الاصالة » و « التجديد » ،

ليس بين « التراث » و « التحديث » ، ولكنه بين الاصالة السلفية والتراث الجامد من ناحية ، وبين الاصالة القومية الخلاقة والتراث كباعث للابداع الفكرى والثقافى الذاتى . أى : بين الموقف المستقل ، المسئول الرائد من التاريخ ، وبين الموقف التابع ، المنهزم الهامشى من التاريخ .

والتاريخ ، هنا ، هو ، فى آن واحد ، التاريخ الذاتى ، أى القومى - الحضارى ، وأيضا التاريخ الذى لا يرحم .

جـ) ثم مسألة الابداع ، وقد أحاطت بها ، ولا تزال ، أجواء مستمدة من تراث اللغويات (البدعة ، الخ) . اتجاه التحديث ، بما فى ذلك التحديث القومى ، يتجه فورا إلى كل جديد ، وكأن الموجات الطليعية ، التنقيبية ، أو التى يطلق عليها هذه التسمية فى ثقافات الغرب ، تحمل ، بالضرورة وابتداء من تسمياتها هذه ، التجديد والتنقيب ، والابداع .

ولقد اعتلت هذه المكانة ، فى ثقافات الغرب ، بعده ١٩٤٥ ، الاتجاهات والمدارس الوضعية الجديدة ، الفيمينولوجية خاصة ، الوجودية على كافة صورها ، وخاصة المتزمتة منها فى الذاتية المتمردة (« الغير والعدو » ، كما ادعى سارتر طوال حياته) ، البنيوية ممزوجة برافد من الماركسية الوضعية الجامدة ، الوظيفية ، اتجاه الاصرار على الحصر النمطى ، ثم الفكر

العـدمى ، الفـكر الرافض ، ورفع شـعار الانـحدار بوصفه الاطار العام الذى لا مفر منه لحياة العالم الثقافية والفكرية فى شمولها . وفى هذا الجو الموبوء ، الغريب ، ارتفعت أصوات وأسماء عملت على تشجيع جميع الاتجاهات الانفرادية ، الانعزالية ، أو الاستفزازية المتنكرة للمعقولية السياسية فى مجال العمل الاجتماعى والسياسى ، على أساس أنه يرتكز على قاعدة فلسفية وفكرية « رائدة » . والى اليوم لم ندرك بوضوح كاف ما ترتب على ذلك من آثار بالغة الضرر والخطورة فى عالمنا العربى : إن روافد وتوابع هذه الاتجاهات العدمية فى قطاعات من أرضنا العربية شجعت على القيام بدعاوٍ ونشاطات معاكسة تماما لروح الوحدة الوطنية والجبهة الوطنية والخط القومى الوازع ، حول الشعب العـامل والـدولة الوطنية ، وكذا ، وبالضرورة ، أثارت زوابع السلفية والردة ، لحمـاية ما استشعرته جمـاعات واسعة من شعوبنا أنه تهـديد لكيانهـا الحضارى وشخصيتها التاريخية المتخصصة . ومن خلال الانبهار بهذا السراب الثقـافى ، فاتنـا أن معـانى ، وعوامل ، ووجـوه الابداع الفكرى الذاتى قائمة منذ أمد طويل على أرضنا العربية ، مرة أخرى على اختلاف وتنوع ظروفها الى درجة بالغة . أفلم يكن محمد على وصحبه ، ابراهيم ورفاعة الطهطاوى خاصة ، من كبار المبدعين ، بعد أن استطاعا اعادة بناء أقوى دول العالم خارج الغرب ، فى مدة تقل عن

عشرين عاما وذلك بعد أربعة أجيال من الانحدار ، وعلى أساس مفهوم فذ آنذاك للدولة ألا وهو وحدة رجال الفكر ورجال السلاح على أساس قاعدة صناعية متقدمة وسياسية تسعى الى وحدة المسلمين والعرب ؟ ألم يكن الشيخ مصطفى عبـد الرازق مبدعا ورائدا اذ أعاد منهـاجية تأريخ الفلسفة الاسلامية الى ضرورة الأخذ بأصولها التاريخية الذاتية ، دون الاعتماد على أسطورة أن الفلسفة الاسلامية ما كان لها من دور الا نقل التراث اليونانى إلى العرب ، ومن ثم تسهيل اعادة نقله إلى الغرب فى مرحلة النهضة ؟ ألم يكن سـيد درويش مبدعا رائداً حـدد حقيقة ومعـانى أسـاليب منـاهج الألبـاب المصرية والعربية ، وذلك بعد أن أدار ظهره للتراتيل العثمانية واتجه نحو الاغانى الشعبية ، المستوحاة من القرية والشارع ، من ميدان الشعب ، من روحه النيرة ، المشرقة ، رغم الظلمات ؟ ألم تكن قيادات عدد من جيوشنا العربية وحركات التحرير على مستوى رفيع من الابداع والريادة منذ مطالع القرن التاسع عشر إلى اليوم ، فى المغرب ، والجزائر ، على أرض مصر وسيناء ، فى الشام وفلسطين ، وغيرها من المناطق ، وقد كان يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وما تلاه من أيام قلائل للاقتحام نموذجا ساطعا للابداع والريـادة التكنولوجيـة والعلميـة والتنظيميـة إلى أرفع مسـتوى ؟ الظلمـات كثيفة لاشك ، بل ومتزايدة منذ عشر سنوات، فى قطاعات كثيرة . لكنما منهج

التمييز بين الابداع الذاتى الحقيقى ، فى كافة المجالات ، وخاصة مجال الفكر ، أى الابداع الفكرى الذاتى ، من ناحية ، وبين نقل فضلات ، بل وحثالة ، الفكر الغربى العدمى المنحـدر ، من ناحيـة أخرى ، باسم « البـدعة » ، واضح كل الوضوح : أنه ، أولا وقبل كل شىء ، يقوم على أساس الامساك بالقرار السياسى القومى ، فى جميع مجالات الوجود القومى ، من الاقتصاد إلى الفكر والفلسفة ، من الثقافة والفنون إلى النظام الاجتماعى ، من الحياة السياسية إلى العلم والتكولوجيا .

- ٥ -

وبطبيعة الامر ، فان البعد الخارجى لاشكالية الفكر العربى فى العالم المعاصر يحتل مكانة مرموقة فى المقارنة بين المنهاجين ، وذلك نظرا للموقع الجيو - سياسى المتفرد من حيث الخطورة والاهمية لعالمنا العربى ، حول مصر ، فى نقطة التقاء القارات الثلاث (آسيا ، أفريقيا ، أوربا) ، وبين الشرق الحضارى والغرب، وفى نقطة التقاء دوائر الامن لكل من الدولتين العظميين .

أ) شعار « الازمة » ، أولا ، وقد أشرنا إليه من قبل . أن تكثيف اقتحام العقل العربى ، بواسطة أجهزة السياسة والثقافة والاعلام الغربية ، دون استثناء ، أدى حقيقة إلى تزعزع ثقة

الطلائع القومية فى إنجازات العرب ، شعوبا ودولا . وأصبح شعار وتسمية « الازمة » رمزاً لكل ما هو عربى ، فى كل آن ومكان ، ليلاً ونهاراً ، وكأن الازمة ترادف العروبة ، فلا سبيل إلى إدراك ذاتنا ، وممارسة حياتنا وتصور مستقبلنا الا فى اطارها ، من خلالها ، بل وباتخاذها هدفا لتحركنا كله .

ثم ينتقل الباحث المنقب إلى رصد الظواهر بدقة ، ثم مقارنتها بما كان عليه العربى منذ نصف قرن ، أى فى مرحلة انطلاق الازمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ - ١٩٣٢ . تحولت القاعدة الاقتصادية تحولا جذريا ، من اقتصاديات هامشية ، وفي أحسن الظروف ، عدد من المجتمعات القائمة على أساس اقتصاد رأسمالى متخلف ذات هيمنة زراعية إلى قاعدة اقتصادية حديثة ، بل وعصرية فى عدد من البلدان والقطاعات ، بحيث أصبح اليوم الانتاج الصناعي ، والزراعى بالاضافة إلى المصادر النفطية ، والنشاط التجارى الدولى ، والموارد المالية ، عشرات أضعاف ما كانت عليه فى هذه الفترة ، بالارقام الفعلية ، وليس فقط الكلية ، والأهم من ذلك ان العالم العربى يحتوى اليوم على قواعد هامة للصناعات الثقيلة المتقدمة ، والتكنولوجية العصرية بما فى ذلك صناعات التسليح والالكترونيات والصناعات التحويلية الرئيسة . وكذلك ، فان تحول حجم وتركيب سكان العالم العربى يلفت النظر : غالبية العرب اليوم من سكان المدن ، وحول القواعد

الصناعية ، والثقافية العصرية ، بينما دخلت الميكنة الزراعية معظم أريافنا ، بل وبلغ الامر أن تحولت أمور الحياة بالنسبة للقطاعات الهامشية ، أى البدوية الصحراوية ، من مجتمعاتنا ، نفس الامر بالنسبة لقطاع التعليم والثقافة : عدد المدارس ، عدد الجامعات ، مراكز البحوث ، الاكاديميات ، عدد وتنوع الصحف والمجلات والمطبوعات العلمية ، عدد رسائل الماجستير والدكتوراه ، كوادر التعليم بكافة مستوياته ، بما فى ذلك التعليم التكنولوجى والفنى والعلمى ، زادت نسبتها بقدر هائل . ونفس الامر يتجلى بوضوح فى مجال الدفاع والقوات المسلحة والطاقة الحربية إن تاريخ حروب العرب فى هذه الفترة ماثل للاذهان ، يكفى هنا أن نذكر إلى جانب حرب الجزائر البطولية العظيمة ، تلك الحروب الست التى خاضتها مصر فى ربع قرن ، أى بين ١٩٤٨ -١٩٧٣ (١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، حرب الاستنزاف ١٩٦٩ - ١٩٧٠ ، حرب اليمن ١٩٦٥ - ١٩٦٦) ، وكذا الامر بالنسبة

للحروب العربية ضد إسرائيل فى سورية والاردن ، وعلى أرض لبنان وفلسطين الشهيدة . إن قوة وفاعلية القوات المسلحة العربية ، وحجم وتنوع التسليح ، ومستوى المهارة الفنية والاداء لا يمكن بحال من الاحوال حتى مجرد مقارنتها بما كانت عليه منذ نصف قرن . وهكذا على التوالى فى مجالات محو الامية ، والصحة ، والمعمار ، والعلاقات الاجتماعية إلى غير ذلك من عناصر تقويم أمتنا العربية .

من أين اذن هذا الشعور المتصاعد بالازمة ، بين صفوف المفكرين ، على وجه التخصيص ؟

ذكرنا ، المرة تلو المرة ، تأثير اقتحام الموجة الغربية للفكر والوجدان العربي . ولكنما الامر ايضا يرجع إلى أن نوعية التحدى مختلفة ، هذه المرة ، تماما ، عما كانت عليه أيام الاستعمار التقليدى للقرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين . فقد حل محل هذا الاستعمار التقليدى ، البريطانى - الفرنسى - الايطالى فى الاساس ، الاستعمار المهيمن للولايات المتحدة الامريكية ، أقوى الدولتين العظميين ظاهريا ، وأكثرها تحركا فى منطقتنا ، ثم جاءت الدولة الصهيونية الاستعمارية العنصرية الغازية تعمل ، لا لحساب الاستعمار ، كما ظن السذج ، إنما مركز للنفوذ والهيمنة على مستوى عالمى ، بكل ما تتمتع به من طاقات سياسية ، ومالية ، وانسانية ، وعلمية بحق وجدارة فى العالم الغربى . أى أن الامر انتقل من مجرد الاستعمار التقليدى ، إلى حلف بين أقوى دولة استعمارية مهيمنة فى العالم والدولة الاستعمارية المهيمنة الاكثر فعالية من حيث الصعود ، بحيث أصبح التهديد الآن ، يتخذ شكل التحدى الحضارى - لا مجرد الهيمنة الاقتصادية - السياسية - فى نفس الوقت الذى سادت فيه الموجة الغربية ، على تنوعها ، عالمنا العربي ، واستقرت فى

أركان مدارس الفكر والعمل التحديثية ، المؤمنة بمحاكاة الغرب ، ونقل تجاربه ، بل ونقل المعرفة منه تفاديا لمشاكل ومشاق الاعتماد على النفس والابداع الفكرى الذاتى .

ولو كان العالم العربى ، حقيقة ، فى مثل تلك الازمة التى يصورها لنا الكثيرون ، يكون السؤال حقيقة : لِمَ اذن هذه الغزوات ، والهجمات ، والاقتحام المستمر لاراضينا ، وسيادتنا . وحقوق شعوبنا ؟ لم إذن الحروب ؟ لِمَ هذا التركيز الهائل ، الفريد فى تاريخنا المعاصر ، من قبل الدول الصناعية الرأسمالية المتقدمة ضد العالم العربى ؟ وهل ترى يعقل أن يتساند ويتكاتف الاقوياء على هذه الصورة المتصلة ، المنظمة ، دون رحمة ولا هوادة ضد الضعيف ، المتأزم ، الهامشى الزائل حقيقة ؟ أو بمعنى آخر : أفلا نرى أن هذا التركيز يعنى ، على وجه التدقيق ، أن الند الحضارى ، والعدو السياسى ، يدرك تماما ، أن التهديد الرئيسى لميزان القوى العالمى الحالى إنما يدور حول الشرق الحضارى ، وفى قلبه الدائرة الاسلامية الافريقية – الاسيوية ، وأمتنا العربية فى قلبها ؟

المسألة مطروحة ، يجب طرحها بشكل جدى ومنهجى مبدئى واضح . ومعنى هذه العبارة ، عبارة « الشكل المنهجى المبدئى الواضح » هو : أنه يجب أن ندرك تماما ، وبشكل أكيد ، اللحظة التاريخية لطرح الاشكالية . هذا من ناحية . ثم نتساءل : إن كانت هناك أزمة ، فأزمة من ، ترى ؟

إن دراسة تطور الموقف العالمي منذ ١٩٤٥ ، وخاصة منذ مرحلة التحول بين ١٩٤٩ و ١٩٧٣ ، تبين بوضوح ما التطورات التالية : انخفاض معدل نمو الدول الصناعية الرأسمالية في الغرب ، اتساع رقعة مجموعة الدول الاشتراكية بشكل ملحوظ ، وجود الغالبية العظمى ، نحو أربعة أخماس للمجتمعات الاشتراكية خارج الغرب ، أي على وجه التخصيص في آسيا ، ثم أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، ظهور بوادر تشكل مركز ثالث عالمي للنفوذ والتأثير حول محور الصين - اليابان ، دخول عدد من الدول المتوسطة فيما يطلق عليه « العالم الثالث » في دائرة التحرك الفعال (الهند ، البرازيل ، مجموعة دول جنوب شرق آسيا ، على وجه التخصيص ، وأيضا عدد من الدول المتوسطة الاخرى) ، اتساع رقعة المجتمعات القادرة على تحقيق استمراريتها الوطنية ، رغم عدم تحقق معدلات النمو المنتظر . وفي كلمة : فان تطور الموقف العالمي الواقعي يبرهن على أن الازمة أصابت ، بشكل متزايد ، الغرب الرأسمالي ، وخاصة في أوربا ، وقد بدأت مظاهر هذا التأزم ، على الاقل في التحرك الخارجي ، في الولايات المتحدة ذاتها أو بوجه أدق : أن معدل نمو القطاع المتقدم من الغرب الرأسمالي قد هبط بوضوح ، بينما ارتفع معدل نمو المجتمعات الاشتراكية والقطاعات المتقدمة من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، دون غيرها .

الازمة إذن ، هى : أزمة المبادرة التاريخية للغرب الرأسمالى ، على مستوى عالمى . ولكنها لا تعنى الانحدار ، وإنما ، على وجه التدقيق انخفاض معدل النمو والقدرة على اتخاذ المبادرة الفعالة .

ومن هنا ، فان « الازمة » التى نستشعرها ، أو يراد لنا أن نمارسها ، هى فى الجوهر ، اسقاط لازمة غالبية مجتمعات الغرب الصناعى الرأسمالى على أرضنا العربية ، أى « نقل الازمة » أسوة بنقل المعرفة والتكنولوجيا والفكر الرافد العدمى إلى قلب تحركنا العربى .

ومن هنا أصبح لزاماً علينا نقد النقد ، أى إدراك إيجابية السلبية التاريخية الظاهرية ، والعمل على إحياء معانى هذه الايجابية التاريخية من حيث الفاعلية الواقعية فى الرقعة الأوسع من مجتمعاتنا العربية .

وقد رأينا أن نوجز الحديث عن هذا المجال الخارجى ، بغية التركيز على المجال الداخلى لاشكالية الفكر والفلسفة فى عالمنا اليوم ، ففى نهاية الامر ، تتحدد الامور وتحسم مصائر الشعوب ابتداء من عملها الذاتى ، وإن كانت الدائرة الخارجية للجدلية الاجتماعية ، أى الدائرة الجيو - سياسية العالمية ، تحتل مكانة عظيمة الاهمية فى تحديد إطارات وامكانات التحرك العربى الداخلى نفسه .

-٦-

لكل سياسة شروط ، بما فى ذلك سياسة الانتاج الفكرى والفلسفى .

أ) الشرط الاول ، الحيوى ، حقيقة ، هو : الاعتزاز بالذات ، والاعتماد على الذات وتعبئة طاقات الذات بغية تحقيق ذلك التركز للطاقات والقدرات الذى لولاه لا يمكن انجاز الثغرة ، أى فتح أبواب الابداع الفكرى فى العالم العربى .

الاعتزاز بالذات أولا ، اذ لا يمكن الاعتماد على الذات ما لم نكن قد روضنا أنفسنا على التركيز كل التركيز علي ايجابيات وجودنا القومى ، لا بالوقوف على الأطلال ، وماشابه ذلك ، وإنما برصد كل ما كان من شأنه أن يمكن شعوبنا من استمراريتها الاجتماعية الوطنية والقومية ، ويجمع بين الروافد المتعددة ، وبعضها شامخ جبار ، لحضارات وثقافات ما قبل الدعوة وبدء العالم العربى والاسلامى ، فى نسيج متشابك ، متناقض ، متضافر ، متواكب على كل حال وبشكل متزايد منه يتكون اليوم العالم العربى ، ومسار وحدة أمتنا العربية المرتقبة .

المنهج هنا هو : انتقاء عناصر وعوامل الاستمرارية ، وهو

مقياس دقيق يمكن بواسطته أن نميز بين ما هو كذلك ، وبين أضافى ، غير مصيرى وإن كان يتبدى على صور ايجابية وفعالة فى المستوى التكتيكى المباشر .

إن هذا الاعتزاز بالذات بالخصوصية الحضارية ، يقيم القاعدة التى نستطيع على أساسها أن ننتقل إلى الاعتماد على الذات . والاعتماد على الذات معناه : رصد كل الامكانات والعوامل الفعالة فى مجتمعاتنا المعاصرة والقادرة على صيانة جوهر شخصيتنا الحضارية من ناحية ، والتفاعل الذكى النقدى مع جميع معطيات العالم المحيط بنا حسب احتياجاتنا وأولوياتنا - لا ابتداء من احتياجاته وأولوياته . أى ، بكلمة « فليخدم كل ما هو عالمى كل ما هو عربى » .

ب) والشرط الثانى المواكب للشرط الأول فانما هو الموقف النقدى ، من الذات ومن الغير على حد سواء .

جوهر الموقف النقدي بالنسبة للذات ، جوهر النقد الذاتي ، هو: دراسة امكانات وممكنات الظاهرة محل الدرس ، أى الفكر والفلسفة فى المجتمعات العربية فى المرحلة التاريخية الراهنة . فان سلكنا هذا المنهج لأدركنا على التو : أن طاقات الفكر والفلسفة العربية ، وبوجه عام الطاقات الاجتماعية العربية ، تكاد تكون غير مستعملة ولا نقول معبأة . لا تزال وجهة النقد الذاتى متجهة إلى عكس الطروح الخارجية على الأرض الوطنية ، أى

اقامة مرآة منمقة لاستقطاب انتقادات الند الحضارى والعدو السياسى ، بشكل يجعلنا دوما نرى ما هو جلى واضح لا يحتاج إلى دليل ، وأحيانا لا نتبين ما هو أشد خطورة - وعلى كل حال يفوتنا أن نركز على الايجابيات والمكنات الفعالة . الموقف الواقعى ، إذن ، هو جوهر عملية النقد الذاتى . وبالتالى فان نقيض النقد الذاتى الفعال إنما هو مواكبة الانماط الخارجية ، بغية اللحاق بها بالتقليد ، والنقل ، بل وأحيانا ما هو أخطر من ذلك .

النقد الذاتى الموضوعى سوف يكشف لنا أن الفكر العربى ، وكذا المجتمعات العربية ، لا تنقسم حقيقة بين « التحديث » و« الأصولية » ، بين « اليمين » و« اليسار » . وأنما الحد الفاصل حقيقة هو ذلك الذى يفرق بين قوى الوطنية والقومية - على اختلاف مدارس الفكر والعمل والاتجاهات الايديولوجية والسياسية - من ناحية ، وقوى التبعية والنقل ، هنا أيضا ، على اختلاف مدارسها واتجاهاتها . المجموعة الأولى من القوى ، فى حقيقة الأمر ، صاحبة المصلحة الحقيقية فى استمرارية المجتمعات ، واستقرار الأوطان ، واتحاد القومية - وأبعد من هذا وذاك ، تحقيق المشروع القومى ، بل المشروع الحضارى والاستراتيجية الحضارية المواكبة له . أما المجموعة الثانية من القوى - ومنها ما يبدو « أصيلا » و« تراثيا » - فهى التى تعمل على

تفريغ الطاقة الذاتية ، وبالتالى وجب محاصرتها ، وتحييدها ، وعلى أحسن الافتراضات أعادة تكوينها من جديد ، اللهم الا قلة ضئيلة لا وجود لها على أرض الوطن الا خدمة الموجة الدخيلة .

إن محاور تجميع المجموعة الأولى من القوى الايجابية هى : الأصالة الوطنية ، التحديث القومى المستقل ، المشروع القومى والمشروع الحضارى ، والاستراتيجيات الملازمة لهما ، التراث العصرى ذو الوجهة المستقبلية .

أما النقد الموجه إلى الخارج فهو أيسر بكثير لو بدأنا هذه البداية الصحيحة . سوف ندرك تدريجيا معانى أزمة قطاع واسع من هذا العالم الخارجى ، وهو القطاع الذى اصطدمنا به وتعاملنا معه منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولا نزال فى المقام الأول . سوف تظهر أمامنا بوضوح الفوارق الدقيقة بين : الأزمة وتواطؤ معدل النمو ، منحى الانزواء التدريجى والتناقضات البناءة ، تنوع الغرب ابتداء من وجود ، أو لا تواجد استراتيجية حضارية عصرية له ، بالاضافة إلى التنوع الاقتصادى - الاجتماعى ، والسياسى - الايديولوجى التقليدى . الباب هنا مفتوح على مصراعيه للاجتهاد ، واعادة تقييم مفهومنا للعالم المحيط وعلى وجه [illegible] العالم الغربى ، بهذا المنظار النقدى اللازم لتأكيد وترسيخ خطانا النقدية الذاتية ، ولها دوما مكانة الصدارة كما قلنا .

جـ) والشرط الثالث هوإدراك القوى المواكبة لتحرك الشعوب العربية وبالتالى القوى القادرة على دعم الفكر والفلسفة فى العالم العربى .

وهذه القوى ، باختصار شديد ، تكمن فى مجموعة حضارات شعوب الشرق ، وخاصة فى آسيا ، التى تمثل ٦٠ ٪ من سكان المعمورة ، وكذا فى قطاعات هامة من أفريقيا ، بالاضافة إلى أمريكا اللاتينية . إن تحليل الموقف الفكرى والفلسفى فى القارات الثلاث « الهامشية » : آسيا ، أفريقيا ، أمريكا اللاتينية ، سوف يبين مدى تنوع الفكر والفلسفة بها ، وتشعبها ، أن التكوينات الرئيسية للفكر الحضارى الأصيل والفلسفة القومية القادرة على مواكبة موجات التحديث الفعالة إنما يكمن ، فى المقام الأول ، فى آسيا ، وعلى وجه التخصيص فى شرق آسيا : الصين ، اليابان ، مجموعة دول جنوب شرق آسيا ، كوريا ، ومن بعدها نصف القارة الهندية وامتدادها إلى غرب آسيا .ونحن فى هذا المجال أصحاب حق : لقد كان لامتنا العربية بفضل ريادة مصر ، دور التأسيس فى مؤتمر باندونج (أبريل ١٩٥٥) ، فى اعلان المبادىء الخمسة للبانشسيلا ، فى هذا اللقاء التاريخى لقادة ألوية حروب التحرر لشعوب الشرق ، وكان أيضا لقاء حضاريا وفكريا على مستوى رفيع ، لم نلتفت إليه بدرجة كافية ، بل واعتبرناه حدثا دبلوماسيا (كذا) حسبما ارتآه الاعلام الغربى والصهيونى منذ ذلك الحين .

إن غالبية الشعوب المسلمة تحيا فى القارة الآسيوية ، وقد اتجهت انظارها إلى أمتنا العربية وخاصة بعد تحرك أكتوبر ١٩٧٣ وعصر الثورات . وكذا ، وفى مستوى ثان من حيث اتساع رقعة الظاهرة ، فان كنائسنا المسيحية الشرقية على صلة بتجمع الحركة المسيحية ، على صورة قومية واصلاحية ، فى قطاعات هامة من أوربا الغربية والشرقية ، وكذا أفريقيا وأمريكا اللاتينية . ثم أن حركة عدم الانحياز تفتح أمام الحركة السياسية والفكرية معا مجالات واسعة للتفاعل والمساندة ، والافادة - أى تمنحنا عمقا استراتيجيا للنقد الذاتى وتعبئة قوانا ، بدلا من هذا الحوار الاحادى البعد مع الند الحضارى والعدو السياسى .

د) ثم يأتى الشرط الرابع ، نتاجا للرسائل المعروضة أعلاه ، والشروط الثالثة التى عرضنا لها ، ألا وهو : العمل على دعم الوحدة الوطنية والقومية ، أى العمل ابتداء من تراثنا الحضارى الذى صنعه تاريخ عشرات الأجيال ، تراث الوحدة والتوحيد والاجتماع حول الصالح العام والعروة الوثقى من جديد .

إن توحيد الارادات ، لجمع الطاقة وتعبئتها ، واطلاق امكاناتنا الابداعية ، أمر ممكن ، لو صفت القلوب ، واستطاعت طلائع الفكر والعمل أن تتباعد شيئا فشيئا عن وباء التبعية والخنوع ، وأوهام الذهب الاسود ، واغراءات الموجة الغربية .

ولعل من وسائل تعبئة طاقات الابداع الفكرى والريادة الفلسفية فى العالم العربى ، أن يتجه مثل هذا الاجتماع ، الذى أثلج قلوبنا ، إلى عمل محدد ، ألا وهو : رصد جميع المحاولات فى الابداع الفكرى الذاتى فى العالم العربى ، فى مجال الفلسفة على وجه التخصيص ، والفكر العربى بوجه عام ، أيا كانت مصادرها المذهبية والسياسية والمنهجية ، ثم تجميعها فى سلسلة خاصة للابداع الفكرى الذاتى العربى ، بحيث تكون وقودا لشبابنا المتطلع إلى مستقبل إنسانى شريف ، بعيدا عن الأوهام والاساطير ، رافضا للفكر العالمى الانهزامى ، ساعيا إلى مفاتيح التقدم ، عبر اشكالية التحرك المحاصر .

فالحق والواقع أننا ، شعوبا ودولا ، وفى إطارها الفكر والفلسفة العربية ، لم نعش بعد مستقبلنا . فالمستقبل أمامنا ، ابتداء من الارادة والعمل ، وهما بكل تأكيد ثمن الايجابية التاريخية التى نبغيها .

معادلة صعبة ، فهل فى تاريخ الأمم ، معادلات ميسورة ؟

الفصل الخامس

الابداع والمشروع الحضارى

١ - إن الانتقال من اشكالية « التراث والتجديد » إلى اشكالية « النقل - التقليد » - فى مقابل « الابداع » - يمثل ، فى جوهر الأمر ، الانتقال من مرحلة تبعية أمتنا العربية الى مرحلة التحرك من أجل التحرر والسيادة ، وتحديد مكانة متميزة فى قلب النظام العالمى المتغير .

ان ظهور مفهوم « الابداع » فى قلب علوم الانسان والمجتمع ، يمثل حقيقة ظاهرة غير مألوفة ، ليس فقط فى المصطلح العربى ، لكنما أيضا فى المصطلح العالمى فى هذه المجالات . يكفى أن نتأمل الموقف قبل الحرب العالمية ، أى فى الثلاثينات ، بل وبعدها ، حتى نهاية الستينات . كان الموقف آنذاك يرتكز حول مفاهيم « التطور » و « اللحاق بالطلائع » ، « التجديد » ، وفى ندرة من الظروف « النبوغ» .كان الجو كله - فى مختلف دوائر الشرق الحضارى وكذا فى المجتمعات الصناعية الاشتراكية الجديدة فى أوربا - يتجه إلى اللحاق بركب ما خلفته المجتمعات الصناعية

الغربية المتقدمة ، مما دعم جو « التقليد » ، وجعل من غير المألوف التحدث عما فيه تفرد ، أو تمايز المجتمعات اللامركزية ، أى مجتمعات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وكذا المجتمعات الاشتراكية الجديدة . من هنا جاء هذا الجو السائد . من هنا كان مفهوم « الابداع » أقرب ما يكون إلى الدعوة « البدعة » ، بكل ما فى ذلك من أجواء غير مستقرة ، أو مألوفة نفسيا وقيميا .

ثم جاءت مرحلة كسر الانكسار ، مرحلة ظهور الشرق الحضارى على الساحة العالمية من خلال أرضية واسعة جدا من حركات التحرر والثورة ، إيجابا وسلبا ، عبر تناقضات هائلة ، وحركات ريادة ، وكذا انتكاسات وردة شكلت تاريخ الانسانية منذ ١٩٤٥ وخاصة منذ فترة التغيير على وجه التحديد بين ١٩٤٩ و١٩٧٣ ، تحرير الصين وحرب اكتوبر . هكذا تشكل الاطار التاريخى ، الأرضية الاجتماعية ، لتكوّن مفهوم الابداع . وقد بدأ حقيقة من قطاع العلوم الانسانية والاجتماعية ، على صورة الابداع الذاتى Endogenous creatirty وانتشر هذا المفهوم انتشارا سريعــا إبتــداء من « جامعــة الأمم المتحدة » التى قادت مشروع « الابداع الفكرى الذاتى » فى مختلف المناطق الجيو - ثقافية ، منتقلا إلى منظمة اليونسكو حيث أصبح برنامجا رئيسيا لها ، ودخل دخولا سريعا ، من كل الأبواب ، إلى عموم مجالات الحركة الثقافية ، بما فى ذلك الفنون بطبيعة الأمر ، وذلك فى كافة أنحاء

المعمورة . كان هذا رصيد السنوات العشر الماضية . وهو الرصيد الذى على أساسه نقف اليوم فى قاهرة المعز ، فى قلب أمتنا العربية ، تنقيبا لأبعاد ومعانى ورؤى الابداع العربى العربى مع اهتمام خاص بقطاع الفنون والآداب فى إطار المهرجان الأول للابداع العربى .

٢ – انطلاقا من هذه الأرضية نتساءل بادىء ذى بدء : ما هى مكانة أمتنا العربية من المقومات التاريخية والاجتماعية التى تحدد امكان الابداع على مستوى واسع وفعال ؟

اللحظة التاريخية ، أولا . الحديث حول « أزمة الامة العربية » و « تأزم » التحرك العربى ، و « انكسار » المسار العربى – أى التحدث عن الوجه السالب للعالم العربى فى نهاية القرن العشرين – يسود البيئة الثقافية والسياسية العربية منذ نحو عشر سنوات . ولا شك أن عدم تحقق تجارب الوحدة السياسية العربية ، بعد تجربة الجمهورية العربية المتحدة ، وتجارب أخرى مواكبة ، وكذا مأساة شعب فلسطين الباسل ، وتصعيد النزاعات بين عدد من الدول العربية ، والافادة المحدودة جدا من سلاح النفط لبناء أركان القوة العربيـــة الشامـلة ، بالاضـــافة إلى محـاولـة عـزل مصـر وتحقيـق « احتجابها » ، ثم هجرة العقول والطاقات من العواصم السياسية والثقافية إلى الهوامش ، بل وإلى خارج الدائرة العربية تماما – الحق أن هذه الظواهر ، بين العديد من الظواهر الثانوية الأخرى –

تؤكد معنى السلبية ، أو على أحسن تقدير اللا – إيجابية التاريخية بالشكل المرتقب . والمهم فى هذا الصدد أن تتسع النظرة ، بحيث تشمل رقعة أوسع بكثير من العالم ، وخاصة فى القارات الثلاث ، أى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . عندئذ ، سوف يبدو بوضوح وجلاء أن صد صعود الموجة العربية جاء نتيجة لشراسة الهجوم الاستعمارى والصهيونى العالمى المضاد فى المقام الأول ، وهو الهجوم الذى أوشك أن يهدد السلام العالمى بشكل خطر حقا منذ عدة سنوات . وقد ترتب على هذا الهجوم المضاد الشامل تأزم مناطق بأسرها من القارات الثلاث : انتشار المجاعة فى بقع واسعة من أفريقيا ، الاتساع المطرد للمديونية للدول الكبرى فى أمريكا الوسطى والجنوبية ، انتشار الصدامات العنيفة فى القوس الجنوبى من آسيا ، وإن كانت القارة الآسيوية – ٦٠ ٪ من الانسانية – وخاصة شرق آسيا ، حققت تقدما ملفتا للأنظار من حيث التحديث ، والتنمية الاقتصادية والصناعية ، والتكنولوجيا ، ومستوى المعيشة ، حول ريادة الترسانة اليابانية ، ونجاح الصين فى تحقيق نمو مطرد بعد تحريرها . ولكنما ضربات الهجوم المضاد الشامل تركزت على أمتنا العربية ، وخاصة على قلبها مصر ، لشطر الجبهة العربية ، واهدار طاقاتها ، وإضعاف مكانتها . وقد تحقق من ذلك الشيء الكثير . ولكنما الهدف الاستراتيجى لا يزال بعيد المنال : أن جميع مؤشرات الاقتصاد ، والاجتماع ، والتعليم

والثقـــافة ، والعـلوم والتكنولوجيـا ، والقوة المسـلحة الدفـاعية والهجومية ، وكذا السكانية ، تشير إلى أن طاقات العالم العربى فى نمو مطرد ، وأن كان ذلك النمو لا يزال بعيدا عن تحريك معانى النهضة الحضارية المرموقة .

إن الهجوم المضاد الشامل سوف يستمر ، وكذا سوف يستمر ، معه نمو كافة مؤشرات الحياة الاجتماعية للعالم العربى ، جنبا إلى جنب مع مناطق هامة من القارات الثلاث ، وخاصة فى الشرق الحضارى ، أى فى آسيا والأمة العربية على وجه التحديد . ومن الواضح أيضا أن المجتمع الصناعى المتقدم فى قطاعه التقليدى ، أى الرأسمالى الغربى ، يمر الآن عبر مرحلة صعبة من تباطؤ معدل النمو ، الذى يطلق عليه عادة ومجازا « الأزمة » ، وهو ليس كذلك ، بينما يشهد القطاع الجديد ، أى الاشتراكى من العالم الغربى ، تثبيتا لمعالم المسار يؤدى إلى تقدم مطرد للقوة السياسية والعسكرية القائمة على أساس قاعدة اقتصادية وصناعية وتكنولوجية أكثر تقدما ، وإن كان مستوى المعيشة لايزال فى مكانة أقل تقـدما منه فى الدول الرأسمالية الصناعية . ثم أن تكون مركز القوة العالمية الثالث - حول الصين بالاعتماد على الترسانة التصنيعية التحديثية اليابانية - يزداد أهمية سنة بعد سنة ، بحيث أنه من المعقول أن يلعب دورا فعالا فى نهاية هذا القرن على مستوى عالمى ، وخاصة فى غرب المنطقة الافريقية - الآسيوية

وأمتنا العربية فى قلبها . ان خلاصة هذا السرد التحليلى السريع هى : أن العالم العربى رغم الحصار المضروب حوله اليوم واجهاض النهضة الحضارية المرتقبة حتى الآن ، يحتل مكانة واضحة فى جبهة المجتمعات والشعوب والأمم التى تتحرك بشكل تدريجى مؤكد عبر الأزمات والانتكاسات ، نحو احتلال مكانتها الفعالة فى تحريك مفاتيح المبادرة التاريخية – وهذا ما تعنيه عبارة « ريح الشرق » الذى بدأ يهب على النظام العالمى ، تحقيقا لنظام أكثر عدالة وانسانية ، يقوم على أساس اسهامات الحضارات والثقافات الكبرى فى العالم بدلا من هيمنة القطاع المتقدم فى الغرب فى الأساس على مصائر الانسانية ، وفرض أنماطه ونظمه وتجاربه ومثله على « هوامش العالم » بواسطة النقل والحصر النمطى .

٣ – فكرة الابداع ، إذن ، تنبع من الذات المعنية ، أى من مجتمع قومى متحدد على وجه التخصيص . ومن هنا فان فكرة الابداع ، أو تصوّر مفهوم الابداع على وجه التحديد يقترن فى أغلب الأحيان بالذاتية ، بحيث تصبح تسمية « الابداع الذاتى » هى التسمية الغالبة ، منذ سنوات قلائل ، فى هذا المجال .

الابداع الذاتى ، أى : الاعتماد على الخصوصية الذاتية لتقديم مضامين ومسالك جديدة ، غير منقولة ، لمواجهة تحديات أشكالية التحديث ، مواجهة العصر ، مواكبة الصراعات ، وكذا طرح تساؤلات جديدة بما يصاحبها ، أحيانا ، من إجابات جزئية ،

جريئة ، ريادية . وفى هذا الجو ، والاطار ، وإنطلاقا من هذا النسيج ، يمكن أن يرتد الابداع ، فجأة ، على ترسانة التراث ، أى على تراكم منجزات وإمكانات الخصوصية الثقافية المتميزة ، أى فى كلمة ، على الماضى الحى . لا « تراث » فى مقابل « التجديد » ، ولكنما « التراث » كأساس للابداع ...

ومن هنا ، كان لزاما علينا أن نوضح أن « التراث » لا يمثل بحال من الأحوال كتلة جامدة ، ثابتة ، من المضامين والأنماط السلوكية التى يمكن تقليدها ، أى نقلها إلى الواقع الحى ، بل والارتكاز عليها لتمثل المستقبلات المرتقبة . فالتراث مفهوم واسع ذو قيمة عملية يسهل ادراكه والافادة منه . ولكنه ، فى الأساس ، مجموعة الاجابات الريادية - أى مجموعة حركات الابداع الذاتى - التى ظهرت عبر التاريخ ، وتراكمت ، وشكلت تركيبات أكثر تعقيدا وشمولا ، بالتدريج ، بالنسبة لتساؤلات واشكالات وتحديات لم تكن فى أنها مرتقبة ، ولا معروفة ، ولا مدركة بشكل مسبّق . أى أن التراث هو هرم الحركات والاجتهادات الابداعية - وليس مخزنا للوصفات الجاهزة التى يمكن استعمالها انطلاقا إلى المستقبل . فبين هرم الريادات هذا ، وبين المستقبلات المرتقبة تكون لحظة الاختيار فى مواجهة التحدى ، لحظة قبول الغيرية ، لحظة ممارسة الجديد ، لحظة قرار المبادرة الريادية - لحظة الابداع . لحظة هى فى حقيقة الأمر عملية جدلية مركبة تسير عبر تناقضاتها المتنوعة

فى دروب لم تمر بها مسارات الماضى التى شكلت طريق تكون التجمع التراثى .

فاذا نظرنا إلى التراث من هذه الزاوية ، أى زاوية تشكله الموضوعى عبر التاريخ بوصفه عملية وليس معطى جامدا ، لأصبحت دراسته تشكل تدريبا عمليا نافعا لمواجهة ما نلقاه اليوم من اشكاليات وتحديات ومعضلات متميزة ، لانه يتحول من خزانة جامدة إلىَ أداة منهجية نافعة لممارسة المسؤلية الذاتية الآتية ، المتجهة إلى المستقبل بكامل مسئوليتها ، فى جو محيط ثرى ، خصب ، متموج ، يؤكد أن الابداع ممكن ، ولكنه أولا وقبل كل شيء اجتهاد ، وارادة ، واصرار ، ومواجهة للتحدى ، أى فى كلمة ، عملية فتح ، وليس عملية تقليدية ، حتى ولو كان هذا التقليد هذه المرة تقليدا للذات لا للغير .

٤ – كيف اذن تتم المواكبة بين الابداع والاطار الذى لولاه لا يمكن أن يكون ؟ كيف يمكن أن يلتقى السهم والاطار ؟

هنا مكانة المشروع . أى : تخطيط المسار ، فى حدود ومستوى معينين ، الذى فى قلبه ، وانطلاقا من التعبئة الممكنة فى إطاره فقط ، تنطلق الريادة ، ينطلق الابداع .

إن فكرة « المشروع » فكرة قديمة – حديثة . عرفناها فى العصر الحديث ، وفى قرننا هذا بالذات ، باسم « الخطة » أو « التخطيط ». ففى كل مجتمع يصبو إلى التقدم نرى أنه لزاما على النخبة

الحاكمة ، الطبقة السياسية ، أن تحدد خطة للانتاج ، العمل ، لتحقيق الهدف المرموق . وقد تكون هذه الخطة فى إطار الفكر الاجتماعى المنفتح أو الأوتوقراطى . ثم يلحظ الدارسون أن فكرة الخطة والتخطيط معروفة منذ أقدم العصور . أليست هى فى واقع الأمر جوهر سياسة كل وجود يهدف إلى تأكيد ذاته فى إطاره الجغرافى التاريخى ، أو فى منطقته ، أو فى عالم أوسع كان يعرف دائما بأنه « العالم » حتى تحققت عالمية العالم فى هذا القرن ؟

المهم هنا أن نلحظ أن المشروع ، على قدمه ورغم حداثة تسميته ، ينقسم إلى أنواع ثلاث :

ا) هناك أولا « المشروع الاجتماعى » – وهو الذى يتخذ عادة شكل البرنامج لحزب معين أو حكومة معينة ، أو نظام أو دولة حسب الظروف القائمة فى كل مجتمع . المشروع الاجتماعى جوهره تنظيم الموارد ، من حيث الانتاج والتوزيع ، وبالتالى تنظيم هيكل النظام الاجتماعى ، وتحديد مركز الثقل فيه بين أيدى فئة، أو فئات معينة ، أو بين رقعة أكبر من القوى الاجتماعية . والجديد فى فكرة المشروع ، عند مقارنتها بالبرنامج ، أن المشروع يتعدى عادة مدة حكم معين ويندرج على مرحلة زمنية متوسطة تشمل عددا من فترات الحكم التقليدية ، أى أنه يهدف إلى تشكيل الأرضية الاجتماعية لبلد معين على مدى وسيط من الزمن . ومن هنا يتخذ المشروع الاجتماعى المكانة الأولى بين مختلف المشاريع – على الأقل فى

عصرنا الحديث - فهو يجمع بين اللا - مرحلية وبين الزمان البعيد بشكل معقول يبدو واقعيا . أى أنه يقع فى منزلة بين المنزلتين : أفضل وأعمق من مجرد البرنامج السياسى ، وأقل شمولا من الاهداف التاريخية بعيدة المدى والمنال .

ب) ثم يأتى « المشروع القومى » . وهو ، فى واقع الأمر ، مشروع شامل ، ينبع من القوى الحية فى مجتمع عند نقطة التهديد واستشعار غالبية المواطنين بأنه لابد من سياسة للانقاذ ، بل وتجديد الدم . أن الصفة المميزة للمشروع القومى هى أنه يتعدى الأرضية الاقتصادية - الاجتماعية وكذا السياسية للمشروع الأكثر إنتشارا ، أى المشروع الاجتماعى ، و يعمل على إعادة تشكيل الحياة الاجتماعية ، فى إطار الوطن بأسره وباسم جميع عناصره التكوينية وفئاته المتناقضة ، أنطلاقا من مبادىء عامة يلتف حولها الوطن ، سواء أكانت آنية ، أى مبادىء ثورة أو مقاومة أو تحرير ، أو تاريخية أيضا ، أى مستمدة من مسيرة طويلة تمثل الأزمة الآنية آخر مراحلها ، بما تطرحه من تحديات لا بد من مواجهتها لاستمرار المسيرة كمجتمع متعين متخصص ، أى كمجتمع قومى على أرض وطنه .

جـ) وأخيرا ، أو هكذا يتبدى أمامنا : « المشروع الحضارى » الفكرة وكذا التسمية تبدو وكأنها جديدة ، محدثة . مشروع شامل يجمع بين الخصوصية التاريخية وتحديات المرحلة الآنية والرؤية

المستقبلية . مشروع يضع فى المقام الأول علاقة ما هو قائم – الفرد والجماعة – مع مسيرة الزمان . مشروع يغلّب البعد الأعمق على المقتضيات المباشرة . مشروع يمت ، أو هكذا يبدو ، إلى فلسفة التاريخ ، أكثر مما يندرج فى إطاره المألوف ، بل والممكن . سوف نعرض فيما يلى لمقاوماته وأركانه . يكفى هنا أن نذكر أنه أحدث الانواع الثلاثة لفكرة المشروع ، ولم تبدأ الدعوة اليه ، فيما إستطعنا أن نعرض له من رسائل ، الا منذ وقت قصير ، وعلى وجه التحديد منذ ربيع ١٩٧٣ .

إن تشعب المشروع إلى هذه الأنواع الثلاثة ، فى تاريخنا المعاصر ، يدل على أن المشروع الاجتماعى ، وكذا المشروع القومى ، تسابقا منذ عصر الثورات الأوربية وموجات التحرر الوطنى في أرجاء الشرق الحضارى ، بينما المشروع الحضارى لم يظهر فى أفق علوم الانسان والاجتماع الا منذ سنوات قلائل حقيقة .

وقد ذهب مفكرو الغرب الصناعى إلى أن « المشروع الاجتماعى » هو الابداع السياسى والفكرى المتميز ، عندما نادى به نفر من قادة أوربا الغربية فى الستينات ، وكأن برامج الأحزاب الكبرى ، بل ومختلف المدارس التكوينية للفكر والعمل منذ عصر الثورات والتحرر ، كانت على غير ذلك ... ولكنها « الموجة الجديدة » التى أريد لها أن تكون تجديدية ، بل وريادية . وقد ترتب على

الهجوم الشامل ضد الفكرة القومية ، بفضل تسلط الفكر الصهيونى المعادى للقومية على علوم الانسان والاجتماع فى عصرنا ، أن تنزوى فكرة المشروع القومى ، رغم أن تحرير مختلف أقطار أوربا الغربية نفسها قام على أساس الجبهة الوطنية ، وبرامج حركة المقاومة الوطنية ، أى على أساس مشروع قومى متحقق فى التاريخ المعاصر على مرأى ومسمع الجميع . وعندما ظهرت المشاريع القومية فى الشرق الحضارى ، فى أمتنا العربية حول مصر ، فى الصين واليابان ، فى المكسيك والهند ، وأفريقيا السوداء (تانزانيا وغينيا على وجه التحديد) ، أسرع أعلام الفكر الاجتماعى والسياسى الغربى المعادى للقومية باتهام هذه المشاريع بأنها مشاريع متعصبة قوميا ، عنصرية ، هدامة .

هكذا ظلت فكرة المشروع محاصرة فى إطار الصراعات السياسية ، وقد تغلب عليها الطابع المتنكر للقومية ، فأصيبت هذه الفكرة بضربتين : العزلة فى قطاع الحركة السياسية الآتية من ناحية ، ثم الانقطاع التام عن علاقتها الجدلية التكوينية بعملية الابداع ، بوصف المشروع إطار السهم ، ساحة الممكن ، سياج المرتقب .

هكذا اختفت تدريجيا عن الأنظار امكانية تحقيق الابداع بشكل فعال ، من الناحية الاجتماعية التاريخية ، وتحول الابداع إلى اجتهادات متفردة ، تسلط عليها أضواء وسائل الاعلام ، حسبما

تراه دوائر الهيمنة الامبريالية والصهيونية المعادية لحرية الشعوب وتأكيد شخصيتها الحضارية والثقافية والقومية .

٥ - كيف ، إذن ، يمكن أن نعرف المشروع الحضارى ؟ وما هى قسماته المميزة ؟

أ) المشروع الحضارى يتميز عن النوعين الآخرين من المشروع بأنه مشروع شامل ، من حيث أنه يهدف بشكل صريح وواضح إلى أن يكون الاطار الأعم لكافة الخطط والمشروعات والمبادرات داخل مجتمع معين ، وفى أغلب الأحيان بالنسبة لعدد من المجتمعات القومية التى تشكل دائرة جيو - ثقافية ، بل وأحيانا بين عدد من هذه الدوائر الجيو - ثقافية ، فى قالب أعم هو القالب الحضارى الشامل ، أى قالب الشرق الحضارى ، أو قالب الغرب الحضارى . وهو شامل ، من ناحية أخرى ، من حيث أنه يجمع بين أطراف الزمان ، أطراف المسيرة الزمنية ، للمجتمعات المعنية منذ تكونها وحتى مستقبلها المرموق . فهو شامل بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وليس على وجه التعميم .

ب) جوهر المشروع الحضارى أنه يهدف إلى تحديد مكانة صاحب المشروع - أى مجموعة المجتمعات القومية أو المناطق الجيو - ثقافية - من المسيرة التاريخية للانسانية جمعاء أولا ، وللمجموعة المعنية على وجه التحديد ثانيا . أنه يطرح سؤالا : من نحن بالنسبة لحركة التاريخ التى نحن فى قلب عملية تشكيلها ، بشكل فعال ،

وبارادة ريادية واضحة ؟ ثم : كيف يمكن أن نصبح طرفا فعالا فى المبادرة التاريخية ، وهى تشمل بشكل تكوينى الريادة الفكرية والعلمية والفنية ابتداء من الريادة السياسية ، أى تشمل بشكل تكوينى جميع نواحى وأنواع الابداع ؟

جـ) وفى قلب هذه العملية كلها ، يعمل المشروع الحضارى على ادراك المسببات والعوامل التى صاغت ولا تزال تصـوغ مفهوم العالم فى نظر المجتمع إو المنطقة الجيو - ثقافية صاحبة الشأن . ومفهوم العالم يتشكل فى الأساس من ادراك حقيقة المكان بالنسبة للدوائر المحيطة ، وفى بعض الأحيان فى ادراك « عبقرية المكان » ، أى فى ادراك العلاقة بين الاطار الجغرافى - التاريخى ، فى دائرتية الداخلية المحلية والخارجية - الجيو - سياسية ، بالدوائر المحيطة التى منها يتكون العالم ، وهى رقعة ظلت محدودة تماما فى العصور القديمة ، ولم تتسع الا ببطء من خلال طفرات هى مراحل تكوّن الامبراطوريات حتى تشكل وعى « عالمية العالم » فى مطلع هذا القرن بفضل الكهرباء والمواصلات الحديثة ، الخ . أن مفهوم العالم مرتبط ارتباطا عضويا بتصور الزمان ، وهو تصور مغاير بين مختلف الاطارات الحضارية والدوائر الجيو - ثقافية القومية حسب الانظمة الفكرية والدينية والفلسفية التى تسودها : مفهوم العالم والزمان فى حضارة مصر الفرعونية ، وفى الأمة الاسلامية ، وفى القارة الصينية وفى المجتمعات الهندية فى أمريكا الوسطى

والجنوبية قبل سحقها ، الخ ، متخصص بينه وبين مفهوم العالم فى أوربا منذ عصر النهضة والثورات البورجوازية هوة شاسعة . ومن تفاعل مفهوم العالم وتصور الزمان مع عملية الجدلية الاجتماعية والصراعات الجيو - سياسية يتشكل تدريجيا مفهوم الانسان فى مختلف الدوائر الثقافية والقومية . وهنا يصبح لزاما على المشروع الحضارى أن يأخذ فى الاعتبار هذه العناصر التكوينية كلها لكى يستطيع صياغتها اطارا معقولا ومقبولا لانسان الغد فى المجتمعات المعنية .

د) تؤدى هذه الرؤية والمفاهيم إلى تحديد سلّم القيم ، السلّم المعيارى ، الذى سوف يحدد أسلوب التعامل داخل المجتمعات المعنية فى قلب مشروعها الحضارى ، توكيدا لمعانى الاستمرارية وكذا التغيير الممكن والمرغوب ، بما فى ذلك حدود وامكانات تعبئة الطاقات البشرية والمادية وكيفية المراس السياسى والمادى والعلمى - حدود ومواد كل ابداع ممكن . ومرة أخرى نلتقى هنا بمسألة التراثية ، بوصفها استمرارية أو قدرة على التجديد. أن سلم القيم ليس ارثا ثابتا ، جامدا ، لكنه هندام للتعامل مع الانسان والمجتمع والكون ، يتسع ليحتوى فى رحابه التطوير والتجديد واعادة التشكيل لملاءمة تحديات العصر التى تقتضى أولا وقبل كل شىء القدرة على التحرك الجزىء لتغيير الأرضية ، وبالتالى تغيير النتائج والوجهة ، مادامت الحركة والمبادرة الايجابية قانون الوجود المتجه

إلى مستقبل أكثرثراء وانسانية ، رغم كل التحديات . سلم القيم : من التصوف إلى العالمية ، من تقديس الأنا إلى الايمانية ، من سيادة الاخاء الاشتراكى إلى هيمنة قيم السوق . سلم القيم الذى يعطى لونه ونكهته إلى المشروع الحضارى المتميز .

هـ) فوق هذا وذاك وعبر عملية تشكيل المشروع الحضارى المرتقب بأسره ترفرف أعلام الحياة الفكرية والروحية المتميزة لعالمنا العربى . منبع الديانات ، وخاصة التوحيد ، عالم الايمانية حقيقة ، ومصدر الفلسفات الأولى التى منها تشكلت فلسفة يونان، بينما صيغت المدارس الفلسفية الأخرى للشرق الحضارى ابتداء من الصين ؛ وكذا المعمل – القالب التكوينى المرموق لفنون النحت والعمارة والتصوير ، وفوق هذا وذاك الكتابة ، التى اتسمت كلها بعمق النظرة إلى ما يتعدى الرؤية المباشرة ، دور العين أداة للعيان ، بل وامتداد هذا الاسهام الى حد أنه دفع بعض المتعجلين ، وخاصة المستشرقين فى الغرب ، الى الادعاء بأن العقل للغرب ، والعيان والحس للشرق . هذه الرقعة الجبارة ، هذا الطابع الشامل ، هذه الموجة العارمة التى لونت اسهامات شرقنا العربى منذ أقدم الأزمنة حتى اليوم ، لا بد وأن تلعب دورا مركزيا فى تشكيل المشروع الحضارى العربى المرتقب ، فهو مشروع سوف يقوم على منح التعالى – الايمانية ، الدين والفلسفة ، المنطق العيانى فى قلب الفكر

النقدى ، الاهتمام بالهندام الجمالى فى قلب البناء والانتاج - دورا مركزيا حقيقيا فى البناء كله .

و) ثم تأتى مسألة الأداة : الفرد أو الجماعة : وبين هذين الطرفين مكانة الدولة ، أى مقام السلطة الاجتماعية . أن مفهوم الدولة بوصفها مركزاً ومقاماً وأداة السلطة الاجتماعية في مجتمع معين ، يلعب دورا مركزيا فى الربط بين المبادرة ، أى الابداع ، وبين الاطار المحيط ، إطار الممكنات بما تيسر من فتحات تشجع على التحرك بل والفتح الريادى بعيد المدى ، وكذا بما تحتويه من ضوابط وموانع كثيرا ما تعوق الابداع . ولا شك أن هذا البعد ، بعد الدولة ، يلعب دورا أكثر أهمية بكثير فى عصرنا مما كانت عليه الحال فى العصور الماضية نظرا لوسائل المرحلة الثانية للثورة الصناعية ، مرحلة الثورة العلمية والتكنولوجية ، وسيطرة وسائل الاعلام والالكترونيات ، وأكثر من هذا وذاك ، ممارسة الدولة المعاصرة ، منذ الثلاثينات ، لدور مركزى متزايد فى مجالات الاقتصاد والثقافة ، بالاضافة إلى دورها المركزى فى مجال الحكم السياسى .

من هذه العناصر ، إذن ، يتكون الهيكل العملى لتشكيل المشروع الحضارى .

ولكنما جوهر المشروع الحضارى لا يختلط بالضرورة مع هذا

الجهاز التكوينى العملى ، بل أنه يشكل مجـــالا متميزا ، نعرض له الآن .

٦ - كيف يمكن إذن أن نتصور جوهر المشروع الحضارى العربى ؟ .

ذكرنا ، فيما سبق ، العناصر التكوينية للمشروع الحضارى ، لكل مشروع حضارى ممكن فى « علاقته العضوية بعملية الابداع والريادة . المسألة أذن ليست مسألة إجرائية ولكنما هى مسألة توضيح المضمون الممكن للمشروع الحضاوى العربى فى عصونا .

الذى فى إطاره ، وفى إطاره وحده ، يمكن أن تنطلق موجات الابداع ، وحركة الريادة لتحقيق المستقبل المرتقب .

١) المشروع الحضارى العربى المرتقب يتسم ، فى المقام الأول ، بقدرة نادرة على تعبئة طاقات الاستمرارية الحضارية عبر التاريخ : ذلك أن أمتنا العربية تجمع بين أنواع مختلفة من المجتمعات القومية فى نطاق مجموعة الدول الوطنية المستقلة التى منها تتكون هذه الأمة . وهذه المجتمعات تتكون فى الأساس من عدد من المجتمعات التي تمتّ بدورها إلى أعماق التاريخ الحضارى أو بشكل يبدو أكثر تشعبا وتقطعا وأن كان على كل حال قادرا على الافادة من هذه الجذور ، وهى الحالة القائمة فى معظم الأقطار العربية ، واما من مجتمعات لها اتصال حضارى مرموق ، وأن كان

أقل قدما من مصر ، كما هو فى المغرب خاصة . جملة القول : أن هذه القدرة على التعبئة ، بالاضافة إلى نمو المعدل السكانى الديموغرافى ، تكون أساسا ركيزة أيجابية إلى أبعد درجة لظهور موجة من الشباب المرتبط بالخصوصية التاريخية وأن كان ملتفتا بطبيعة الأمر إلى ضرورة مواجهة التحدى .

ب) أن القسمة المميزة الثانية للمشروع الحضارى العربى الممكن تكمن فى هيمنة معانى الوحدة على معانى الفرقة ، أى أولوية كل ما يجمع على كل ما يمزق ، بما فى ذلك من عوائق ، ما دام التطور يتم بطريقة جدلية عبر التاريخ . لا بد هنا من وقفة سريعة للتمعن فى أسباب هذه الوحدة المؤسسية . وباختصار شديد يمكن أن نقول أن أهم ، وكذا معظم ، مجتمعاتنا العربية تمت إلى نمط المجتمعات المائية الزراعية التى اضطرتها الظروف المناخية إلى أقامة اقتصاد يرتكز على السيطرة على المياه ، مياه الأنهار ، دون الافادة من الأمطار الطبيعية . ومن هنا ظهرت الحاجة إلى سلطة مركزية موحدة ، تنظم المياه والسدود والرى والصرف . ومن هنا أيضا كان ازدهار الزراعة ومعانى الحياة المتحضرة فى معظم أنحاء هذه المنطقة ، وخاصة فى وادى النيل وبين الرافدين . ومن هنا ، وبشكل مباشر ، أصبحت هذه المنطقة محور الغزوات المتتالية والضرب المركز منذ العصور القديمة وعبر موجات الغزو الحضارى

والاستعمار التقليدى والامبريالية والصهيونية ، بحيث أصبحت اكثر المناطق الجيو- سياسية ، والجيو- استراتيجية خطورة فى العالم بأسره . وقد أكدت هذه الأوضاع ، وتشابكها العضوى ، ضرورة إقامة الوحدة ، سدا منيعا فى مواجة الغزو ، وتوكيدا لاصرار شعوب هذه المجتمعات على الاستمرارية واسترداد معانى الثراء الحيوى الذى تمتعت به أجيالا وأجيالا قبل انكسار القرن الخامس عشر .

وهنا يجدر بنا أن نذكر أن هذه الحالة ليست متفردة ، اذ أننا نشـهدها أيضا فى معظم الدوائر الثقافية الكبرى لحضارات الشرق ، فى فارس ، والهند ، شمالا وجنوبا ، والصين ، وفيتنام ، وكذا فى المناطق الخصبة من أفريقيا السوداء . ولكنما تربة الاشكالية هى التى تميز هذه الحالة حقيقة فى المنطقة العربية على وجه التحديد ، فى وادى النيل وفى منطقة ما بين الرافدين .

ومعنى هذا أن المشروع الحضارى المرتقب سوف يقدم دوما معانى التضامن على معانى التمزق ، معانى وقيم الجماعة على نهج الانفرادية والانزواء والتنكر للغير ، أى ، فى كلمة ، معانى التضامن والتآخى والتعاون والمشاركة والعدالة الاجتماعية والنهج الاشتراكى على معانى الفرقة والتفرد والعزلة والصراعات الداخلية ، وان كانت هذه الأخيرة جزءا لا يتجزأ من الجدلية الاجتماعية عبر مسيرة التاريخ .

(جـ) تتميز القسمة المميزة الثالثة للمشروع الحضارى بسيادة النهج الاستراتيجى ، أى التاريخ البعيد ، على الاسلوب التكتيكى ، أى الانجاز المتعجل ، قصير المدى ، رغم بريقه وألمعيته . ومن هنا اتسمت حضارات الشرق العربى ، وسوف يتسم مشروعنا الحضارى المرتقب ، بالحرص على أن تكون الريادة جزءا لا يتجزأ من الاستمرارية ، أى أن تكون الريادة والتجديد والإبداع بمثابة المقدمة المرتبطة عضويا بعموم العملية ، الطليعية المعترف بها من الجسم الاجتماعى كله أو معظمه ، لا أن تتحرك هذه الطلائع الريادية الابداعية وكأنها بمعزل عما تتحدث باسمه ، وكأنما الريادة هى تفرد والابداع بدعة ، ومن هنا سوف يلعب الابداع فى قلب المشروع الحضارى العربى المرتقب دورا مختلفا عنه فى المجتمعات الغربية الصناعية ، وخاصة فى مرحلة أزمتها الحضارية الحالية . ليس الهدف هو ارتكاب ما هو مغاير ، ولكنه حقيقة فتح مسالك جديدة معترف بها فى معظم الجسم الاجتماعى بحيث تصبح هذه الفتحات ثغرات يمكن أن تنطلق من خلالها موجات الفعل والعمل المؤثر حقيقة على المدى البعيد - لأن هذه المواكبة وذلك الارتباط العضوى بين المقدمة ومعظم الجسم الاجتماعى تؤثر لا مفر على معدل سرعة التحرك ، مما يؤدى إلى نوع من الشعور بأن الأمور أكثر بطأ مما هو منتظر ، وعلى كل حال مغايرة تماما لما يراه

مثقفو وفنانو العرب فى عواصم المجتمعات الصناعية البراقة قبل أن يمعنوا النظر فى جذورها العميقة بعيدا عن الأضواء .

(د) إن القسمة المميزة الرابعة للمشروع الحضارى العربى المرتقب ترتكز على القسمات المميزة الثلاث التى ذكرناها بشكل مبدئى ، فيما سبق . بناء كبير ، راسخ الأركان ، حريص التحرك ، يقبل الابداع والريادة فى إطار الاستمرارية وامتدادا لها فى قلب حصار ضار لا هوادة فيه . صورة تحتاج إلى التأمين والمتانة . ومن هنا كان مقام مركز السلطة الاجتماعية فى المشروع الحضارى كله : ليس جهازا للسطو والسيطرة باسم أقلية ، ولكنما بوتقة لتعبئة الامكانات والطاقات والروافد التى تقدمها مختلف المدارس التكوينية للفكر والعمل القومى ، من زواياها المختلفة . دولة «المدينة الفاضلة» حقيقة . لولاها لا يستطيع المشروع الحضارى المرتقب أن يحقق الظروف المواتية لإنطلاق الابداع وضمان الاستمرارية فى قلب عالم متقلب .

٧ – حاولنا ، فى النقاط السابقة ، أن نقدم تصورا للعلاقة بين الابداع العربى من ناحية ، وبين الاطار الأعم الذى يتحرك فيه هذا الابداع وينطلق منه ، ألا وهو المشروع الحضارى العربى المرتقب . وقد جاء هذا العرض المقتضب الأولى بكل معانى الكلمة ، مليئا بالاشارات إلى التساؤلات والتناقضات والقضايا غير المحلولة . أى

أن كشف الحساب هو فى الواقع تقديم جدلية اشكالية الابداع فى عالمنا العربى ، وتنقيب عـلاقته العضوية بالمشـروع الحضـارى الشـامل .

ولا شك أن منطقة التناقض ، ولا نقول الصدام ، الرئيسية ، هى تلك التى تحدد فى نطاق الخصوصية والتمايز . إن خصوصية الأمة العربية ، وفى داخلها خصوصية عدد من المجتمعات القومية الرئيسية بها ، وخاصة مصر والمغرب ، تكاد تحدد مجال التحرك الممكن بسياج من حديد ، وإن بدا شفافا لمن مارسه من الداخل مراسا حياتيا . إن التمايز ، والتمايز ضرورى بالنسبة لكل حركة ابداع ، حيوى بالنسبة لكل صاحب ابداع ، يبدو ممكنا ، وليس فقط ضروريا ، وإن كان يتحرك فى إطار خصوصية تتصف بالمركزية إلى درجة بعيدة جدا ، وتتصف كذلك بالحرص كل الحرص على الإبقاء على هذه الاستمرارية بواسطة الوحدة الوطنية المطلقة . كيف يمكن اذن للمفكر والفنان والعالم المبدع أن ينطلق ؟ إنها اشكالية التناقض التقليدى بين المثقف والدولة ، وهى إشكالية حقيقية وأن جاءت إلينا بصورة مبالغ فيها على أساس عصر الفردية فى الفكر الغربى ، منذ إنطلاق الثورات البورجوازية ثم انقسام الغرب بين النظامين الاشتراكى والليبرالى ، وما ترتب على ذلك من تصعيد للتناقضات والصراع الفكرى .

لكن القضية قائمة ولا شك ، تؤرق بال الباحثين وتشكل عقبة غير هينة أمام الساعين للتجديد . ومن ناحية أخرى فإن حركة الابداع والتجديد قائمة على قدم وساق ، في كافة المجالات ، وإن كانت تتسم باستمرار الحرص على التلاقي مع السواد الأعظم من الحاسة الشعبية والاستمرارية الاجتماعية ، مختلفة في ذلك عن مثيلاتها في دول المغرب الصناعي الرأسمالي الليبرالي - وإن كانت لا تختلف عما نراه في معظم مجتمعات الشرق الحضاري ، على اختلاف أنظمته الاجتماعية ، في اليابان والصين ، في الهند وأفريقيا ، وأجزاء هامة من أمريكا اللاتينية . ومن هنا وجب الاشارة إلى أن هذه الاشكالية ليست اشكالية منع بقدر ما هي اشكالية تحرك ابداعي وريادي متخصص ، يمكن أن ينطلق ، وهو ينطلق بالفعل ، في قنوات تنتظره ، بل وتتوحد به في أحيان كثيرة ، مادام هو لا يتنكر لها .

نقطة ثانية لا تقل أهمية في هذا المجال ألا وهي موضوع فاعلية الابداع في مجتمعاتنا .

لعل تحديد نوعية الإجابة في هذا الصدد أيسر مما هي عليه بالنسبة للقضية الأولى . ذلك أنه من الواضح ، على أساس ما عرضنا له ، إن هذه الفاعلية ، فاعلية الابداع والريادة ، تتحقق في الواقع في ارتباطها العضوي بالمشروع الحضاري ، وعبر هذا

المشروع ، بوصفها الرأس المنقبة الطليعية لتحقيق المشروع . أى أن الابداع المتفرد ، المنعزل عن أرضية تشكل وتحرك المشروع الحضارى يصعب عليه أن يؤتى ثمارا فعالة ، بل ومن الممكن أن يؤدى إلى تضييق المجال أمام أصحابه .

***

أسماء كثيرة ، أمثلة رائعة مرموقة تتسابق لتشكل تصور الابداع الممكن التحقيق ، الابداع الفعال ، الابداع الفاتح .

فلو حصرنا الأمر على إنتقاء هذه الأمثلة داخل مجتمع واحد من مجتمعات أمتنا العربية فى مصر على وجه التحديد ، لطال السرد . دولة محمد على أولى الدول من حيث المزج بين رجال الفكر والسلاح فى الشرق الحضارى بأسره ، ستون عاما قبل دولة « ميجى » فى اليابان . ريادة الشيخ رفاعة الطهطاوى فى تكوين فلسفة الثقافة الوطنية وكذا تكوين كوادر الدولة الصناعية والحربية الجديدة . تحرك إبراهيم باشا من مصر إلى مركز الخلافة الإسلامية فى القسطنطينية عبر المسيرة العربية . الريادة الابداعية الخالدة لعبد الله النديم خطيب الثورة فى سنوات المنفى الداخلى . أحمد شوقى ، الرائد المبدع للشعر العربى المعاصر ، ثم جيل الحب والوفاء حول صلاح عبد الصبور ووفاته . سيد درويش ، العاشق الهائم لروح وطنه ، المبدع المجدد لموسيقانا العربية

العصرية الشعبية معا . محمود مختار ومدرسته وخلفاؤه ، جمال السجينى ، حامد عبد الله ، آدم حنين ، وغيرهم . الريادة القصصية ، والمسرحية على أيدى يوسف إدريس وتوفيق الحكيم ، نجيب محفوظ وعبد الله الشرقاوى ، ثم الجيل الجديد من كتاب القصة فى بلادنا بعد حرب أكتوبر . تجديد فنون الحرب ، استراتيجيا وتكتيكيا ، عبر حروب مصر العربية الست فى سيناء وعلى القنال ، وكذا فى اليمن . تجديد النظرة إلى الفلسفة على أيدى مصطفى عبد الرازق ، وفلسفة تاريخ الشخصية المصرية بفضل جمال حمدان وصبحي وحيدة وحسين فوزى وصحبهم . تجديد المعمار على أيدى حسن فتحي ، والصياغة السينمائية بفضل جيل كبير ، شادي عبد السلام، صلاح أبو سيف ، ومن واكبهما . وماذا نقول عن الابداع التراثي العصرى معا لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب في شبابه ؟ أمثلة بين عشرات ، مئات ، من الأمثلة - فى إحياء العلوم والتاريخ والتكنولوجيا وعلم المصريات ، الرياضة والذرة - أعلام يشهدون على حركة تدور فى أعماق الأمة ، فى صمت وإصرار لم نذكر منها إلا نفر قليل من أعلام الآدب والفنون فقط . ولو أردنا هنا توسيع المجال إلى أرجاء أمتنا العربية ، منذ مشارف العصر الحديث باسم ابن خلدون والفارابى وابن سينا وابن رشد ، علامة لأجيال من علماء الرياضيات والطبيعة والطب وفنون العمارة والحياة، حتى أولئك

الذين فتحوا أبواب العصر ، لطالت قائمةالريادة والابداع والعمل الطليعي صفحة تلو صفحة . ولا شك أننا سوف نلقي هذه الأسماء الكريمة في بحوث مواكبة وهي على كل حال ماثلة في الأذهان والوجدان .

قائمة تطول مادام الاجتهاد قائما ، والمشروع الحضاري مطروحا على الأقل كفرض وواجب قومي ، والوحدة الوطنية مؤكدة تجمع بين بنات أمتنا وأبنائها ، بين رجال الفكر والسلاح ، منحى العيان والفن ، ومنهج العقل والعلوم .

معا إذن على طريق واحد ، نتعلم فيه من بعضنا بعضا ، إثراء لما ورثناه من إمكانات حضارية هائلة ، وتحديا لما يحاصرنا من صعاب وتهديدات لا بد وأن نقتحمها .

ولو قيل : ليس أمامنا إلا هذا الخيار ، لقلنا : لم لا ؟ فهل من إبداع دون بذل وصراع وعطاء ؟

الفصل السادس

الوجهة الحضارية للفكر
السياسى العربى المعاصر

- رسائل -

« إلى أرواح شهداء امتنا العربية فى حروب التحـرير والحركات الثورية - مادام « إن الشرف والمجد ملك لله وحده »

(مانويل دى فاليا ، موسيقار اسـبانيا والأندلس)

- ١ -

كاد الرأى يستقر حول التكون التاريخى للفكر السياسى العربى المعاصر ، وكذا فيما يتعلق بتركيبه الداخلى .

لقد بينا منذ ١٩٦٢ ، وخاصة فى رسالة ١٩٦٤ ، الأركان الرئيسية لهذا الموضوع .

١ - ١ وضع المسألة ، أولا ، ومن ثم تكون اشكالية الفكر العربى المعاصر . كان التساؤل منذ مطلع القرن التاسع عشر ، بل ومنذ طلائع التحرك الوطني فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، فى مصر أيام على بك الكبير ، هو لِمَ الانحدار ؟ وما السبيل إلى النهضة ؟ .

كان الاقتحام المسلح تحت ألوية « الحملة الفرنسية » بقيادة بونابرت ، لأراضى مصر المحروسة عام ١٨٧٨ ، وكذا الصراع بين جيش الاحتلال الفرنسى وأسطوله من ناحية ، وبين الأسطول البريطاني للسيطرة على مفتاح البحر الأبيض المتوسط ، ومن ثم طريق الهند ، بمثابة ناقوس الخطر ، وكذا أول صدمة للركود المصرى والاسلامى فى البلاد العربية ، بعد أن عزلتها حركة الاكتشافات البحرية عن دور الجسر فى التجارة العالمية بين الغرب والشرق ، وهو الأمر الذى أكدته هيمنة الخلافة العثمانية العقيمة منذ

احتلال مصر على أيدى سليم الأول حتى احتلالها ثانية على أيدى بونابرت . عالم جديد يجمع بين الفكر والسلاح ، بين مبادىء الثورة البورجوازية وتكنولوجيا التكتيك الحربى فى مطلع عصر الثورة الصناعية ، التى لم تعشها فرنسا آنذاك ، مع جمع من الأفكار والآراء والنظريات والمذاهب تمت إلى العلمانية والفكر العلمى وأيديولوجية التقدم ، أى فى كلمة : المشروع الحضارى الغربى فى أوج تأججه .

١ - ٢ وأمام هذه الصدمة ، وابتداء من طرح الاشكالية على هذا النحو الثنائى ، بدأ الفكر المصرى ، ثم العربى الاسلامى ، يتشكل تدريجيا ، عبر نصف قرن ، فى اتجاهين تكوينيين ، أراد المستشرقون أن يطلقوا عليهما تسمية « التجديد الاسلامى » ، ولكننا حددنا تسميتها العلمية بشكل دقيق على أنهما : إتجاه « التحديث الليبرالى » ثم إتجاه « الأصولية الاسلامية » .

١ - ٣ تكوّن اتجاه « التحديث الليبرالى » ، إبتداء من تنظيم دولة مصر فى ١٨٢٦ حول الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى وصحبه من قيادات الفكر والعمل فى دولة محمد على ، ثم إسماعيل ، على أساس أن الاجابة عن السؤال الأول ، سؤال الانحدار ، إنما هو بالقول إننا انحدرنا لأننا لم نمارس عصر الثورات العلمية والصناعية والسياسية . ومن ثم فان مفتاح النهضة إنما يكون بأن

نعايش هذا العصر بكل معطياته ، وان كانت هذه المعايشة معايشة نقدية ، لأننا ننتقى ما يفيدنا ، ونرفض مالا يتفق مع شخصيتنا ، مع ما أسميناه فيما بعد : الخصوصية المصرية - العربية - الاسلامية . إن هذا الفرز النقدى واضح تماما ، ليس فقط فى كتاب الشيخ رفاعة الأول « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، الذى يتغنى به دوما أنصار الموجة الغربية اليوم ، دون إدراك معانيه النقدية المرهفة ، بل فى الأساس فى مجموع أعمال الشيخ رفاعة ، مكوّن جهاز الدولة فى مصر ، ورائد الثقافة الوطنية بها ، وأول من نادى بمعانى الاشتراكية كما تجلى ذلك بوضوح ساطع فى آخر كتاباته وأرفعها مكانة ، ألا وهو « مناهج الألباب المصرية » .

١ - ٤ وإذا كان تكوّن إتجاه « التحديث الليبرالى » يرجع إلى مرحلة ١٨٢٦ - ١٨٤٠ ، فإن تكوّن الإتجاه الثانى ، إتجاه «الاصولية الاسلامية » ، يرجع إلى مرحلة إنحدار الدولة المصرية تحت ضربات العصابات المالية الأوربية بعد عهد سعيد ، وفى نهاية عصر الخديوى إسماعيل ، وخاصة مرحلة إقالته عام ١٨٧٩ ، حتى احتلال مصر بالسلاح ، وكان بريطانيا هذه المرة ، عام ١٨٨٢ . كان الجواب عن السؤال الأول : لقد انحدر العالم العربى الاسلامى لأنه ابتعد عن الأصول التكوينية لتراثه القومى الثقافى ، أى الاسلام الحنيف ، وما أضافته عصور الاستبداد وخاصة أثناء

الخلافة العثمانية ، من معان وتقاليد محرفة بالية ومن ثم فان تعدى الهوان والانحدار إنما يكون بالعودة إلى أصول الاسلام الحنيف ، روحا قبل أن يكون ذلك نصا ، كما أكده رائدا هذه الدعوة : جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده .

١ - ٥ وقد بينا بوضوح أن كلا من هذين الاتجاهين - أو ، بوجه أدق ، كلا من هاتين المدرستين التكوينيتين للفكر والعمل فى مصر والعالم العربى والاسلامى - تشعب خلال النصف قرن التالى إلى شعبتين ، تحت ضربات الاستعمار والاحتلال ، وتحديات حركات التحرر والتقدم الاجتماعى - السياسى : شعبة تقليدية محافظة ، وشعبة راديكالية ثورية .

أ) أما أتجاه " التحديث الليبرالى " فقد تشعب إلى شعبة تقليدية محافظة ، ألا وهى أحزاب البورجوازيات فى مصر والعالم العربى ، بأحزابها وهيئاتها المختلفة ، وهى التى عجزت عن مواجهة مهام مرحلة التحرر والديمقراطية الواسعة ، خاصة بعد أن تولي عدد من قادتها ، فى يمين الوفد ، وكذا فى أحزاب اليمين الرأسمالى فى مصر ، تصفية الجيل الجديد من الطلائع الشابة الوطنية المتقدمة . ثم ظهرت شعبة راديكالية ثورية ، اتجهت إلى الشعب العامل فى الريف والمدن على السواء ، ومنها بدأت الحركة الاشتراكية ، والتقدمية ، والشيوعية الوطنية ، خاصة فى مصر منذ ١٩٢٠ ،

وسرعان ماحاصرتها القوى المحافظة الرجعية من نفس الإتجاه لاجهاضها واستنزافها ، بينما حاولت القوى الصهيونية أن تتغلغل اليها المرة تلو المرة اللاقومية والأممية وشمول أيديولوجية التقدم والتنمية وأولويتها بالنسبة للقضية الوطنية ومقتضياتها ، وهى القوى التى لاقت حتفها فى اليسار المصرى بقيادة حسنى العرابى بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠ ثم شهدى عطية الشافعي بين ١٩٤٧ و ١٩٥٢ .

ب) وكذا تشعب اتجاه " الأصولية الاسلامية " إلى شعبة محافظة رجعية ، أتخذت فى الأساس وجه السلفية الوهابية فى الجزيرة العربية ، وأيضا وجه الجماعات الدينية وأهمها " الاخوان المسلمون " رغم قاعدتهم الشعبية الواسعة ، رافعة شعار الدولة الدينية بوصفه مفتاح المفاتيح . وفى مقابل هذه الشعبة ، ظهرت شعبة راديكالية ثورية ، اتجهت بشكل واضح نحو الاسلام السياسى ، خاصة فى أحزاب " مصر الفتاة " " والحزب الوطني الجديد " ، وفوق هذا وذاك فى الفلسفة السياسية والتنظيمية القومية الشمـولية لهيئة " الضباط الأحرار" .

إن عملية التشعب هذه تمت حول صدمات الأزمة الاقتصـادية العالمية بين ١٩٢٩ و١٩٣٢ وتفاقمت ابتداء من تأجج الحركات الثورية فى مصر والعالم العربى التى تلت هذه الأزمة منذ ١٩٣٥ حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وماواكبها من حروب تحرير وثورات في معظم الأقطار والدول العربية .

١ – ٦ وعندما تركزت السلطة بين أيدى " الضباط الأحرار " فى مصر إبتداء من ٢٣ يوليو١٩٥٢ وخاصة فى ربيع ١٩٥٤ ، بقيادة جمال عبد الناصر ، بدأ التفاعل الجدلى العميق يتقدم ، ولكن ليس بين الاتجاهين التكوينيين للفكر والعمل السياسى العربى المعاصر فى حد ذاته . ذلك – ونحن هنا نركز علي مصر –أن الشعبتين المحافظتين الرجعيتين لكل من الاتجاهين الرئيسيين ، أى أحزاب البورجوازية المصرية بقيادة « الوفد المصرى » حول فؤاد سراج الدين آنذاك ، وكذا جماعة «الاخوان المسلمون » حول الشيخ حسن البنا ، تنكرتا لثورة يوليو ١٩٥٢ ، منتظرة اللحظة التاريخية التي سوف تمكنها ، على ماكانت تعتقد ، من استرداد مفتاح المبادرة السياسية . ولكنما الصراع تحدد ، وارتفع مستواه ، بحدة غير مرتقبة ، بين الشعبتين الراديكاليتين الثوريتين لكل من اتجاهى التحديث الليبرالى والأصولية الاسلامية ، أى القوى التقدمية الاشتراكية من ناحية ، وقيادة الثورة باسم « الضباط الأحرار » من ناحية أخرى ، وهما الشعبتان اللتان اختارتا الثورة طريقا للنهضة .واستطاعت قوى الظلام – فى الخارج والداخل معا – أن تقيم الخلاف بينهما ، وتقيم تلك « الحرب فى الظلام » التى اســـتنزفت طاقت مصر فى الداخل والخارج معا عبر ثلاثين عاما إلى درجة هزت أركان العالم العربى والاسلامى ، بل ونهضة شعوب الشرق رغم باندونج .

التحليل قائم ، وقد أصبح الآن جزءا تكوينيا من معظم الكتابات والاتجاهات الفكرية والسياسية المعنية بمصر والعالم العربي والاسلامي ، مع إضافات وتعديلات هنا وهناك حسب الظروف والخصوصيات وأسلوب العمل الاجتماعي - السياسي ، بطبيعة الأمر .

بقي أن نتساءل : أين نحن من هذا التحليل ؟ أين الفكر السياسي العربي المعاصر من قاعدة انطلاقه هذه ؟

- ٢ -

كان لابد أن نبدأ من هذه المقدمات - وهى القاعدة الركنية لكل تحليل فى هـذا المجال ، يقوم على أساس الجدية والواقعية معا .

ولكنما تضاعف الصعاب ، واشتداد المعركة الدولية ، واحكام الحصار الجيو - سياسى للعالم العربى ، واحتلال الدولة الصهيونية دور المركز للهجوم الاستراتيجى الحضارى المضاد الشامل ضد العالم العربى ، خاصة بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وتفجير سلاح البترول ، ثم الثورة الإيرانية ، ادخلت إلى ساحة الفكر السياسى العربى المعاصر عناصر جديدة ، ومؤثرات تكوينية أثرت عليه فى الأعماق ، وجعلت لزاما علينا أن نرصدها مادمنا بصدد تبين وجهة الجديد فى الفكر السياسى العربى المعاصر فى نهاية القرن العشرين وبدايات القرن التالى .

وقبل أن نبدأ فى تلخيص أهم المحاور الاتجاهية التى تشكل وجهة التجديد فى الفكر السياسى العربى المعاصر ، وجب علينا أن نلخص المؤثرات التى لعبت دورا فعالاً فى هذه العملية :

أ) كان العامل الأول هو إنكسار يونيو ١٩٦٧ ، أى إنكسار أهم دولة تملك القوى المسلحة والاقتصادية الفعالة فى العالم العربى

بقيادة جمال عبد الناصر فى حرب « الأيام الست » السوداء . ان المتأمل لهذه المرحلة ليدرك بوضوح أن هذا الانكسار لم يكن فقط بدءاً لنهاية قيادة جمال عبد الناصر لحركة الوحدة العربية وتحقيق حلم الدولة العربية الموحدة ، وأنما أثر بشكل مباشر على الحد من الاتجاه التقدمى الثورى فى معظم أقطار الأمة العربية ، رغم حدوث عدد من التحركات الثورية هنا وهناك ، ظلت عاجزة تماما عن أن تقدم البديل المؤثر بعد ضربة ١٩٦٧ .

ب) ثم كانت حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، بماكان لها من مغزى حضارى بالغ : فقد حولت البترول من سلعة إلى سلاح ، وحركت العالم الأسلامى الأفريقى الآسيوى من المغرب إلى بحر الصين فى أعماقه ، بحيث أصبح من الواجب اجهاضها ، بعد توقف التحرك العسكرى . وقد تم هذا فى اتفاقية كامب ديفيد المشئومة عام ١٩٧٨ ابتداء من الخلط بين اجماع شعب مصر على وقف الحرب من ناحية وبين اجماعه المتشدد المبدئى الذى لارجعة عنه ، لرفض كل تطبيع مع العدو الصهيونى ، وكذا نبذ الدعوة إلى الأنفضاض عن الدائرة العربية ، الإسلامية ، الشرقية ، أى التنكر ل " فلسفة الثورة " التى أرست قواعد المشروع الوطنى ، القومى ، وكذا المشروع الحضارى بالتفاعل مع مبادىء باندونج الخمسة ، بحيث أصبحت " ميثاقا وطنيا " بمعنى الكلمة لشعب مصر والأمة العربية جمعاء . وقد جرحت اتفاقية كامب دافيد الكرامة الوطنية والقومية والحضارية

المصرية العربية الإسلامية الشرقية فى أعماقها ، حتى كانت مأساة ١٩٨١ ، التى أدمت كافة القوى السياسية وكافة المدارس التكوينية للفكر والعمل فى مصر ، وانتهت بمقتل رئيس مصر لأول مرة فى تاريخها السبع ألفى يوم ٦ اكتوبر ١٩٨١ .

ج) وقد ترتب على هذا التوغل الصهيونى ، باسم السلام ، والاصرار على فرض " التطبيع " أن قامت ثورة ايران الوطنية الشامخة بقيادة الاسلام السياسى الشيعى حول الأمام الخمينى وصحبه ، لتفكيك أقوى دولة تمثل الموجة الغربية على أرض الشرق الاسلامى آنذاك . أى أن الثورة الاسلامية فى ايران جاءت ، موضوعيا ،ردا على الموقف فى مصر ، وكأنما الهدف هو محاصرة التوغل الغربى - الصهيونى ، ووقف الموجة الغربية ،والعودة إلى الأصول . أو هكذا فى بادىء الأمر . وسرعان ما اتجهت الثورة الاسلامية فى ايران إلى أن تقدم بديلا للدولة الوطنية التى لم تتواجد منذ قرنين ، بحيث أصبح ممثلو الاسلام السياسى الشيعى هم ، فى آن واحد ، الدولة الوطنية المستقلة الايرانية المرتقبة . من هنا بدأ اللبس ، بين مكانة الاسلام الحضارى ، وأثره السياسى ، وهو أمر قائم ومبدئى وإيجابى فى عموم الاطار الحضارى الاسلامى الافريقى - الآسيوى وأمتنا العربية فى قلبه ، وبين الانتقال المتعجل من الأصوليةالاسلامية إلى ممارسة سلفية ، إلى

هيمنة الدين هيمنة كاملة على كافة مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في دولة كبيرة ، شقيقة ، عزيزة لها وزنهافى المنطقة ، وفى العالم أيضاً .

د) وخلال هذه المرحلة ، بدأت أركان الهجمة الحضارية المضادة الشاملة للغرب والصهيونية ضد الأمة العربية والعالم الاسلامى تعد العدة لتفكيك شمل الأمة العربية بإثارة الحروب بين مختلف الدول ، وتصعيد الأزمات والمصاعب بينها دون هوادة وتدبير الحرب الأهلية فى الكثير من المناسبات ، وخاصة فى لبنان الشهيد، وتمزيق شمل شعب فلسطين ومطاردته من منفى إلى منفى دون هوادة ولا رحمة . وفوق هذا وذاك ، محاولة حصار مصر بقصد تحقيق « احتجابها » - بغية القضاء على فاعلية التحرك العربى ، مادام قلبه قد أصيب فى الأعماق وحوصر ، وأبعد من مكان الفاعلية والمبادرة التاريخية . أو هكذا تصورت هذه الاركان ورجالها فى الداخل .

مرحلة التحول اذن ، أو ، بوجه أدق ، مرحلة تشكل وجهة التجديد في الفكر السياسى العربى المعاصر أنما هى مرحلة ١٩٦٧إلى ١٩٧٩ ، من الناحية العربية الداخلية المتخصصة .

وقد واكبت هذه المرحلة مرحلة أخرى ، أشد خطورة وهى مرحلة استقطاب العوامل والعناصر التكوينية لتغيير ميزان القوى فى العالم ، توطئة لتشكيل نظام عالمى جديد كعملية تاريخية غاية فى

التعقيد ، تمتد عبر عشرات السنين . إنها المرحلة التى بدأت ، على وجه التحديد ، بين تحرير الصين تحت لواء الاشتراكية فى أكتوبر ١٩٤٩ ، وبين أكتوبر على أرضنا العربية .

هـ) دائرتان اذن : الدائرة الكبرى تغير ميزان القوى العالمى ، من ١٩٤٩ إلى ١٩٧٣ ، ثم دائرة الانكسار وبدء الانبعاث - الاسلامى في العالم العربى والاسلامى ، بين يونيو ١٩٦٧ وخريف ١٩٧٩ .

يرتفع الستار اذن عن عملية التغير وتشكل محاور التحرك ، ابتداء من التفاعل الجدلي بين هاتين الدائرتين - وأمتنا العربية فى قلبها .

– ٣–

محور المضمون الحركى

كان للوثبة العربية ، وخاصة لحروب التحرير ، والحروب ضد الصهيونية ، والحروب المواكبة لها مساندة للتحرك الوحدوى والاستراتيجي العام ، أثر بالغ فى تنمية الروح الثورية ، وكافة الأيديولوجيات الثورية ، وقد تشعب هذا المد للروح الثورية إلى ضروب مختلفة ، يصعب رصدها بالتفصيل . وإنما نكتفى هنا بالاشارة إلى مابلغته هذه الموجة فى قلب الحركة الفلسطينية ، اذ رفعت راية « الثورة » بدلا من « التحرر الوطنى » عنوانا لها وعلما ، بشكل مغاير تماما لحروب التحرر الوطنى فى الصين وفيتنام والجزائر والعديد من الدول والمجتمعات الأخرى التى كانت تتحرك على أرضها وانطلاقا من تواجد شعبها ومجتمعها بين حدودها التاريخية – الجغرافية . وقد ترتب على هذه النقلة أمور لا تغيب عن البال ، من حيث اضعاف التحرك الفلسطينى ، خاصة فى مرحلة الجزر العامة التى أصابت الأمة العربية بعد كامب ديفيد . وهناك أيضاً مجموع الأيديولوجيات وتحركات اليسار الجديد والموجات اللاقومية ، الأممية مظهرا ، المتأقلمة فى واقع الأمر مع جماعات

دخيلة لا وجهة لها إلا التنكر والفكر الرافض ، والفوضوية ولكنما جوهر التحرك الثورى ، والأيديولوجيات الثورية ، ظل كامنا فى قلب الحركة الوطنية فى مختلف الأقطار العربية ، وفى حركة القومية العربية المتجهة صوب الوحدة ، حول جمال عبد الناصر ومن واكبه فى العالم العربى ، اللهم إلا المنطقة النفطية التى عاشت فى تلاحم عضوى مكثف مع الغرب الاستعمارى ، حتى سقطت أقنعة الجبروت الزائف فى معارك لبنان ومأساة بيروت والعجز الشامل للحد من العدوان الصهيونى فى الشرق العربى .

كان لابد لهذه الموجة أن تعيد ترتيب حساباتها . كان لابد لها أن تعى الواقع ، بشكل واقعى ، يرفض أول ما يرفض الهيام الطوباوى من ناحية ، ولكنما يركز الرفض على الاستسلام ، والتردى والتفسخ والعمالة السياسية والحضارية التى تفشت معانيها وقواها وأنماطها فى معظم أنحاء أمتنا العربية بعد مرحلة ١٩٧٦ - ١٩٧٨ .

كان المنتظر أن تكون هذه النقلة - من الأيديولوجية الثورية إلى الواقعية النقدية - نقلة تلتف حول معانى وشعار « الأزمة » . وقد اجتهدت أجهزة كثيرة ، عن وعى أو بدون قصد ، إلى التركيز على اشكالية الأزمة ، يوما بعد يوم ، إلى درجة بلغت أوجها فى الوقت عينه الذى رأينا فيه مسار عدد من أهم الدول العربية يدخل مرحلة الانضباط والنضج والاتزان ، لمواصلة المسيرة الوطنية والقومية

والحضارية معا . وسوف نلقى هذا المعنى فى تحليلنا للمحاور التالية ، ولكننا وجب التنويه هنا بأهمية اثارة موضوع « الأزمة » بينما تدل المحتويات الاحصائية كلها على أن كافة المؤشرات فى كافة قطاعات الحياة الاجتماعية ، دون إستثناء ، فى عموم الأمة العربية ، على تنوع أقطارها وأنظمتها ، فى تصاعد مطرد ؛ بل وأن معدل هذا التصاعد المطرد أعلى منه فى أى منطقة أخرى ، اللهم إلا فى شرق آسيا ، وهى قلب التحرك العالمى الجديد . ولكننا أيديولوجيـة « الأزمـة » ، واشكاليـة « الأزمـة » ، والانكبـاب على « الأزمة » ، و« التأزم » واللطم المستمر ، والتنكر بشكل شرس وبدون حياء لكل ما أنجزته أمتنا العربية فى مرحلة ما قبل الثورة ومرحلة الثورة وحتى فى مرحلة التراجع رغم كماشات الحصار وشراسة العدوان . كأنما كل هذا لم يتم ، ولا وجود له ، وعلينا أن نبدأ من الصفر ، أى أن نتحول إلى نقلة لتجارب وأفكار وأنماط من يحاصرنا ، كى ندخل فى « حوار متحضر » مع الغرب المهيمن ، ونقتلع جذور خصوصيتنا وطاقتنا الذاتية والاعتزاز بمنجزاتنا ، وكأنها أعدى أعداء شعوبنا ومجتمعاتنا وأمتنا العربية .

ولكن واقع الأمر لم يتجه هذه الوجهة اطلاقا ، بل على العكس . فقد رأينا الطلائع السياسية والفكرية فى أمتنا العربية ، وفى مصر على وجه التخصيص ، تنتقل من الأيديولوجية الثورية إلى الواقعية

النقدية على وجه التحديد – فى حوار صريح ومواجهة حادة ، ولكنهاتتسم بالتآخى والتسامح ، مع سلبيات الماضى ، بكافة مستوياته ومراحله ، وأيضاً فى تقييم إيجابيات هذه المراحل بشكل مؤكد وبكل إعتزاز وفخر وقوة . ان هذا الاتجاه إلى الواقعية النقدية ، فى قلب الفكر السياسى العربى المعاصر ، بعد مرحلة التردى ، تمثل نجاحا جادا وإيجابيا إلى درجة بعيدة ، لو قدرنا ظروف الحصار والهجوم المضاد الشامل ، ولو قدرنا أيضاً أن الجيل الجديد من شباب أمتنا العربية عاش فى شبه عزلة من حركة الفكر والعمل فى العالم منذ نحو ثلاثين عاما ، ولم يتلق من هذا العالم إلا ما نقلته إليه وسائل الاعلام الغربية ، وكلها بين أيدى صهيونية ضارية ، بحيث رأينا قطاعات من المثقفين المطلعين على مجريات الأمور إلى حد ما وكأن لاهم لهم إلا نقل هـذه المعارف أو « المعطيات » أو « المعلومات » بلغتنا القومية ، مرجعا لفكرنا العربى السياسى . وقد بدأت هذه الموجة أن تنكسر ، أو بالأحرى أن تذبل نظرا لضحالة رجالها وتفشى أمرهم وتبيان الجماهير الواسعة أن هذه الأبواق العربية المتغربة ، المدعمة نفطيا ، عاجزة حتى عن نقل مصادر تفكيرها بشكل ذكى وخلاق .

وقد ساعد هذا الانتقال إلى الواقعية النقدية ما أصاب الرسالة الرئيسية لأنصار التغرب فى العالم العربى فى الصميم : إن تدهور

مكانة جبروت الإمبريالية الاميركية بين صفوف القطاع المحافظ ، اليمينى ، الرجعى ، وكذا السلفى النفطى من الطبقة السياسية والأنظمة العربية ، حول عجزه فى معركة بيروت وإبرام الاتفاقية الاستراتيجية مع الدولة الصهيونية فى نهاية ١٩٨٣ ، وتخبط السياسة والاستراتيجية ، أسبوعا بعد أسبوع ، بل يوما بعد يوم ، خلال هذه المرحلة ، وكذا هذيان سياسة الولايات المتحدة بالنسبة للحرب الباردة والمواجهة المفتعلة مع الاتحاد السوفييتى من ناحية ، يدا فى يد مع ازدراء الشعور القومى الصينى فيما يتعلق بتايوان من ناحية أخرى ، واكتفاء الدولة العملاقة - التى قيل إنها تملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة كلها - باحتلال غرانادا ، وإثارة الحروب العدوانية الرخيصة ضد الحركات الاستقلالية فى أمريكا الوسطى ، إن هذه العناصر مجتمعة أدت إلى تحول كبير من الأيديولوجية المضادة للثورة فى العالم العربى إلى موقف أكثر إتزانا ، يمكن أن يوصف أيضاً بأنه موقف واقعى نقدى - من الرافد الآخر ، من القطاع التقليدى ، المحافظ ، اليمينى ، السلفى ، الرجعى . هكذا عادت عالمية العالم تحتل مكانتها ، بدلا من الرهان على قطب واحد .

- ٤ -

محور وحدة التحرك

٤ - ١ كانت « وحدة التحرك » ، قبل مرحلة ثورات التحرر فى العالم العربى ، أى قبل مرحلة ١٩٢٩ - ١٩٤٦ بعد ١٩٥٢ ، هو الدولة الوطنية ، سواء أكانت تابعة أو مستقلة ، وهى الوحدة التقليدية للتحليل والعمل فى مجال علم السياسة والعمل السياسى معا .

وقد إنتقلت هذه الوحدة إلى مرحلة الاطار القومى - الثقافى الأوسع ، اطار الأمة العربية ، إلى حد أن بدأ إستعمال تسمية « الوطن العربى » إمعانا فى هذا الاتجاه ، بحيث امتزجت « الأمة »، « والوطن » ، العالم ومكان التواجد الاجتماعى المتخصص . كانت هذه مرحلة القومية العربية ، والاتجاه الحثيث نحو تأسيس أول دولة عربية متحدة ، باسم « الجمهورية العربية المتحدة » بين مصر وسورية بقيادة جمال عبد الناصر . سنوات التحدى والتحرك المتعجل إلى رسم خريطة جديدة للأمة العربية ، تجاهلت إلى حد بعيد خصوصيات المجتمعات الوطنية ، وكذا التجمعات الاقليمية الطبيعية ، ومكنت العدو من إثارة الثغرات وضرب تجارب الوحدة ، الواحدة تلو الأخرى ، من الخارج ومن الداخل معا .

٤ – ٢ وهنا أيضاً نرى أن الانتقال من الثورية إلى الواقعية النقدية يتحقق خطوة خطوة :

أ) برزت من جديد خصوصيات المجتمعات الوطنية ، أى المجتمع القومى على وجه التحديد ، بقدر ما كانت توجد مجتمعات قومية محددة فى العالم العربى ، خاصة فى مصر والمغرب ، واليمن رغم تجزئتها .

ب) وظهرت أيضاً التجمعات الاقليمية التى تسعى ، إما إلى الحلول محل المجتمع القومى غير المتواجد بمعنى الكلمة ، اللهم إلا على صورة الدولة الوطنية – والدولة هنا وحدة للتحليل ، بينما الأمة ، أى المجتمع القومى ، وحدة للتحليل والعمل معا ، أى الوحدة الركينة الوحيدة – وإما للجمع بين عدد من الدول الوطنية فى إطار تاريخى – جغرافى متقارب . هكذا بدأت محاولات لجمع الشمل فى الشرق العربى ، وكذا فى الجزيرة العربية والخليج ، ثم المغرب ، بينما دبت الحركة من جديد فى مشروع وحدة وادى النيل ، وكان من الطبيعى أن تمتد إلى ليبيا .

وهكذا تشكلت الدوائر الأربعة الاقليمية التى منها تتكون أمتنا العربية : المغرب ؛ دائرة النيل وهى تشمل مصر والسودان وليبيا وتمتد جنوبا إلى الصومال ؛ المشرق العربى سواء كان سورية الكبرى أو الهلال الخصيب ؛ ثم الجزيرة العربية والخليج .

ج) وقد ترتب على تشابك هذين الاتجاهين أن بدأت الرسالة التي قدمناها لأول مرة في ١٩٦٢ - ١٩٦٤ تلقى مقبولية أوسع بكثير من ذي قبل . ان فكرة « الأمة ذات المستويين » بدت وكأنها الاطار الذي يمكن أن يجمع بين المستوى الأعم ، القومي - الثقافي، مستوى الأمة العربية أو العالم العربي ، وكذا المستوى الواقعي الحركي المباشر ، مستوى المجتمع القومي ،الدولة الوطنية المستقلة ، بشكل يؤكد معاني وحدة المصير ، وكذا خصوصية الاشكالية الآنية وأسلوب التحرك واستقلال الارادة فيما يتعلق بتحديد أهداف الولاء الوطني والمشروع الوطني . إن صيغة الجمع بين هذين المستويين ، هاتين الدائرتين ، لا تزال مطروحة للبحث والاجتهاد من خلال الممارسة العملية في ميدان السياسة ، خاصة بعد أن أبعدت « جامعة الدول العربية » من مركزها التاريخي ، قاهرة المعز ، وأصبحت أضعف بكثير مما كانت عليه من ذي قبل . ولكنما الاتجاه مؤكد ، من ناحية إلى الأخذ بهذا التمايز إلى دائرتين، أو مستويين ، ومن ناحية أخرى إلى ضرورة توكيد أواصر التفاعل الجدلي ، والترابط العضوي ، المصيري بينهما . وهنا تأتي مكانة المشروع الحضاري لأمتنا العربية ، محصلة لمختلف المشاريع القومية حيثما وجدت ، وهو أمر لا يتسنى إلا للمجتمعات القومية ذات الخصوصية الواضحة عبر التاريخ ، في تفاعل جدلي مع القوى الرئيسية التي منها يتشكل ميزان القوى العالمي المتحرك .

— ٥ —

محور تنظيم القوى

٥ – ١ كان لابد أن يبدأ التجديد من محور « المضمون الحركى» لينتقل إلى محور « وحدة التحرك » . وفى قلب « وحدة التحرك » ذات المفهوم الجديد ، أصبح لزاما على الفكر السياسى العربى المعاصر ورجاله ومدارسه أن يتدابروا أمر محور « تنظيم القوى » المتحركة داخل المستويين المذكورين : مستوى الأمة العربية ومستوى المجتمعات القومية المتخصصة .

كان الوضع التقليدى ، قبل عصر الثورات ، يقوم على تقليد آلى ، أعمى ، سطحى ، لمعانى الحياة السياسية الغربية ، خاصة الليبرالية . وقد تمثل ذلك فى ظهور وتعدد الأحزاب ، في الحياة الحزبية ، باعتبار أن الحزب هو أداة الحكم ، ثم فى التباكى على زوال هذه القشرة وكأنها عنوان للكارثة .

٥ – ٢ ثم بدأ التحليل السياسى يدقق النظر . فالأحزاب السياسية ، بوصفها أداة للعمل السياسى ، لم تظهر فى تاريخ السياسة الا فى القرن السابع فى انجلترا بعد ثورتها ، ثم فى القرنين التاليين ، فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأساسا فى القرن

التاسع عشر فى أوربا ، وحتى جاءت التجربة الدستورية البرلمانية الأولى فى العالم العربى عام ١٨٧٦ على أيدى الخديوى اسماعيل فى مصر ، مما أدى إلى نفيه علي أيدى دول أوربا « الديموقراطية» عام ١٨٧٩ ، توطئة لاحتلال جميع ماتبقى من الأراضى العربية المستقلة بالسلاح عام ١٨٨٢ . ويدأ السؤال ، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، يتجه إلى العلاقة بين الحزب السياسى بوصفه أداة للحياة السياسية والنشاط السياسى من ناحية ، وبين السلطة السياسية . فهل حقيقة أن الحزب السياسى ، كل حزب سياسى ، كل الأحزاب السياسية ، فى كل بلاد العالم برغم خصوصيتها وتباين ظروفها ، هو صاحب « السلطة » ؟ أفلا تؤثر خصوصية مختلف المجتمعات ، أى التكون التاريخى المتمايز للمجتمعات المختلفة ، وتكوّن جهاز السلطة فيها على طبيعة الأداة التى تمارس هذه السلطة ؟وهل جوهر أداة السلطة فى انجلترا هو ذاته فى اليابان ؟ فى فرنسا الثورة البورجوازية كما هو فى الأتحاد السوفيتى ؟ فى صين الكونفوشية - السماوية ، بعد المسيرة الطويلة ، كما هو فى الولايات المتحدة ، بلاد المستوطنين وضعف السلطة المركزية ، الفدرالية ؟ بدأ التساؤل ، وبدأ العد التنازلي بالنسبة لأنصار الليبرالية ، المؤمنين أن الأحزاب هى مفتاح السلطة الفعلية .

وقد بين التحليل الدقيق المقارن لأهم المجتمعات القومية المتخصصة أن جهاز الحكم ، السلطة الفعلية ، إنما يتحدد حسب

ظروف التاريخ الذى فى اطاره تشكلت هذه المجتمعات . سوف يلعب الجيش ، أو الطبقة البورجوازية ، أو الحزب الثورى الذى هو فى جوهره جيش التحرير وكوادره ، أو جبهة ضمنية بين الاقطاعية الملكيةوالبورجوازية الصناعية النامية ، أو جهة أوسع بين مختلف مدارس الفكر والعمل ، من خلال حزب أو حزبين رئيسيين ، أو حتى نوع من الرباط بين الشارع وزعيم ملهم فى بعض الأحيان ، إنما تمثل صوراً متباينة للحكم والسلطة السياسية .

ومن هنا أصبح التساؤل : كيف ندرك خصوصية الأمة العربية فيما يتعلق بالحكم ؟ وبالتالى كيف يتم تنظيم القوى لتحقيق معانى كسر الانكسار والتحرر من الامبريالية وحصار الهيمنة العنصرية والطغيان ؟ كيف أيضا السبيل إلى تدبير المنزل ، إلى تعبئة القوى الذاتية ، إلى الافادة من كل ايجابيات مختلف المجتمعات القومية التي منها تتكون أمتنا العربية ؟

وقد أراد الفكر الغربى المتسلط فى أركان أمتنا العربية أن يزيف وضع التساؤل ، وذلك باثارة اشكالية « أزمة المثقفين » ، أى اشكالية الحرب فى الظلام بين رجال الفكر ورجال السلاح . وقد تمت بالفعل مواجهات في الظلام أدمت أوطانا عزيزة فى قلب أمتنا العربية . ولكنما الموضوع ، لو طرح على هذا النحو ، لايمكن الا وأن يؤدى إلى الحل الليبرالى ، أى إلى تقليد الأنظمة البرلمانية فى العالم الرأسمالى الغربى ، وكأنها ، وحدها ، تملك مفاتيح الحركة .

إن الخلط بين الليبرالية الرأسمالية الغربية من ناحية ، وبين الديمقراطية - أى مشاركة قوى الشعب العامل فى تحديد القرار ومراقبة تنفيذ القرار ، والافادة من ثمار تنفيذ القرار ، إن هذا الخلط هو الذى يكون جوهر أزمة الفكر السياسى الذي اعتنق شعارى التحرر والحرية معا ، تعبيرا عما تجيش به نفوس الجماهير الشعبية الواسعة في أمتنا .

٥ - ٣ ومن هنا ، بدأ التركيز على المفهوم الجديد للديمقراطية - لا الليبرالية - على أنها « جهة وطنية متحدة » كما دعا اليها الشهيد الرائد شهدى عطية الشافعى عام ١٩٤٦ ، وقد تطور هذا المفهوم المركزى إلى تصور جبهة وطنية متحدة ذات مستويين :

- المستوى الاجتماعي - السياسى : أى مستوى تمثيل مختلف الأحزاب والتنظيمات والاتحادات والنقابات التى تمثل مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية داخل المجتمع القومى المتخصص .

- المستوى الفكرى - الحضارى : أى مستوى تمثيل مختلف المدارس التكوينية للفكر والعمل ، المتشعبة من اتجاهى التحديث الليبرالى والأصولية الاسلامية ، بكافة فروعها وتشعباتها .

وقد بدأ التفكير جدياً فى أن هذا السعى - وهو يختلف حسب البلدان والمجتمعات العربية إبتداء من خصوصيتها - بفتح الطريق واسعا إلى تعبئة القوى الداخلية وترتيب هذه القوى وتنظيمها ،

والافادة منها إلى أبعد درجة ، وهو – فى كلمة – المفتاح الأساسى لصد العدوان وكسر الإنكسار .

الانتقال هنا إذن من مفهوم « الوحدة » و « الأمة » بالمعنى العـام ، إلى مفهوم ترتيب البيت الداخلى ، واحالته إلى قلعة منيعة ، إلى ترسانة فعالة ، ابتداء من تنظيم القوى الذي أصبح الآن مقبولا لدي أوسع قطاعات الشعوب العربية ، بينما لايزال رجال الفكر السياسى العربى فى مرحلة انتقال من الوضعية التقليدية لإشكالية الفكر السياسي – بمفهومه الحزبى – الليبرالى المنقول عن الغرب الرأسمالى – ، وبين هذا التشكيل الجديد لتنظيم القوى الذى يستشعره الشارع بوضوح وجلاء ، من جراء تجاربه وممارساته ، وادراكه العميق لمعني الديمقراطية بمـفهومها الشعبى الفعـال بعيداً عن « خيال الظل » .

- ٦ -

محور فاعلية العمل السياسى

٦ - ١ كان مفهوم الفاعلية قبل عصر الثورات، ينحصر فى تغيير الأغلبية البرلمانية ، أو نجاح المظاهرات أو، على أحسن تقدير، فى الحصول على اتفاقية دولية أكثر تسامحا ولياقة. وقد احتفظت هذه المرحلة، مرحلة الحركة الوطنية التقليدية، بقيادة البورجوازية المحلية ، على أسلوب الدبلوماسية ، مما اقتضى أن تعتمد الدول العربية اعتمادا كبيرا على من تصورت أنهم « حلفاء لها فى الخارج » ـ أى على القوى المتناقضة فى « نظام الأمم » الغربى الصياغة حتى يالطا. كانت هذه الصياغة السائدة تتفق مع عدم الجمع ، حتى مرحلة ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ ، بين الاستقلال الوطنى والثورة الاجتماعية ، وكأنهما هدفان لمرحلتين تاريخيتين مختلفتين تماما ، كما حددته الفلسفة السياسية والأيديولوجية القادمة من الغرب وقد تقبل الفكر السياسى العربى المعاصر هذه الوضعية ، متناسيا تماما مغزى حروب المقاومة والتحرير بقيادة الأمير عبدالكريم والأمير عبدالقادر وجيش مصر باسم الشهيد البطل محمد عبيد فى ١٨٨١ - ١٨٨٢ ، وخاصة مغزى « التنظيم

السرى » وراء الجبهة البرلمانية الوفدية المتهادنة ، وقد صاغه وقاده العقيد عبدالرحمن فهمى ، من شباب الوفد، والنقابيين ، وضباط الجيش الثوار بين ١٩١٩ و١٩٢٣.

٦ ـ ٢ ثم انتقلت المعركة إلى مستوى أعلى وأعمق بكثير. لم تعد المسألة الحصول على استقلال صورى ، أو حتى استقلال حقيقى إلى درجة معقولة ، أى إضافة بعد الاستقلال الاقتصادى إلى بعد السيادة السياسية المعترف بها دوليا. ولكنما ظهور الدولة الصهيونية، قلعة للهيمنة الحضارية الغربية الأمبريالية والعنصرية فى قلب أمتنا العربية، لشطر جناحها الأفريقى من جناحها الاسيوى ومحاصرة مركزها القيادى فى مصر ، تضفى بعدا حضاريا جديدا، أخطر بكثير من أى تصور سابق ، منذ بدء التاريخ حتى عصرنا هذا وإلى مدى غير قصير أمامنا.

إن الدولة الصهيونية تكونت بناء على قرار من الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، على أساس اقتراح تبنته كل من بريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتى بعد حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، وما حددته الحركة الصهيونية العالمية ثمنا لخسائرها أثناء هذه الحرب من معسكرى الغرب آنذاك. قامت الدولة الصهيونية من خلال النفاق السياسى والحرب التى اصطنعها الاستعمار البريطانى فى فلسطين ، تماما كما فعل فى الهند بين الهند وباكستان. ولكنما هذه

الدولة تسلحت وتكونت على أساس الكادر السياسى والسلاح القادم من الدول الاشتراكية حتى حرب السويس عام ١٩٥٦. وبعد ذلك تسابقت دول الغرب الاستعمارية لتبنى القضية وتسليح القلعة الضاربة فى أرضنا . أما الآن، وقد تحولت هذه الدولة إلى ترسانة رهيبة بفضل الاتفاقية الاستراتيجية مع الولايات المتحدة وجنوب أمريكا وكافة القوى الرجعية والعنصرية فى العالم ، فقد أصبح الأمر على أرفع مستوى من الخطر السياسى والاستراتيجى.

إلا أن التحدى الحقيقى لم يتبدى للفكر السياسى العربى ـ وهو هذه المرة على وئام مع الشارع العربى ـ فى المجالين السياسى والاستراتيجى ، ولكنما فى توغل الموجة الغربية : الفكر اللا قومى، الأيديولوجية الرافضة ، الانحلال الخلقى ، التنكر لخصوصيتنا الحضارية والثقافية والقومية ، إفساد معانى العروة الوثقى والوحدة الوطنية ، الدعوة إلى الدول الطائفية الاقليمية ، ـ أى ، فى كلمة ، بث الفساد لتفكيك عرى الأمة العربية من الداخل ، تحت ستار «التحديث» بوصفه تقليداً ونقلا للعلم والتكنولوجيا والمعرفة ، وفوق هذا وذاك للعادات والتقاليد ، عبر الجسور الصهيونية الممتدة من كافة أنحاء العالم الغربى الرأسمالى وقطاعات أيضا من الحركة الاشتراكية العالمية ، رغم وقوف الاتحاد السوفييتى والدول الحليفة بالإضافة إلى الصين الشعبية والدول الاشتراكية اللا ـ غربية ، وقفة مبدئية مع الأمة العربية فى وجه العدوان الصهيونى.

٦ ـ ٣ وقد ترتب على هذا الأمر أن استشعر الشارع العربى ، الحركة الوطنية بالمعنى الواسع ، وكذا الفكر السياسى العربى ، حاجة جديدة إلى إعادة الحسابات. إن العون الخارجى ، والتحالفات الخارجية، والمساعدات واتفاقيات التسليح قد تفيد. ولكنما الأمر يمس الارادة الوطنية ، الشخصية القومية ـ الثقافية وكذا الحضارية ، أى أنه يمس أركان الوجود الاجتماعى ـ الحضارى للأمة العربية بكافة دولها ومجتمعاتها على تنوعها وتباينها وتنازعها.

كانت هذه الحقيقة هى نقطة انبعاث عودة الفكر السياسى العربى ، تحت ضغط الجماهير الشعبية وكذا القيادات السياسية الواعية إلى أركانه ، إلى جذوره ، إلى أصوله ، إلى ذاته الحضارية. من هنا جاءت الدعوة إلى الاعتماد على الذات ، وهى الأساس الذى نادت به مبادىء باندونج الخالدة الخمسة . وهى أيضا القاعدة التى انطلقت منها الدعوة الجديدة ، بعد حرب أكتوبر، إلى «الابداع الذاتى » ليس فقط فى المجالات التقليدية ، ولكنما فى الأساس فى المجال الفكرى كما تجلى ذلك بشكل ساطع منذ ١٩٧٨ فى المشروع الفرعى للمشروع الرئيسى لجامعة الأمم المتحدة حول «الابداع الفكرى الذاتى» الذى صاغته وأدارته عقول مصرية عربية فى قلب مرحلة تغير العالم ، وكان من نتائجه أن أصبح مفهوم «الابداع»

مفهوما مقبولا من الناحيتين الرسمية والشعبية، بدلا من «التجديد» أو « التطوير » أو « التحديث »، طفرة فرضها العدو ، مادمنا على استعداد لمقابلة التحدى الحضارى فى مستواه بصياغة المفاهيم. والتصورات والنظريات والتكوينات الفكرية والعملية القادرة على صد الهجوم الحضارى الشامل المضاد وكسره ، وضربه فى الصميم من خلال تخطيط استراتيجيتنا الحضارية التى بدأت الدعوة إليها منذ ربيع ١٩٧٣ .

٦ - ٤ وفى قلب الدعوة إلى الاعتماد على الذات ، إلى الابداع الذاتى، إلى الابداع الفكرى الذاتى ، برزت بالتدريج قسمة مميزة طالما تجاهلها الفكر السياسى التقليدى ، ألا وهى الأصولية بالمعنى الفلسفى الدقيق لهذا المفهوم. فالأصولية تعنى ، أول ماتعنى ، العود إلى الأصول التكوينية للخصوصية القومية - الثقافية - الحضارية لكل من المجتمعات التى منها تتكون أمتنا العربية، وكذا لأمتنا العربية فى عمومها. والأصولية لا تعنى ، كما يريد لها دعاة الردة والعمالة ، أبواق الغرب الاستعمارى العنصرى ، السلفية أو الرجعية ، أو الانقطاع عن المعاصرة أو غير ذلك من المعانى البالية . لكنما الأصولية هى المنبع الذى منه تتقوم المعاصرة، أى حداثتنا القومية الحقيقية الفعالة : التراث الحى ، بوصفه مجموعة حركات الابداع والريادات التى تجمعت عبر العصور ونجحت فى التجربة

القاسية عبر تقلبات التاريخ وظلت وجدانا حيا بين جماهير شعوبنا، والطاقة الخلاقة التى تمكنا من مواجهة تحديات العصر، متسلحة بأحدث معانى العلم والتكنولوجيا والمعرفة ، وكذا التجربة السياسية العالمية الحية .

فاعلية العمل السياسى اذن، مرهونة بالاعتماد على الذات ، بوضع الأصولية السياسية فى قلب تحقيق المعاصرة، وتأكيد مشروعنا الحضارى ، فى مواجهة العدو، تأمينا للمستقبل، وليس فقط توكيدا للأمل .

- ٧ -

محور التلاحم بين أجيال الفكر والعمل

٧ - ١ أكدنا، فيما سبق ، أصالة ظهور مفهوم الابداع الذاتى ، وخاصة الابداع الفكرى الذاتى بالنسبة للوجهة الجديدة للفكر السياسى العربى المعاصر، وخاصة منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣. إن هذا التجديد يختلف تماما عن اللحاق بالموجات «الجديدة» فى عواصم الهيمنة الغربية . ولكننا نراه يمثل الطليعة المرتبطة تكوينيا بدائرة تعبئة مختلف المدارس التكوينية للفكر والعمل القومى، أى أنه يمثل دور الفاتح ، الرائد - بدلا من كونه يلهث للحاق بركب موجات الانحدار والفكر السالب الطاغية على معظم تحركات الثقافة الغربية فى عصرنا .

إن هذه الوجهة ، هذا المحور الاتجاهى ، يطرح سؤالا هاما: كيف تتشابك أيدى وجهود الأجيال المتلاحقة من المفكرين السياسيين العرب فى هذا المضمار ؟

٧ - ٢ إن الأجيال العاملة الآن فى مجال الفكر السياسى العربى تتوزع بين أجيال أربعة على وجه التحديد :

أ) جيل الأساتذة: وهم الذين أعدوا العدة، فكريا وإلى حد ما

سياسيا، لعصر الثورات ، وذلك منذ العشرينات حتى نهاية الحرب العالمية واقامة نظام يالطا وبدء المرحلة الثورية ، وهو جيل على حد فريد من الإلمام والامعان بالثقافة الوطنية الأصيلة من ناحية، وكذا ثقافات العالم ، العالم الغربى آنذاك بطبيعة الأمر ، من ناحية أخرى. وفيه، فى هذا الجيل ، جيل الأساتذة ، تتمثل على أعلى درجة خريطة توزع الفكر العربى المعاصر بين الاتجاهين التكوينيين الرئيسيين ، ألا وهما التحديث والأصولية التحديث الليبرالى والأصوليةالإسلامية.

ب - جيل الثورة : وهو الجيل الذى أعد منذ مرحلة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦، وخاصة خلال حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، انطلاق الثورات التى عمت مصر والعالم العربى بأسره ، وزلزلت أركان الاستعمار ، والاحتلال والأنظمة السياسية البالية ، والرجعيات المحلية ، والأرضية الاقتصادية ـ الاجتماعية المتخلفة ، بحيث تبدلت تبدلا شاملا كافة معالم الحياة الاجتماعية لأمتنا العربية، على تباين التجارب والنتائج، تناقضها انتكاساتها، رياداتها وانتصاراتها أيضا. أن هذا الجيل ، من الناحية الفكرية ، يمثل على وجه التحديد وعلى أحسن صورة القطاعات الجذرية ، الراديكالية ، الأكثر تقدما من الاتجاهين التكوينيين للفكر العربى ، أى الإسلام السياسى والحضارى من ناحية ، والفكر القومى التقدمى من ناحية أخرى.

وقد استطاع هذا الجيل أن يكون آخر من يفيد من الحريات الواسعة فى معظم العواصم العربية الحضارية قبل الستينات ، وبذلك كان بحق وجدارة ذلك «الجيل الذى كان على موعد مع القدر»، من الناحيتين السياسية والفكرية. ومن هنا كان ضربه بقسوة وشراسة ، وتفتيت شمله ، والتنكر لدوره التاريخى . ولكنه بدأ يبعث اليوم بشكل قوى ساطع حول أعلامه الشهداء والأحياء معا ، بفضل نضج عدد من قيادات الدولة وقيادات العمل والفكر فى عدد من الدول العربية وفى مصر على وجه التخصيص، بحيث أنه الآن فى قلب العمل والفكر السياسى ، يدا فى يد مع الأجيال الثلاثة الأخرى.

ج) جيل أبناء الثورة : معظمهم من جماهير الشعب الفقيرة فى الريف والمدن. وقد نشئوا فى ظروف الانقطاع عن معانى الاتصال الثقافى والفكرى بالعالم ، وكذا فى اطار الدول الأوتوقراطية اللا ـ ديمقراطية ، بحيث انعدمت لديهم تجربة الحوار مع الغير والذات ، وقد تجلى ذلك فى نهمهم على معرفة الذات وتنقيب التاريخ المعاصر ، المطوى ، وكذا الاهتمام بمعانى العصر فى خارج الأمة العربية عارما جبارا . ومن هنا بدأت الثغرات : إن مراكز البحث والأجهزة الخارجية البراقة أخذت تقدم كل جديد بصور مشوقة ، بحيث أصبح من الصعب على جيل أبناء الثورة أن يدرك التفرقة الحقيقية بوضوح ، قبل ممارستها ، ومقارنتها وتحليلها النقدى ،

دون تجربة سابقة. وكان أن التفت جماعات من هذا الجيل حول مراكز البحوث هذه ، وسمومها وأموالها وامكاناتها ، مدعمة بتراكم النفط حولها أيضا ، فكانوا أعدى أعداء الابداع الفكرى الذاتى والقومية والواقعية النقدية ، وبعث الفكر القومى الرائد ، وأشد المتنكرين لكافة القوى والأعلام التى تعمل بهذا الصدد على أرض الوطن والأمة.

د) جيل الشباب : وهم الآن ، بفضل إصرار الانسان العربى على رفض تحديد النسل ، رغم كافة الضغوط والمسوغات ، يمثلون غالبية أمتنا العربية فى كافة أوطانها ، ويؤمنون بتلك المسيرة التاريخية والمستقبل الانسانى والاجتماعى والحضارى معا. إن هذا الجيل يمتاز بالحذر ، والشغف البالغ ، والحنان ، والهيام ، ولكن على انضباط شديد والحمد لله : يمتحن الأجيال الثلاثة التى سبقته بروح دقيقة قاسية ، فى أخوتها وتعبيرها الصادق عن جراح الشعب ، وكذا آماله وتطلعاته . وعندنا أن هذا الجيل هو الذى سيرث التركة الفعالة لما كان ثم انزوى ، وما تحقق ثم حوصر . أى أنه ، على وجه التحديد ، هو الجيل الذى منه سوف تقوم أركان الفكر الوطنى التقدمى ، الفكر الحضارى الأصيل المعاصر معا. هذا لو تم التلاحم ، فى اطار العروة الوثقى لمدة كافية من الزمن - رغم الحصار بالسلاح المكثف الذى يحيط بأمتنا العربية أكثر من أى وقت مضى.

- ٨ -

محور المبادرة التاريخية

ما الهدف إذن ، من هذه التراكمات الاتجاهية ؟

لو كان الهدف ليس التقليد ، وانما الابداع للريادة ، فإنه يقتضى بشكل منطقى أن يتجه الفكر العربى السياسى المعاصر إلى الامساك بمفاتيح المبادرة التاريخية. أى : أن يطرح هو اشكاليته ، أن يقدم هو مختلف الأجوبة الممكنة والمتصورة بالنسبة لتساؤلات هذه الاشكالية ؛ أن يقوم هو بتخطيط الاستراتيجية والتكتيكات اللازمة لانجاز هذه الاجابات.

والمبادرة التاريخية لا يمكن أن تتحقق إلا ابتداء من وجود أساس راسخ من الكثافة الاجتماعية والاستمرارية الاجتماعية فى آن واحد : أى لا يمكن أن تتحقق إلا فى مجتمعات حضارية عريقة ، تعرف معنى الدولة المركزية الثابتة ، وتتحرك فى اطارها مختلف طقوم الفكر والعمل - فى قطاعات الاقتصاد والحياة الاجتماعية والقوة السياسية والاستراتيجية وكذا فى الفكر والثقافة - بطريقة ذكية ، قادرة على الانضباط فى اطار الجبهة الوطنية المتحدة ، بحيث يصعب النفاذ إلى مفاتيحها وتفتيت أركانها وكأنها مجتمعات

أشبه ما تكون بالسراب المرحلي . إن هذا التحول ، من الانبهار بالأرصدة والمظاهر الشكلية البائدة ، نحو العود إلى الدولة الوطنية ، والمجتمع القومي ، أى من البدو إلى الحضر - يمثل العملية العكسية لما تم أثناء انزواء أفريقيا ، كما بينه الرائد العالم ابن خلدون في عصره . أى أننا نشهد الآن أتجاه الفكر السياسي العربي المعاصر نفس الوجهة التى دعا إليها ابن خلدون : التخلص من معانى التفسخ والضعف والتفتت ، من أجل العودة إلى قوة المجتمعات المكثفة ، حول دولتها ومركزها السياسى وقوتها الذاتية المتماسكة المتصلة . عملية كبيرة سوف تكسر المخطط الأستراتيجى الحضارى المضاد للغرب الذى أراد لمصر أن تعتزل وتحتجب ، كى يطفى على السطح رجال لا وجهة لهم إلا نقل ثمار ثروة العرب إلى مصارف وملاهى الغرب . وكأن أمتنا العربية وشعوبنا على غير تواجد . كأننا فى عالم أمين آمن . كأن أحلام اليقظة يمكن أن تلغى واقع الصراع والتحدى الحضارى . كأن الدنيا لم تكن .

شيئا فشيئا اذن تنزوى البناءات المصطنعة للمحدثين ، وتتأكد من جديد معانى المركزة حول المجتمعات والدول ذات التاريخ المتصل والفاعلية السياسية المؤكدة : من هنا تبدأ عملية التحرك من أجل الإمساك بمفاتيح المبادرة التاريخية ، جوهر التحرك السياسى العربى المعاصر والمرتقب.

- ٩ -

المحصلة : النهضة الحضارية مشروعا واستراتيجية

نخلص من تحليلنا للمحاور الاتجاهية لفكرنا العربى السياسى المعاصر إلى تحديد وجهة هذا الفكر ، وقد تشكلت على التوالى من العناصر التى عرضنا لها المرة تلو المرة ، الواحدة تلو الأخرى.

٩ - ١ أن وجهة الفكر السياسى العربى المعاصر هى ، فى جوهرها ، وجهة حضارية ، لا اقتصادية أو أيديولوجية بالمعنى الدقيق . انها وجهة النهضة الحضارية الشاملة لأمتنا العربية حول اطار الوحدة السياسية المرتقبة على صورتها الجديدة ، ابتداء من مركزية مصر فى قلب الأمة ، وكذا فى قلب نهضة شعوب الشرق الآسيوية ـ الأفريقية باسم باندونج وعلى أساس مبادئها الخمسة الخالدة.

إن وجهة النهضة الحضارية تعنى ، فى آن واحد ، أن سيادة الفكر التكنوقراطى - التنموى على الفكر السياسى بمعناه الرفيع ،

أي الفكر الفلسفي – الحضارى فى خدمة سلطة الشعب والأمة ، بدأت تنزوى تدريجيا ، وإن كانت لابد وأن تظل قائمة كعامل مهم من عوامل النهضة الحضارية ، لكنه عامل خاضع للإرادة السياسية القومية وفلسفة النهضة الحضارية ، فى كافة المجالات والمستويات.

٩ – ٢ نهضة حضارية شاملة اذن ، عصرية تقدمية مستقبلية ، تواكب تشكل النظام العالمى الجديد ، رغم الجبروت الأمريكي ـ الصهيونى، والضعف النسبى ، وكذا تمزق ، الصف العربى فى معظم الأحيان. نهضة حضارية تحتاج إلى هدف وأداة :

أ) الهدف ، أى المشروع الحضارى ، وهو الذى يشكل جوهر تفكير عدد متزايد من طلائع الفكر السياسى العربى ، منذ ١٩٧٣.

ب) الأداة ، أى الاستراتيجية الحضارية : ترتيب القوى ، الأحلاف ، الأعداء ، جبهات التحرك ، وكذا الأدوات التكتيكية والتنظيمية.

٩ – ٣ لو أردنا إيجاز المشروع والاستراتيجية ، لقلنا : أنه يهدف إلى تمكين أمتنا العربية ، حول مصر ، من أن تلعب دورا رياديا فعالاً فى قلب نهضة شعوب الشرق ، قومياته ثقافاته ، حضاراته ، والذى يمثل غالبية شعوب العالم ، أقدم الحضارات بها ، منبع الفلسفات والديانات ، وكذا أيضا مكانة الطاقة ومقام الدولة العظمى النامية حول محور الصين ـ اليابان المرتبط ارتباطا

عضويا بأمتنا العربية . نهضة حضارية تهدف إلى أن تقدم بديلا للنمط المتفرد، الاستهلاكى ، العنصرى ، الذى صعد إلى مكانة الهيمنة منذ القرن الخامس عشر ، وتقديم نمط تسود فيه معانى القومية ، والتفاعل الجدلى البناء بين الحضارات والثقافات والقوميات وخصوصياتها المتميزة ، وأنظمة قائمة على فكرة الوحدة الوطنية والجبهة الوطنية بدلا من تقنين الحرب الأهلية تحت ستار الصراع الداخلى والحزبية، وإعادة فكرة التعالى والفلسفة والايمانية إلى قلب الانسان ، توكيدا لسلم القيم الذى يرفض تسخير الانسان لأقليات متسلطة ، ويرفع شعار الاخاء ، والمشاركة ، والثراء الروحى والمادى معا، ومشاركة الشعب العامل فى تحديد مصيره وجنى ثمار عمله ، ورفع أعلام شعوبنا الشرقية ، من جديد ، على قدم المساواة مع كافة الأعلام الأخرى ، مؤكدة بذلك دورها الطليعى فى تغيير العالم ، وتشكيل النظام العالمى الجديد ، فى تعاون مثمر وتآخ صادق ، وتجاوب واقعى فعال مع كافة الشعوب والدول والثقافات للحضارات الأخرى اللا شرقية ، وخاصة فى قلب الغرب، أوروبا ، التى منها تشكلت حضارة الغرب ، قبل انتقالها إلى بيوت المال فى شمال أمريكا .

دعوة صادقة إذن يستشعرها الفكر السياسى العربى المعاصر لبناء مستقبلنا المشترك بشكل واع وأخوى فعال ، تحت لواء القيم

الروحيـة ، فى إطار العروة الوثقى بين مختـلف مـدارس الفـكر والعمـل ، بين رجال الفكر والسلاح ، نصادق من يصادقنا ، نعادى من يعادينا نعم - بعيدا عن التنكر لايجابيات التاريخ أيا كانت ، مدركين تماما فى الوقت عينه مكانتنا من حيث المبادرة التاريخية : أليست أرض الأندلس الزهراء عنوانا لما كان ، وما سيكون، ونحن، معا ، رجاله ؟

الفصل السابع

عود إلى مصر

- رسالة الأستاذ العميد

تحتفل مصر ، شعبا ودولة ، بكل اعتزاز وفخر ومحبة بالذكرى المئوية لأستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، فى رحاب جامعته ، جامعة مصر الأم ، جامعة القاهرة . يشاركها فى هذا الاحتفال ، من قريب أو بعيد ، عموم رجال الفكر والرأى والعمل فى عالمنا العربى ، وكذا كل من يعنى بتحرك مصر ونهضة شعوب الشرق فى القرن العشرين[1] . وكأن الاسم الكريم قد أصبح رمزا لشىء كبير ، لن نغالى أن قلنا أنه " نهضة مصر " الثقافية والحضارية فى مرحلتها الثانية ، بعد الإنطلاقة الكبرى فى عصر محمد على ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وعبدالله النديم ، قبل الانكسار والاحتلال .

الإعتزاز ، والفخر ، والحب - وكذا ، وكيف لا ؟ التساؤل والمراجعة التحليلية النقدية التى لابد وأن تواكب كل ماهو كبير

---

(١) فى مؤتمر الذكرى المئوية للاستاذ العميد الدكتور طه حسين ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة (١١ - ١٤ نوفمبر ١٩٨٨) .

وأصيل ، كل جديد ، كل تجديد وابداع ، أن الفكر الوضعى ، الراكد ، التعليق على الهوامش ، الفكر .

المسطح السائد في عصور التردى هو ، وحده ، الذى لا يثير ، ولاحاضر ، ولاجذور . وبالتالى لامستقبل .

وتشاء الظروف أن يأتى هذا الاحتفال المئوى فى نفس العام الذى ثار فيه الجدل والتحليل النقدى الجذرى لأمور كبرى فى تاريخ الأمم كانت ، ولا تزال ، من الثوابت الإيجابية الهامة فى تطور الإنسانية . إن إعادة صياغة الإطار المفهومى للإشتراكية فى القطاع الأوربى منها كاد أن يطغى على الفؤاد ، وأن يفرض تجلياته غير المتكاملة ، وكذا تناقضاته التكوينية ، على جميع مدارس الفكر والعمل فى عالمنا المعاصر : بين قائل إن التجديد معناه نهاية الإشتراكية ، ويؤمن بأن التجديد هو طريق تطوير الاشتراكية وحيويتها والدليل على قوتها وقدرتها وإمكانياتها الكامنة . وقد شملت حركة التجديد هذه الكثير من الثوابت : مغزى وقيمة ثورة أكتوبر ١٩١٧ الإشتراكية الكبرى : مغزى إقامة أنظمة اشتراكية بلا مقدمات ثورية مستقلة فى أقطار تابعة للقطب الاشتراكى الأوربى الأول . العلاقة بين الدولة والحزب ، معنى الديمقراطية ، فى مجرد تعددية ليبرالية ، أم أن لها مضموناً أكثر عمقاً لا يتخذ بالضرورة شكل التعدد التنظيمى ، وارتفعت زوبعة

تحليلية نقدية مماثلة فى مركز أهم الثورات البرجوازية الديمقراطية فى العالم الغربى ، بمناسبة الذكرى المئويةالثانية للثورة الفرنسية : أكانت حقيقة تقدما شاملا للعقلانية والفكر العلمى والعدالة ؟ أم كانت حربا أهلية ، أكثر الحروب الأهلية شراسة ، بعد أن قضت على مقاطعات كاملة من فرنسا بالدم والسلاح ، وتركت حتى اليوم أمة منقسمة إلى معسكرى اليمين واليسار ، وكأن الفرقة سنة الوجود ، بدلا من وحدة التناقضات الجدلية .

ونذكر هذه الأمور الجلية بمناسبة الجدل القائم ، بل والزوبعة المثارة ، حول مغزى رسالة أستاذنا العميد منذ حين . لا شك أنه عاش حياة واسعة ، شاقة ، مشرقة ، جمعت فى رحابها بين الكثير من المتناقضات والطروح غير المتكاملة – شأنه فى ذلك شأن جميع المبدعين المجددين ، خاصة فى مراحل محاولة كسر الانكسار وشق الطريق إلى التحرك والتحرر والتقدم والنهضة . ولكننا نستشعر أن الزوبعة زادت إلى حد يلفت النظر منذ بداية الخمسينات ، ثم جاءت موجة جديدة من العوامل جعلت من طه حسين مثارا لجدل عنيف فى مطلع السبعينات .

ما الأمر اذن ؟ لما هذه الزوبعة – إن لم يكن الأمر جليلا ، إن لم تكن الرسالة حقيقة ذات أهمية مركزية بالنسبة لمستقبل مصر ؟

نقول اذن بادئ ذى بدء : إن رسالة طه حسين ، فكرا وعملا ،

جزء تكوينى لا يتجزأ من شخصية مصر ، من تحرك مصر المعاصر ، من النسيج الجدلى بين الشخصية والتحرك فى ظروف محاولة التحرر والنهضة ، فى قلب مرحلة تغيير العالم وارهاصات تشكل العالم الجديد .

إن هذه المقولة الأولية ، المركزية ، تعنى أن محاولة اهمالها - التى تمت على مرحلتين - هى السبب فى إثارة الزوبعة ، وخلط الأمور ، بحيث كادت الرسالة ومغزاها أن تضيع ، أو على الأقل أن تفقد جلاءها وفاعليتها ، وفى كلمة : كادت أن تضيع على مصر ، طاقة ، وسلاحا ، وترسانة فعالة هائلة هى منا وإلينا ولنا ، ومن ثم لابد وأن نفسح لها الطريق واسعا ، بوضوح وصراحة وعزم أكيد .

كيف يمكن أن نستعيد المسار ، بحيث نمسك بمفاتيح المشكلة ، ونستعيد طه حسين على حقيقته ؟ وعندنا أن الواقع التاريخى يفرض أن نتلمسه من خلال بيان المراحل الثلاث من مسيرة طه حسين ، فكرا وعملا ، فى مصر القرن العشرين .

١ - مرحلة أولى ، البعد الأول ، يمكن إيجازها على أنها محاولة التعامل مع التراث المصرى عموما والاسلامى على وجه التخصيص ، محاولة عصرية ، حية ، بغية توظيفه لتحريك الركود ، وتطوير مصر ، فكرا وعملا ، من أجل التحرير ، على ان يتم هذا كله بواسطة الفكر العلمى ، والايمانية النابعة من تاريخها السبع

ألفى ، والتعامل مع العلم والعصر بالمنهج العقلى العلمى التحليلى الناقد الدقيق ، وتناول الأمور السياسية الإجتماعية بواسطة التحرر الوطنى والديمقراطية الاجتماعية الحقة ، والتفاعل مع العالم المحيط إبتداءً من علاقة حضـارتنا المصرية الفريدة ، انطلاقا منها ، إعتمادا عليها فى المقام الأول .

القضية المركزية لهذا المجال تبدو وكأنها مسألة التراث ، كيفية التعامل مع التراث فى عصر متغير . ولنستعيد بالذاكرة العصر الذى عاشه طه حسين فى طفولته وشبابه ورجولته . فعلى أرض مصر ، ضرب الاحتلال العسكرى فى كل مكان ، مؤكدا إنكسار المرحلة الأولى لنهضـة مصر بزعـامة محمـد على وصحبـة إبراهيم باشا ، رفاعة الطهطـاوى ، على مبـارك ، ثم عبد الله النديم . وحول مصر ، فى الإطار الحضارى المحيط ، كان العصر هو عصر تدهور الخلافة العثمانية حول شخصية السلطان عبد الحميد المتناقضة المهتزة . وفى مواجهة هذا التردى ، وقفت جماعة «إتحاد وترقى» – التى عرفت فى الخـارج باسـم « شـبـاب الاتراك » – برئاسة رئيس هيئة الأركان العامة للجيش العثمانى ، الجنرال أنور باشا ، تسعى إلى التعامل مع العصر . وقد بدأ أنور باشا عهده محافظا متزمتا ، وعدوا شرسا للاشتراكية ، ثم انتقل بعد هذا إلى مقام الأب الروحى لثورة تركيا الاستقلالية بقيادة

مصطفى كمال ، تلميذه المختار ، إلى أن رأى أن يبتعد عنه بعد أن اختار مصطفى كمال قبل أن يتحول إلى «أتاتورك» العلمانى المتنكر لحلفائه الأوائل من الشيوعيين والاسلاميين ، وإلى حد أن انتهى بأنور باشا المطاف فهاجر إلى الاتحاد السوفيتى ، وعلى أرضه أنشأ «إتحاد الشيوعيين الاتراك» باسم الشيوعية والوطنية - حياة خرافية لا تزال مطوية ، وقد بدأت تتكشف تدريجيا فى البحوث التاريخية التركية منذ سنوات .

وفى وجه هذا التردى، استشعر طه حسين الشاب - وكيف لا ؟- إن النمط الناجح إنما يأتينا من شمال البحر المتوسط ، من أوربا الليبرالية ، وهى بطبيعة الأمر أوربا الاستعمارية والامبريالية والعنصرية المعادية لشعوب أمتنا العربية والعالم الاسلامى ولكنها تقدم فى الوقت عينه أشكالا متقدمة فى مجال التنظيم المجتمعى ، وتنظيم الحياة السياسية بقدر غير قليل من الحريات العامة يمتزج بمذبحة حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ الدامية لإعادة توزيع المستعمرات . وقد أراد طه حسين أن ينظر إلي الإيجابيات ، فى القطاع الثقافى والعلمى ، دون السلبيات ، شأنه فى ذلك شأن العديد من رجال الاتجاه التكوينى الثانى الذى حددناه فى تكون الفكر المصرى والعربى الحديث والمعاصر ، اتجاه التحديث الليبرالى . كان فى وسعه أن يتنبه إلى مغزى التحرك السياسى النهضوى بجناحيه

الاسلامى والعلمانى فى تركيا ، كما فعل « الحزب الوطنى » تماما بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد ، فقدم نمط « اتحاد وترقى » ثم مصطفى كمال أتاتورك ، فى نفس الوقت الذى قدم فيه ريادة اليابان فى انتصارها على الاسطول الروسي القيصرى فى معركة تسوشيما ١٩٠٥ ، وذهب به الأمر أن حياً فى ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية فى روسيا النصير الأول لثورة مصر الوطنية ، بفضل بعد نظر محمد فريد ، لم يكن طه حسين في هذه الآونة على هذا المستوى ولا من ذلك الفريق ، ولكن علينا ألا نبالغ فنظلمه ، كان الجو الليبرالى السائد ، تحت ضغط ونفوذ الثقافة الأوربية ، كان استجابة لاحتياجات مصر الثقافية والمجتمعية الملحة على المدى القصير .

وقد تجلت هذه الخطوات الأولى فى رسالته للدكتوراة من جامعة باريس السربون عام ١٩١٧ عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » (تعريب محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٢٥) ، الاختيار صائب كل الصواب : يتجه طه حسين إلى محاولة فهم قوانين التحرك التاريخى عند المفكر العلم الذى رأيناه منذ سنوات يبرز – كما بيناه – بوصفه مؤسس علم التاريخ وعلم الاجتماع الحديث حقيقة. وقد لاحظ المحللون أن الرسالة متناقضة ، بل وسطحية فى الكثير من الأمور وخلصوا إلى أن الأمر يرجع إلى أن المؤلف ، طه حسين

طالب الدكتوراة ، يعترف بأن الفلسفة الألمانية بالنسبة له غموض وإبهام - بينما الفلسفة الألمانية هى قلب فلسفة الغرب ، الذى انبهر به طه حسين آنذاك ، وكان ومثلت الركيزة لفلسفة التاريخ دون جدال حتى عصرنا (كانت ، هيجل ، سيمل ، شبنجلر ، ولثاى ، جنبا إلى جنب مع الإيطاليين كروتشى وغرامش) . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اعتماده على الفلسفة الوضعية المسطحة ، متمثلة فى أعمال أوجست كونت . ولابد هنا من كلمة عن هذا الرجل الذى لعب دورا سلبيا خطرا فى توجه الفلسفةالاجتماعية فى نهاية القرن التاسع عشر وحتى عصرنا . كان الهدف المعلن هو : «محاربة الاشتراكية». والمنهج هو : التنكر لجدلية التاريخ . والاختيار هو : ان الواقع هو ما هو قائم ، وما هو قائم انعكاس للظروف الطبيعية المحيطة . أى أنه ليس فى الإمكان خير مما كان . فلسفة تتمثل بالجمود والمحافظة ، والرجعية التكوينية ، وهكذا السطحية فى كل ما تناولته من تحليلات . كان هذا هو التأثر الرئيسى على تفكير طه حسين الشاب فى تناوله الأول للتاريخ وفلسفته . فلا عجب أن يكون الإتجاه السليم ، إلى فلسفة التاريخ ، مقرونا بتناول محافظ سطحى ، لم يمكن طه حسين أن ينفذ إلى جوهر خصوصية ابن خلدون المتفردة بوصفه الرائد المعلم للتاريخ بوصفه علما ، ولدراسة المجتمع بوصفه جوهر علم التاريخ .

ثم جاءت الأعمال الأخرى على التوالى وكلها تعنى بالاسلام الحضارى ، وأثره على الحياة الاجتماعية والسياسية . الاعمال المعروفة ، وكذا المعارك . وان لن نخوض فيها من جديد . وإنما يعنينا هنا أن نؤكد أن محاولته الصادقة كانت للجمع بين الإيمانية وبين ما تصور أنه منهج لفلسفة التاريخ العصرية ، مما لم يمكنه من ادراك التكون الجدلى المركب لحضارة الاسلام ، وخصوصيتها بالنسبة لما سبقها وما أحاط بها من حضارات الغرب ، خاصة وأن طه حسين لم ينتبه إلى أن مكانة مصر الحضارية توازيها ، على الجانب الآخر من العالم ، أى من الشرق ، مكانة حضارة الصين ، وبينهما حضارة الفرس والدوائر المركبة للثقافات التى منها تكونت الحضارة الهندية . فى كلمة : لم يدرك طه حسين معنى الشرق الحضارى ، وثقل آسيا ، وأن الاسلام لم يكن من الممكن حصره فى الإطار العربى أو الشرق الأوسطى ، وإنما لابد وأن يدرس على سعة شريحته ، وهى فى المقام الأول آسيوية ، ثم عربية أفريقية ، وبالتالى عالمية .

نخلص من هذا التناول السريع لعلاقة طه حسين بالبعد المباشر لتراث الحضارة المصرية ، البعد الاسلامى ، أنه حاول أن يؤقلم بين هذا البعد وبين ما رأى أنه مقتضى الأمر فى مجال فلسفة التاريخ ، وقد أصاب هنا إلى حد بعيد ، لم يدرك الجديد ، وظلت الوضعية هى المنهج . فالتراث ليس ردة إلى الماضى ، وإنما هو امتداد

الماضى إلى الحاضر الحى ، واستشراف لأبعاد المستقبل . لم يذهب طه حسين إلى هذا النحو ، ولكنه ألمح إليه فى الكثير من كتاباته ، وخاصة فى » حديث الأربعاء » (١٩٢٦) ثم «دعاء الكروان» (١٩٣٤) ، وأخيرا «الوعد الحق» (١٩٤٧) ، مرورا بثلاثية «الأيام» (١٩٢٧، ١٩٣٩ ، ١٩٧٢) .

٢ – الرسالة الثانية ، ولعلها جوهر حياة وبذل طه حسين ، كانت في تحديد فلسفة وسياسة ثقافة مصر الوطنية .

مرة أخرى نعود إلى العصر ، لنتفادى الأحكام البعدية المتعجلة. كان العصر فى المقام الأول هو عصر تأكيد شخصية مصر ، عصر الحركة الوطنية من أجل الاستقلال والسيادة ، عصر التحرر وإقامة معانى الحياة الديمقراطية على أرض الوطن . وقد أكد طه حسين فى جميع كتاباته ، على مدى العمر وفى كافة القطاعات والمناسبات ، شخصية مصر الحضارية المتفردة : الفرعونية ، القبطية ، ثم الاسلامية منذ القرن السابع .

ورأى أن هذه الشخصية فى حاجة إلى ثقافة عصرية ، ليبرالية، تواكب روح العصر – والعصر في نظره ، كما رأينا ، يتمثل فى التقدم الأوربى شمال البحر الأبيض المتوسط . نعم ، لقد بدأت الأنظار تتجه إلى الولايات المتحدة منذ الثلاثينات . ولكن طه حسين ظل رجل الثقافة الأوربية ، وجذورها اليونانية التى استشعر أنها

امتداد وتطوير للحضارة الفرعونية - وليست الأصل كما ظن الكثيرون ، وهو رأى أكدته البحوث الموسوعية التجديدية التى قام بها منذ سنوات قلائل العالم البريطانى الشاب « مارتن برنال » فى كتابه الموسوعى « أثينا السوداء - الجذور الأفرو-آسيوية للحضارة اليونانية » . وراح طه حسين يؤكد أن التماثل بين الثقافة المصرية الحديثة وثقافات أوروبا لا يمكن التفريق بينها بوضوح فهى وكأنها من طراز ، أو نسيج متقارب ، إن لم يكن واحداً . ومرة أخرى الأصول اليونانية ، امتداد للأصل الركين : حضارة مصر الفرعونية .

ويضيف طه حسين أن هذه الثقافة المصرية ، والوطنية فى المقام الأول ، لابد وأن تتسم بالصبغة الديمقراطية ، الليبرالية ، أى أن تقوم على ركائز المنهج العقلى ، والفكر العلمى ، والذى لم يستشعر أبدا أنه مضاد للدين ، أو مقابل له ، وكأن المسألة نسيج واحد وكل مترابط - كما هى بالفعل - كما بدت للغالبية العظمى من مثقفى مصر قبل تفجير الصراعات فى الستينات بعد حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

يتساءل الكثيرون اليوم ، وخاصة شباب مصر ، عن موقع طه حسين من البعد العربى ، ولا نقول العروبة . كان طه حسين مرة أخرى ، جزء من عصره ، من التكوين المجتمعى السياسى الثقافى

لمصر المعاصرة قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . كانت مصر حتى ذلك الحين تؤكد إنها الوطن الوحيد لكل المصريين ، وهذا المعنى يعبر عنه شعار الوحدة الوطنية ، وإنها جزء لا يتجزأ من الأمة الاسلامية بطبيعة الأمر . وقد رأى حزب الوفد أن يتجه إلى دائرة تحرك تدعم سياسته الاستقلالية ، واستشعر أن دائرة العالم العربى ، هى أقرب الدوائر لنا ، من حيث توحد الثقافة ، واللغة ، وكذا ظروف كثيرة متشابهة ، وخاصة فى منطقة الشرق الأدنى ، الشام بالتعبير الشعبى . وقد اتفقت هذه الرؤية مع مصالح الرأسمالية الصناعية والمصرفية الوطنية ، بقيادة مجموعة بنك مصر حول محمد طلعت حرب ، التى رأت فى السوق العربية امتدادا طبيعيا لقاعدتها المصرية . من هنا كان قرار الوفد بإنشاء «جامعة الدول العربية» عام ١٩٤٥ فى الأسكندرية - لا تلبية لمخطط بريطانى ، كما أدعت بعض الدوائر الاستعمارية المنافسة لانجلتراآنذاك ، وإنما تلبية لمصالح مصر دولة واقتصادا وثقافة ، لوجدان شعبها ، واحتياج مصر الملح إلى الحليف القريب لفك الحصار المضروب على أراضيها . كان هذا جو العصر ، وهذه ، على وجه التحديد ، النظرة المصرية إلى العالم العربى ، وهى النظرة التى أكدها «الميثاق الثقافى » لجامعة الدول العربية التى نص فى بنده الأول على أن «كل من يتكلم العربية عربى» . أى أن المفهوم مفهوم قومى -

ثقافي، ينبنى على وحدة الثقافة ، وليس مفهوما قوميا – سياسيا ينبنى على وحـدة الوطن ، ومن ثم الولاء لمركزه ، الـدولـة العربيـة المتحدة .

كان الجو المصرى – من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، حـول الوفد – يشـارك فى هذه النظرة ، مع بعض التنوع هنا وهناك : فالتحرك المصرى السياسى من أجل النهضة الحضارية إبتداءً من ١٨٠٥ بقيادة محمد علي وصحبه كان يهدف لإعادة قوة مصر ومجدها العتيد ، ثم الإنطلاق لدعم الخلافة الاسلامية العثمانية المتدهورة ، وذلك لمواجهة أوروبا الضاغطة ، القاهرة ، التى رأى محمد على أنه لابد من وقفها عند حدود العالم الاسلامى ، ومصر فى قلبه . وكان لإبراهيم باشا ، سارى عسكر جيوش مصر آنذاك ، الفضل فى إدراك أنه لابد من تعريب لغة الجيش والقيادة ، لصـهره أداة فعالة من أجل هذا الهـدف لا لـ « تحرير» ولا نقـول « توحـيد » العـالم ، أو الأمة العربية . كانت النظرة مصرية – إسلامية ، فى مواجهة العدوان الأوربى .

وقد استمر الموقف هكذا فى أجواء الحزب الوطنى الأول . ثم تطور الأمر فى ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩ – ١٩٢٣ بقيادة الوفد ، وقد لعبت مجموعة بنك مصر دورا هاما فى توجيه الأنظار إلى أهمية البعد العربى ، داخل إطار الدائرة الحضارية الإسلامية ، بوصفه البعد الأقرب إلى التحرك السياسى الخارجى المصرى .

وفى كلتا الحالتين ، أو المرحلتين - المرحلة الأولى لنهضة مصر الوطنية بقيادة محمد على ، المرحلة الثانية للنهضة الوطنية بقيادة الوفد ، ثم جمال عبد الناصر - ظلت الدائرة النيلية - الأفريقية هى الخط الحياتى الأول لسياسة مصر الخارجية : فالسودان جنوب الوادى حقيقة وامتداده نحو منابع النيل ، لا حياة لمصر بدون النيل، لا تواجد لأفريقيا الفعالة بدون مصر .

معان توارت منذ ١٩٥٢ لأسباب متعددة ، ولكنها لا تزال فى قلب الواقع والوجدان ، لا تنثنى .

قد استطاع طه حسين أن يفك الحصار المضروب من حوله بعد معركة «الشعر الجاهلى» ، وأن يتولى المركز السياسى الأول فى وزارة المعارف العمومية ، مركز المستشار الفنى ، إلى أن تولى الوزارة فى حكومة الوفد ، فوضع معانى كتابه الهام «مستقبل الثقافة فى مصر» (١٩٣٨) - وهو الكتاب الوحيد لإستاذنا العميد الذى لم تصدر له طبعة جديدة على أرض مصر حتى اليوم - مكان التطبيق . فى عهده أصبح لجامعة القاهرة ، فؤاد الأول سابقا ، المكانة المرموقة على مستوى عالمى ، وهو أمر يصعب تصديقه اليوم بعد ما أصاب عموم جامعاتنا من مصاعب ومشاكل من جراء نزيف هجرة العقول من صفوة رجال هيئات التدريس من ناحية ، وبفضل الضغط العددى الهائل على المدرجات والفصول ، مما غير الصورة

تماما (من يصدق ، مثلا ، أن كلية الآداب بجامعة القاهرة كان بها ستة كراس للأساتذة قبل الحرب العالمية الثانية ؟ ..) . كان الرجل هو العلم . وقد إلتف حوله رجال أعلام : عبد الرزاق السنهورى ، على مصطفى مشرفة ، نجيب محفوظ ، وعشرات من الذين رفعوا مكانة مصر عالميا فى كل قطاعات العلم والمعرفة إلى درجة يستشعرها المبعوثون وشباب الاساتذة اليوم فى رحلاتهم الخارجية - وكأن هناك تراثاً غائبا انكسر ، وقد يعود ، تراث صاحبه ومحركه الرائد أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين .

وكان لتطبيق أفكاره فى مجال التعليم الابتدائى ، وخاصة الثانوى ، أهمية خاصة ، اذ أصبحت السنة التوجيهية بمثابة السنة الاعدادية للجامعة ، فى مستوى رفيع لا يقل عن مثيلاتها فى مختلف الدول المتقدمة . وكان أيضا همزة الوصل بين أعضاء هيئات التدريس وعالم الصحافة والاذاعة ، كما أنشأ أهم مجلة ثقافية فكرية فى تاريخ مصر هذا القرن ، « الكاتب المصرى » ، التى حاولت مجلة « المجلة » ، برئاسة صديقه وتلميذه الراحل الكبير الدكتور حسين فوزى ، أن تستعيد روحها بعد السويس وعودة الجبهة الوطنية المتحدة إلى الوجود فى رحاب وزارة الثقافة الأولى لثورة مصر الوطنية ابتداءً من ١٩٥٦ .

وفى هذا كله ، ظل العالم الاشتراكى بعيدا عن النظر : الاتحاد

السوفيتى ، قاهر النازية ، نصير المعذبين فى الأرض ، بعد غائب فى إنجاز سياسات التعليم والثقافة الوطنية فى مصر . أما الصين، صين المسيرة الطويلة ، فقد ظلت بعيدة تماما عن الادراك وكأن «طريق الحرير» لم يتواجد ، وكأن مصر لم تكن صاحبة الفضل فى احاطة ابن خلدون بالرعاية التى مكنته من صياغة تاريخ العالم وكأن ابن بطوطة لم يكن همزة الوصل الأولى ، الكبرى بين مصر وعالمنا العربى من ناحية وآسيا الوسطى والصين من ناحية أخرى . كان عالم مازال يتمركز حول البحر الأبيض المتوسط والنيل . عالم مباشر ، حياتى حيوى بالنسبة لتحرك مصر وصياغة ثقافتها الوطنية . عالم قاصر ، مادام يستبعد مصر عن إطارها التاريخى التكوينى الحضارى ، ألا وهو عالم الشرق الذى أدركه جمال عبد الناصر فى نظرته السـياسـية الفذة ابتداء من مؤتمر باندونج (إبريل ١٩٥٥) .

ومع هذا ، فقد شاء الخصوم أن يركزوا على التباعد بين فلسفة الثقافة الوطنية لطه حسين ، المصرية المتوسطية المتجهة إلى أوروبا وحوض النيل - متناسين أن طه حسين شارك غيره من رجال عصره، وكان مع رجال حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وعدد كبير من وجوه اليوم فى عدم إدراك أهمية العلاقة التاريخية العضوية التكوينية بين حضارة مصر السبع ألفية من ناحية وحضارات الشرق الشامخة ،

حول الحضارة الصينية ، أى الدوائر الثقافية اليابانية والآسيوية الشرقية ، والمالية فى جنوب شرق آسيا ، ثم الحضارة الوسيطة فى نصف القارة الهندية ، والحضارة الماغولية فى آسيا الوسطى ، ثم حضارة الفرس فى إيران المعاصرة . مازلنا نتحرك فى إطار المفاهيم الموروثة من عصر التبعية ، رغم «باندونج» ورغم مكانة مصر فى إنشاء الحركة الأفريقية - الآسيوية ، ثم حركة تضامن القارات الثلاث .

٣ - الرسالة الثالثة كانت المشاركة الفعالة فى الحركة الوطنية ، فى تحرير مصر ، مصر الأم ، مصر الأمة ، مصر الشعب .

لم تكن الوزارة فى مرحلة حكم الوفد الأخيرة مشاركة إدارية فى عمل إجرائى تقليدى ، كانت هذه هى أيام المعركة ضد الاحتلال البريطانى ، التى انتهت بإحراق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥١ ، ثم انطلاقة الضباط الأحرار إلى انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعد نصف عام من الأحكام العرفية . كانت هذه المرحلة التى حركتها منذ الأربعينات «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» ، فى علاقة تحالف عضوية بشباب حزب الوفد وقطاعات واسعة من شباب الجيش والأخوان المسلمين ومصر الفتاة والحزب الوطنى ، حول البوتقة القيادية الشيوعية . كانت هذه حكومة الوفد التى استطاع فيها وزير للخارجية ، الدكتور محمد صلاح الدين ، بعد أن حاصره الطلبة بشعار « نريد السلاح ياصلاح » ، أن يحمل مجلس الوزراء

على نقد معاهدة ١٩٣٦ ، توطئة للثورة والعمل الذى أطاح بحكومة الوفد ، ربما أكثر من حريق القاهرة .

وقد عبر طه حسين عن هذا الجو الملتهب فى مجموعة مقالاته «المعذبون فى الأرض» (١٩٤٩) .

حقا ، لقد شارك طه حسين بشكل مباشر فى تحريك الشعور الوطنى من أجل التحرر والديمقراطية والتقدم . وفى هذه المرحلة بدأ يقترب من اليسار المصرى ، وقد اجتمعت طلائعه فى مجموعة من المنتديات السياسية - الثقافية المرموقة التى كونت الرأى المصرى وطرحت الاشكالية المصرية فى اتجاه وطنى ديمقراطى تقدمى لم يتزحزح : « دار الأبحاث العلمية » « لجنة نشر الثقافة الحديثة » ، مجلات « الفجر الجديد » و« أم درمان » وكذا صداها فى « المصرى » و« الوفد المصرى » . مرحلة كبيرة صاغت فلسفة ومحاور تحرك الجبهة الوطنية المتحدة متجهة بطبيعة الأمر إلى انجاز ثورة مصر الوطنية الديمقراطية حتى جاءت حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فاتجه المسار إلى طريق آخر ، يواكب معانى الطريق الأول ، ولكنه يرفض بشكل أساسى مفهوم الديمقراطية ، ولا يقترب من الجبهة الوطنية المتحدة إلا بحذر ، مفضلا حركات القمع المتتالية التى أضعفت الجبهة الداخلية وفتحت صفوف الوطن لضربات الصهيونية فى أيام يونيو ١٩٦٧ السوداء .

***

لم اذن هذا الضجيج الذى يرتفع اليوم حول طه حسين ورسالته؟ وهل يمكن تُرى أن تفسره بوصفه تعبيراً عن « تناقضات » الرجل العلم ؟ أم أن هناك أبعاداً أكثر عمقاً وأهمية ؟

المعركة الأولى ، معركة الأصولية والتحديث فى دائرة فهم الاسلام فى عصرنا – معروفة بما فيه الكفاية . وهى حقيقة ليست بيت القصيد فى عرضنا اليوم .

وعندنا أن المعركة الثانية كانت هى بداية تأزم سمعة طه حسين فى أوساط واسعة من الجيل الجديد . فقد رأى العديد من رجال حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، التى تحولت إلى ثورتنا الوطنية ، ثم الاجتماعية فى مرحلتها الثانية ، إن طه حسين يرفض الوحدة العربية ، أى البعد العروبى ، متمسكا بالوطنية المصرية التقليدية . وقد شرحنا بإيجاز ما شاهدناه من موقف آنذاك . ولعل هذه المعركة التى لا تزال تترك جراحها إلى اليوم ، فى طريق الإدراك المتعقل ، خاصة بعد النقد الذاتى لجمال عبد الناصر فى أكتوبر ١٩٦١ ، بعد فشل تجربة الجمهورية العربية المتحدة ، وتحول مصر إلى « إقليم جنوبى » ، ثم اعتدال المسار في السنوات الأخيرة . فمصر الوطن جزء لا يتجزء من الأمة العربية ، فى دائرة الحضارة الاسلامية الآسيوية الآفريقية – أى الشرقية ، وهى كذا ، وبطبيعة تكونها التاريخى – الجغرافى جزء لا يتجزأ من أفريقيا ومحوره النيل ، ومن دائرة البحر الأبيض المتوسط ، التى تقف أوربا على شمالها

ولكنما الضـــجة الكبرى بدأت منـذ ســـنوات ، فى مطلع السبعينيات ، عند تقدم الاتحاد الإسلامى فى عموم قطاعات ومستويات الحياة السياسية والمجتمعية والثقافية المصرية ، ردا على ما استشعره من تجاهل تارة ، ثم ، وخاصة بعد ١٩٧٩ ، ردا على الغزوة الصهيونية الأمبريالية العنصرية لأجواء مصر . وكان من الطبيعى ، ومن الممكن ، بل ومن اليسير ، أن يدرك الجميع مكانة طه حسين فى هذا التحرك المشروع الطبيعى : ألم يكن هو الذى أكد العلاقة الأكيدة بين الإسلام والعصر ؟ ألم تكن المعارك المفتعلة التى أثيرت حول محاولاته للتأليف بين التراث والمعاصرة مغايرة تماما لطروح اليوم ؟

أم أن هناك معركة مفتعلة ، أسقطها العدو الحضارى على أرض مصر منذ نهاية السبعينيات ، بغية تقسيم الصفوف بين معسكرين ، لا يمين ولا يسار الأمس ، وإنما «العلمانيون» و«الإسلاميون» وكأن الوطن ثانوى بالنسبة للتوجه المذهبى ، وكأن وحدة الأمة فى المقام الثانى بالنسبة للتوجه الفلسفى الأيديولوجى . معركة نشهدها اليوم بحسرة شديدة إدراكا من الجميع العقلاء والساسة المجربين إنها معركة مفتعلة مصطنعة ، تهدف مرة أخرى إلى تقسيم صفوف جبهتنا الوطنية المتحدة ، لبث الخلاف وتعميقه بين أبناء الوطن ، فى اللحظة التى نحن أحوج ما نكون فيه إلى تعبئة كافة الطاقات

الوطنية ، إلى جمع جميع المدارس التكوينية للفكر والعمل من أجل وقف التردى ، وإعادة التقدم فى طريق صياغة مشروع مصر الوطنى الحضارى الكبير ، فى قلب أمتنا العربية ، فى قلب الدائرة الحضارية الاسلامية الآسيوية الافريقية ، فى مواكبة المحاولات المماثلة من معظم الدوائر الحضارية والثقافية التى بدأت تستشعر مأزق المشروع الحضارى الغربى . فالإنسان لا يحيا من أجل الإنتاج بلا حدود ، والإستهلاك بلا حدود ، والمتعة بلا حدود ، الإنسان لا يحيا بالماديات فقط ، دون المعانى الروحية ، والدينية ، والفلسفية ، الأخلاقية ، فالحياة بدون قيم ، لامغزى لها . الحياة البهيمية القائمة على مفهوم التنمية الميكانيكى ، أدت بالامبريالية إلى الانحسار فى كل مكان ، وأدت بالأنظمة الاشتراكية التى حاولت أن تواكبها إلى التأزم .

فالثورة الروحية لابد وأن تواكب الثورة الاجتماعية السياسية . موضوع كبير يشغل اليوم المكانة المركزية فى تجديد الفكر العالمى ، فى مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد .

***

عود إلى مصر إذن ؟ ..

عود إلى مصر بكل المعانى وكافة المستويات . فكرا وعملا . إيمانا وعقلا . تحررا ووحدة . عصرية وتراثية حية .

عود إلى مصر اذن . ومن هنا مكانة ومقام طه حسين . كان الرجل، وسيظل فى رأينا ، الممثل الأول ، والأكثر بروزا ، للتشابك الجدلى المركب ، شديد التناقض ، عميق التوحد ، لشخصية مصر الحضارية ، منذ صياغتها ، وعبر عصورها الحضارية الثلاثة الفرعونى ، والقبطى ، ثم الإسلامى العربى الحديث . فإذا أردنا أن ننصف الرجل ، وكلنا هنا ممن يدينون له بالعلم والفكر والمحبة والاحترام والإعزاز ، إذا أردنا أن ننصف طه حسين فلابد ، نعم ، أن ننصف مصر .

لم يكن ممثلا لتراث ماضٍ حاول أن يتعصر . ولم يكن كذلك رائدا ومنــذرا للمســتقبل الثــورى المتغير . كان رجــل المرحلة الوسيطة : مرحلة الانتقال من عصر التبعية السياسية والفكرية والثقافية إلي عصر التحرر السياسى والثقافى والفكرى . وكان رجل هذه الوساطة فى مرحلة تاريخية لم تتضح بعد من خلال تحركاتها معالم ومحاور المستقبل . مازال العالم آنذاك يتمركز حول الغرب - أوروبا ثم أمريكا الشمالية . لم يكن البعد الشرقى واضح المعالم كما هو اليوم ، إبتداءً من مرحلة ١٩٤٩ - ١٩٧٣ . لم تكن دوائر تحرك مصر الثلاث : العربية - الأفريقية - الإسلامية - محل إجماع . لم يكن فى مقدور أحد أن يتصور بوضوح مسارات المستقبل ، وكم تعددت : من جبهة وطنية متحدة أجهضت إلى انقلاب عسكرى تحول

إلى ثورة وطنية ، ثم إجتماعية شاملة ، ثم تردى إلى تبعية للنفوذ الأمريكي ، رغم عبور أكتوبر الذى هز أركان النظام العالمى ورفع رأس مصر عالية إلى محاولة التضبيط ، وتحديد المسار الواقعى الممكن ، مرة أخرى فى قلب نظام عالمى ثنائى القطبية بدأ يتزعزع يوما بعد يوم بينما لم تتضح بعد – على الأقل لدى الكثيرين على أرض الوطن – معالم تكون العالم الجديد .

عود إلى مصر ، ليس إنصافا لاستاذنا الجليل ، وإنما ، نعم ، إنصافا لطلائع مصر التى عاشت وعملت وحاربت وأنتجت فى سبيلها ومن أجلها – وفى طليعتها رجال ونساء يدينون لأستاذنا الجليل بغزير المعرفة ، ويكنون له فى قلوبهم وأفئدتهم رغم تباين وجهات النظر والمخططات السياسية ، المحبة ، والاعتزاز ، والإجلال.

عاش ومات فى سبيل مصر . كانت رسالته دوما العود إلى مصر ، تأكيدا لمكانتها ومقامها ، والعمل من أجلها ، تحقيقا لريادتها الحضارية . من حقه إذن علينا أن نعتبر .

***

الفصل الثامن

فى أصول المسيرة الطويلة ...

يحتفل قلب مصر ووجدانها وعقلها وفكرها وإرادتها بالذكرى الثلاثين لاستشهاد شهدى عطية الشافعى ، الذى كان للحركة الوطنية والتقدمية جمعاء الرائد والأستاذ العلم ، الوجه المضئ ، جامع الشمل ، موحد الصفوف ، الساعد الأول والأقوى فى بناء الجبهة الوطنية المتحدة منذ فجر الأربعينات حتى يوم رحيله الدامى.

الآثار المكتوبة ، أو على الأقل المنشورة بشكل مبتور من جراء الرقابة السياسية آنذاك ، قليلة ، وإن كانت بالغة الأثر تاريخياً فى مسار مصر المعاصرة . الأوراق المتناثرة نادرة . أما الذكريات ، ذكريات جيل الأربعينات والخمسينات وحتى مطلع الستينات ، فهى عارمة تكاد تحاصر ، تكاد تخترق حصار الحنين المأساوى لرجل حفر أنيابه فى قلوب كل من قاده وعلّمه ، فى طريق التحرر والديمقراطية والتقدم . ورغم هذا ، فقد شاهدنا فى العديد من الأحيان ، وبشكل متصل متعاقب يزداد بين الحين والحين أهمية ، جماعات واسعة من الأجيال الشابة تلتف حول ذكراه وفكره ، تتساءل : أين هو ؟ كيف استطاع أن يؤثر ويوجه بهذا العمق وهذه

الأصالة ؟ ثم : ما العمل ؟ الرجل رائد لا يزال . وفكره موجه لايزال. ومسيرته مثلاً أعلى لا تزال ، رغم الظلمات ، والندرة ، والغياب . وكأنه بحق رائد الجيل المغيب الذى لم يغب . وكأنه حقا الوجه المشرق للإشراقة التى لم تتحقق ، وإنما تناثرت بذورها هنا وهناك فأحيت زهوراً متفرقة تمثل بحق إيجابية مرحلة ١٩٤٠-١٩٧٣ على أرفع مستوى وأنصع صورة .

فكيف يمكن أن يكون إذن المدخل إلى إدراك هذا الأثر الهائل ، لحياة ومسيرة وإستشهاد هز أرجاء مصر والعالم العربى والعالم الإشتراكى والرأى العام العالمى ؟

نقطة البداية ، وهى الركيزة لكل ما أنجزه شهدى رائداً ومعلماً وقائداً ، ألا وهى حب الوطن ، نقطة البداية فى انتقاله من بعثة إنجلترا بجامعة اكسترا عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ على آخر مركب أقلته إلى مصر ، بعد إعلان الحرب ، بغية ألا يفارق شعبه فيما استشعر أنه سوف يكون موعداً مع القدر ، حركة تحررية ثورية تطيح بكابوس الاستعمار البريطانى المسلح ، والرجعية المتآمرة معه ، فى طريق إقامة نظام وطنى ديمقراطى يفتح الطريق أمام الثورة الاجتماعية صوب الاشتراكية .

حب الوطن الذى وجه خطاه مع صفوة من أنبغ طلائع شباب مصر المثقف والعامل فى مطلع الأربعينات إلى إدراك أنه لابد من

تعبئة هذه الصفوة ، إنطلاقاً من حب الوطن ، بهدف تكوين كوادر مصر الغد فى الوقت الذى لم تكن فيه هناك مدارس كادر فى الأحزاب القائمة ، والذى لم تسع فيه المؤسسات الحكومية والرسمية المزدهرة آنذاك ، حول جامعة فؤاد الأول وبوتقة الجمعيات العلمية المنتعشة حولها إلى هذا المنحى . من هنا كانت فكرة تأسيس « دار الأبحاث العلمية» التى انطلقت منذ ١٩٤٢-١٩٤٣ بقيادته ، وأصبحت فى سنوات قلائل ، مدرسة كادر سياسية وفكرية وعلمية وتنظيمية وإنسانية على أرفع مستوى مصرى وعالمى ، ومن حولها كوكبة النوادى والهيئات السياسية والثقافية : «لجنة نشر الثقافة الحديثة» ، مجلة «الفجر الجديد» ، مجلة «أم درمان» ، وما واكبها فى شبيبة الوفد . كانت الركيزة التكوينية التى سعت إلى تنقيب آفاق المستقبل الممكن ، فكانت ملتقى للجيل القديم من رجال السياسة الوطنية والتقدمية فى مصر ، من عصام الدين حفنى ناصف إلى الدكتور محمد مندور ، من إسماعيل الأزهرى إلى عزيز فهمى ، من سلامة موسى إلى العديد من وجوه التنظيمات الثورية المواكبة للحركة التقدمية المصرية ، بحيث تدفقت هذه الكوادر - منطلقة من هذه القاعدة - إلى إرساء دعائم الجبهة الوطنية المتحدة على شكل اللجنة الوطنية للعمال والطلبة عام ١٩٤٦ .

لم تكن هذه اللجنة تجميعاً للشيوعيين ومن صاحبهم . بل كانت ، ولأول مرة فى تاريخ مصر ، لجنة منتخبة إنتخاباً ديمقراطياً على

المستوى المصرى : فالمندوبون جميعهم منتخبون من كافة مستويات إتحادات الجامعات ، وطلاب المدارس الثانوية والفنية ، وكذا من جميع نقابات مصر على تنوع وجهاتها وقطاعاتها ، بحيث جاءت «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» بلجنة منتخبة على المستوى الوطنى بحق وجدارة ، بها أقلية من الشيوعيين الرواد وأغلبية من زملائهم الوطنيين الثوريين المنتخبين بإنتخاب حر على كافة المستويات وفى جميع القطاعات ، عالم العمال والعلم على أرض مصر المحتلة ، كان لابد لهذه اللجنة من فكر وبرنامج . كان لابد لها من مشروع وطنى يؤلف بين مكوناتها المختلفة ، ويجمع بين أحلامها ، وطموحاتها وتوجهاتها المتباينة ، وكذا برامجها السياسية على تنوعها . ومن هنا جاء كتاب « أهدافنا الوطنية » فى ربيع ١٩٤٦ صادراً عن « دار الأبحاث العلمية » بقلم شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى ، الوجهين القياديين للدار آنذاك ، باسمهما ، واسم لجنة الإدارة المنتخبة التى كانت تتولى توجيه « دار الأبحاث العلمية » .

وسرعان ما أصبحت صفحات وأفكار ورسائل وتوجيهات أهدافنا الوطنية هى المشروع الوطنى الذى تبنته «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» بوضوح الرؤية ، وعمق فهم العروة الوثقى التى تجمع بين ضرورة التحرر الوطنى ، والتعديل الجزرى لأركان وتوجهات الحياة الاقتصادية ، وكذا النظام المجتمعى ، وأهمية إقامة ثقافة وطنية مصرية تقدمية تجمع بين أصالة مصر السبع ألفية

ومعانى الفكر العلمى والعقلانية وتدخل العالم المعاصر الذى بدأ يتشكل بعد إنتصار القوى الإستقلالية والإشتراكية فى الحرب العالمية عام ١٩٤٥ .

وكان طبيعياً أن يتجه شهدى بعد الحملة التى وجهها إسماعيل صدقى باشا يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦ ضد الحركة الشيوعية الوطنية الديمقراطية إلى تعميق الطرح الوطنى لكافة القضايا والتحركات ، وقد أصبح دون منازع الوجه العلم لثورة مصر المتصاعدة . ومن هنا كان نضاله من أجل تحقيق مصر الحركة الشيوعية والتقدمية المصرية ، وتوكيد كافة أركان الوطنية بها ، وربطها على أوسع مدى بقواعد التنظيمات الوطنية الكبرى المواكبة لها ، على تبيانها ، وفى مقدمتها شباب الوفد ، والقطاعات الثائرة فى قواتنا المسلحة ، ومن بينهم نواة « الضباط الأحرار » ، وكذا الجماهير الشعبية الملتفة حول الاخوان المسلمين من منطلق وطنى حضارى .

تاريخ شهدى فى هذه السنوات كان بحق تاريخ مصر . وكل من سعى إلى تأريخ الحركة السياسية وكذا الحركة الوطنية على وجه التحديد فى مصر المعاصرة ، يلقى شهدى صفحة بعد صفحة حياً رائداً فى كافة أرجائها لحركاتها وطموحاتها ، قائداً فاتحاً لجميع ريادأتها ، وكأنه حقاً على موعد مع القدر ، قدر مصر التى بدأت تدخل عصر الثورات والثورات المضادة للحروب ، وقدره هو ورفاقه

المأسوى . لن نسهب هنا : فالكتب والمؤلفات والرسائل الجامعية والدراسات والمقالات تتزاحم بالمئات اليوم ، ومن خلف الزوايا ، وهى تؤكد هذا المعنى بصدق ، وتدعمه بالمستندات والرؤى التحليلية المتنوعة التى ربما لم تكن كلها واردة لدى العاملين حول شهدى ذاك فى خضم المعارك الثورية المتأججة ، وقد بدأت رياح القمع تزداد شراسة ، مما أودى به إلى سنوات طويلة قاسية من الأشغال الشاقة فى ليمان طره ، وظلت تلاحقه خلال سنوات الحرية المعاصرة المحدودة ، حتى جاء موعد المذبحة فى ١٦ يونيو ١٩٦٠ .

من حب الوطن ، والإنتماء المصيرى لشعب مصر على أوسع مدى جاءت الفكرة المحورية ، التركة التاريخية حقيقة لشهدى عطية الشافعى إلى حركتنا الوطنية المصرية ، وفى قلبها الحركة التقدمية بكافة فصائلها . كان لابد من تعبئة جماهير شعب مصر العامل أولاً ، وكذا مختلف الطبقات والفئات الإجتماعية الوطنية إلى أوسع مدى ، بإستثناء الأقلية المتعاونة تعاوناً عضوياً مصيرياً مع الاستعمار آنذاك. كان لابد من هذه التعبئة لسبب واضح بسيط كان يسهب فى التدليل عليه ويؤكد مركزيته فى كل تحرك وطنى جاد ، ألا وهو أن الوطن المقهور ، المحتل ، المحاصرلابد له أن يتخطى كافة عوامل التفرقة الداخلية ، ويزيلها بوعى وصبر ومثابرة ، بحيث يستطيع حقيقة أن يحدث تعبئة وطنية شاملة أو تكاد . فالتعبئة

الوطنية الشاملة ، وحدها ، هى التى يمكن أن تمكن مصر من الحصول على أكبر قدر من الذكاء الإجتماعى والسياسى ، والإمكانات المادية والمعنوية ، وكذا ثراء تنوع الرؤى التى تصب فى قنوات الحركة التحريرية والوطنية الديمقراطية . ليس لنا أن نقيم الحواجز بين الطروح المتنوعة ، ليس من شأننا أن نتصومع فى دوائر مغلقة متنافرة تندد ببعضها بعضاً .ليست رسالتنا أن نقبل العديد من الأفكار المتداولة فى المجال السياسى التقليدى القائم على أساس رفض الحوار الخصب مع مختلف التشكيلات والفصائل والمدارس الفكرية المنطلقة أيضاً من حب الوطن ، والمتجهة إلى تحقيق أهدافنا الوطنية عبر مسالك ودروب مغايرة ، متباينة ، وأحياناً فى نواح معينة مضادة لتوجهات الحركة التقدمية .

بل وعلى العكس تماماً : فإن رسالة الحركة التقدمية ، والشيوعيين المصريين ، لابد وأن تكون دوماً آخذة على عاتقها تخطى هذه العقبات ، وإزالة الجدران الإصطناعية وبناء جسور الحوار والتفاهم والعمل المشترك البناء ، تدريجياً ، ولو فى حدود ، إيماناً منها بأن الإحتلال والحصار والإنكسار يقتضى بإستمرار توسيع الرقعة الداخلية إنطلاقاً من حب مصر ووحدة مصر وأولوية مصر فى إهتمام كافة مدارس الفكر والعمل العاملة من أجلها .

رهان بالغ الأهمية ، بالغ الدقة . رهان عبقرى على إيمانية الشعب المصرى بمصريته ووطنيته ووحدته وأولويته بالنسبة لكافة الطروح الأخرى ، فى مواجهة الإستعمار العالمى والرجعية ، وفوق هذا وذاك فى مواجهة الصهيونية التى ظهرت فى أفقنا حول قرار التقسيم الصادر من الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ ، وكان شهدى على رأس القطاع الأوسع من الحركة الشيوعية والتقدمية المصرية الذى رفض رفضاً قاطعاً هذا القرار واعتبر أن أهدافنا الوطنية تقتضى أولاً وقبل كل شىء حماية دائرة أمتنا العربية ، وكذا حدود مصر الشمالية الشرقية من هذا الخطر الجديد ، وقد أدرك هو وصحبه آنذاك أن هذه القلعة الصهيونية سوف تكون ترسانة النفاذ إلى قلب مصر والعالم العربى للتفرقة والدمار بالسيف والنفاق والتسلط والإغراء الزائف .

وقد اتخذ هذا التوجه المركزى الذى صاغه شهدى وقاد التحرك لإنجازه ، صورة شعار « الجبهة الوطنية المتحدة » وهو صلب كتابه الوحيد المنشور بشكل مبتور للغاية (فقد شطبت الرقابة السياسية ٨٢ صفحة من الكتاب ...) : « تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢-١٩٤٦ » .

إن مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة الذى طرحه شهدى رائداً وقائداً آنذاك كان حقيقة بمثابة الخط العام التاريخى للحركة

التقدمية والشيوعية المصرية عبر تاريخها المشرق والمأساوى ، ورغم ما أصابها من تفرقة وتراجع بل وتردى ، وهى فى كل مرة تتخطى وتواصل وتضبط المسار متمسكة ، دوماً ، بهذا الطرح الواسع الذى جعل لها حقيقة تأثيراً ونفوذاً أوسع بكثير من حجمها الفعلى لدى الجماهير الشعبية والطبقات والفئات والتنظيمات الوطنية من أوسع الأبواب .

وهنا لابد أن نلحظ أن الفارق شاسع بين الخط العام التاريخى لأية حركة سياسية ، أى لأى مدرسة فكر وعمل متأصلة على أرض الوطن وفى قلوب أبنائه والجماهير الواسعة ، وبين الإستراتيجية والتكتيك التى تندرج من هذا الخط العام ساعية إلى تحديد الأهداف المرحلية ، وكذا وسائل التنفيذ والتحرك على تنوعها .

شهدى عطية الشافعى رجل صياغة الخط العام التاريخى . منه ، من هذا الخط ، تحركت الحركة التقدمية والشيوعية المصرية فى قلب حركتنا الوطنية دون كلل ، بحيث اعتبرها الكثير تاجاً على رأس هذه الحركة ، ورمزاً باهراً لها ، رغم ما أصابها فى الكثير من الأحيان من إنزواء واضمحلال وذبول .

ذلك أن الإنجازات الواقعية بل وكذا الإستراتيجية والتكتيكية قد تصيبها الضربات والخلل ، وكذا وبطبيعة الأمر الإنحراف أو الإنزواء أما الخط العام التاريخى فهو الخيط الموجه لإستمرار المسيرة

الطويلة بالمرحلة التاريخية كلها ، مرحلة التحرر من الإمبريالية والصهيونية ، ،التبعية ، والتردى المجتمعى والثقافى والحضارى .

الخط العام التاريخى لا ينكسر .

***

دروس من الذكريات ، وإن كنا لسنا فى مقام الذكريات أو المذكرات .

كيف استطاع شهدى أن يجمّع ، ويوحد ؟ كيف استطاع أن يغزو القلوب ، ويقنع الخصوم ؟ كيف إستطاع أن يظل حياً عبر التعذيب والإستشهاد ؟ وفى كلمة : كيف كانت مداخل شهدى عطية الشافعى إلى الألباب المصرية ؟

نقطة البدء ، مرة أخرى ، كانت دوماً حب الوطن والإنتماء العميق إلى شعب مصر . المفاتيح ، المداخل ، الأسلوب من أرض مصر ووجدان شعبها . الذكاء اللماح والنظرة البصيرة المدققة . وزن الأمور بميزان العقل والوجدان معاً . الإتجاه الدائب والمستمر إلى التاليف بين القلوب ، والتغلب على عوامل التفرقة ، والإنصات بإمعان إلى كل ماينير طريق التغلب على العراقيل الإصطناعية . كان شهدى حقيقة ، وبكل معانى الكلمة ، رجل الألفة ، رجل التجميع ، رجل الحب الصادق ، رجل الوفاء حتى آخر لحظة من

لحظاته ولا أظن أن هناك شخصاً واحداً ممن إلتف حوله أو إلتقى به ولو مصادفة ، إلا ويشهد على صحة هذا الكلام .

صفة ثانية تعلمها شهدى من شعب مصر العامل ، من ريف مصر ومصانعها ومدارسها ، ألا وهى العمل الدائب ، يكاد يكون ليلاً نهاراً ، الجمع بين القراءة والدراسة والكتابة ، ثم العمل التنظيمى ، بشكل أصبح أسلوباً جديداً حقيقة فى عالم السياسة : فالسياسى لم يعد كما كنا نتصوره ، رجل التخطيط والمناورات ثم القيادة الجماهيرية أو الحزبية . ولكنه كان ، وفى المقام الأول ، رجلا يتعلم من الشعب ، يقضى بينه ، كما فعل شهدى ، ساعات كل يوم دون انقطاع فى الأحياء الشعبية يستمع ، ينصت ، يتناقش ، يتندر ، يتعلم ، ثم يعود إلينا بحصيلة وكأنها حقيبة جحا السياسية الوطنية نستمع إليها بإنبهار ، ثم ننطلق بأمر منه نسعى إلى هذا الشعب العبقرى العظيم ، المعلم ، العالم بأمور الدنيا والآخرة ، ووريث التركة الحضارية السبع ألفية ،رجل العبور عبر أطول تاريخ عرفته حضارة فى عالمنا المعمور .

يتعلم منه ، ثم ينكب وأكاد أقول بشراسة ، على الكتب ، والمراجع الرئيسية ، الكتب السياسية ، الكتابات الجديدة التى كانت تدخل مصر بندرة ، ثم بغزارة فى مرحلة ما بعد الحرب الأخيرة . الكتابات المصرية ، العربية ، الأوروبية ، وكذا الشرقية ، وعلى وجه

التحديد كتابات الصين والهند وكانتا فى ثورتين متباينتين - المسيرة الطويلة من ناحية ، وتحرك حزب المؤتمر الهندى ، ماوتسى تونج وصحبه فى مقابل غاندى وأتباعه - يقرأ بشغف وولع وكأنه مدرك أن الأيام معدودة . وكأنه مدرك ، فوق هذا أو ذاك أن العمل السياسى بالمعنى « التقليدى » لاجدوى منه لمواجهة التحدى الحضارى الخانق الذى كان يحيط بمصر .

وعنده أن القائد السياسى ، والكادر السياسى ، وكل عضو يتصدى لخدمة الوطن وشعب مصر ، لابد وأن يكون حقيقة ذلك الفيلسوف - فى - المدينة الذى نادى به أفلاطون وأبو نصر الفارابى ، وألا يولى أدنى إعتبار للتفرقة بين الفكر والعمل ، بين النظرية والنشاط ، بين العلم والإنجاز .

ومن هنا كان توجه « دار الأبحاث العلمية » على وجه التحديد ، وكذا النوادى والمجلات المواكبة لها ، إلى إكتساب صفوة طلائع طلاب الجامعات وشباب القادة النقابيين والكتاب والفنانين والصحفيين ، إدراكاً من شهدى أنه ، لولاهم ، لاتستطيع الحركة التقدمية أن تقود الحركة الوطنية إلى طريق التحرر وبناء المجتمع البديل ودولته الوطنية الديمقراطية بمعنى الكلمة .

فيلسوف فى المدينة ، فيلسوف من صفوف الشعب . فيلسوف يجمع بين العالم الخارجى وأرض الوطن . فيلسوف يتصف بعمق

التواضع الذهنى والمعنوى والأخلاقى ، والإعتزاز الشديد بالكرامة والأصالة ومعانى القيادة وإلتزاماتها .

– ومن هنا – من تلاقى هذه الروافد الثلاثة لمسيرة شهدى عطية الشافعى – من هنا كان مغزاه التاريخى . لم يكن الرائد العلم الذى أضاء طريق مصر فى مرحلة الإعداد للثورة التحررية وتخطيط مسار مصر الجديدة ، فى بداية مرحلة تغيير العالم ، مصادفة أو إجتهاداً . لم يفرض نفسه ، بل فرضته مقتضيات الظروف التاريخية التى كانت تسعى إلى إيجاد مثل هذا الوجه المتفرد حقيقة فى مجالات السياسة والفلسفة للقيادة الجماهيرية ، وكذا ، وكيف لا ، من حيث عمق إدراكه لمعانى الوجدان الإنسانى والإخاء والوفاء والولاء والمحبة .

كلمات قلائل حول العمل الشامخ الذى قاده شهدى عطية الشافعى ، علماً فى طليعة طلائع صفوف ثورتنا المصرية ، والحركة التقدمية العالمية .

لم يرفرف ، لن ينكسر ، يزداد إشراقاً ، يوماً بعد يوم ، سلاماً إليه سلاماً بين الشهداء ، ناصعاً فى تاريخ مصر وشعوب الشرق الناهضة ، فى مرحلة تغيير العالم وتشكيل العالم الجديد ، وسلاماً عليه بين الشهداء فى عالم الخلود إلى جوار ربه ، وفى قلوب شعبه وأمته.

مصادر الكتاب

* الفصل الأول :

بحث مقدم إلى ندوة « الظاهرة الإنمائية » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (بغداد - ١٩٨٤)

* الفصل الثانى :

ورقة عمل الاجتماع الثانى للجنة الاستشارية للثقافة العربية لمنظمة اليونسكو (تونس ، ٥ - ٩ ديسمبر ١٩٧٧) ، تم نشرها فى مجلة " قضايا عربية " ، المجلد السادس ، رقم ٤ أغسطس ١٩٧٩ - ص ٣٣ - ٤٢ .

* الفصل الثالث :

مجلد " قضايا عربية " ، المجلد الأول ، العدد الأول ، ابريل ١٩٧٤ .

* الفصل الرابع :

بحث مقدم إلى "المؤتمر الفلسفى العربى الأول" كلية الاداب ، الجامعة الأردنية ، (عمان . اكتوبر ١٩٨٣) ، تم نشره فى الطبعة الثانية من كتاب أعمال المؤتمر .

* الفصل الخامس :

بحث مقدم إلى « مهرجان القاهرة للإبداع العربى » (القاهرة ٢٤ – ٢٥ مارس ١٩٨٤) ، تم نشره فى مجلة " فصول " . المجلد الرابع العدد ٣ (ابريل – يونيو ١٩٨٤) ، ص ١١٤ – ١٢٠ .

* الفصل السادس :

بحث مقدم إلى ملتقى « الفكر العربى الحديث وصلاته بالفكر الغربى » (الاندلس ، اسبانيا ، ٧ – ١٢ مايو ١٩٨٤) .

* الفصل السابع :

بحث مقدم إلى مؤتمر الذكرى المئوية للأستاذ العميد الدكتور/ طه حسين – كلية الآداب ، جامعة القاهرة (القاهرة – ١١ – ١٤ نوفمبر ١٩٨٨) .

* الفصل الثامن :

مقال بمناسبة تحية الذكرى الثلاثين لرحيل الشهيد الأستاذ شهدى عطية الشافعى (١٩٦١ – ١٩٩١) ، ولم ينشر فى حينه .

مؤلفات الاستاذ الدكتور أنور عبد الملك باللغة العربية

دراسات فى الثقافة الوطنية – دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٧ .

الجيش والحركة الوطنية – دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٤ .

المجتمع المصرى والجيش (١٩٥٢ – ١٩٧٠) – الطبعة الثانية (المعتمدة من المؤلف) دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٤ .

الفكر العربى فى معركة النهضة – دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٤، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ .

مدخل إلى الفلسفة ، ترجمة وتقديم مؤلف د. جون لويس ، الدار المصرية للكتب ، القاهرة ١٩٥٧ ، الطبعة الثانية ، دار الحقيقة بيروت ، ١٩٧٣ .

نهضة مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .

ريح الشرق – دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

تغيير العالم – عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٥ .

الشارع المصرى والفكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

القومية والإشتراكية (الكتاب الثانى من «الجدلية الاجتماعية») – دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ١٩٩١ .

باللغـات العـالمية

Peuples d' Afrique
Editions du Cap. Monte Carlo 1971.
Egypte, Société militaire
Le Seuil,. Paris, 1962.
Ed, Italy (Einaudi, Turin, 1967): Spain (Editorial Lecons, Madrid, 1967): USA (Randon House-Vintage Books, 1971)

Anthologie de la littérature arabe contemporaine:
II. Les essais
Le Seuil, Paris 1965
Ocuxiéme édition revue et augmentée, 1970

Kûltur Emperyalizmi
Atac Kitabevi, Istanbul, 1967

Idéologie et renaissance nationale: L'Egypte moderne
Anthropos, Paris, 1969; 2éme 1975

I,a pensée politique arabe contemporaine
Le Seuil, Paris, 1970; 2éme éd.1975: 3EME Ed 1980)
Ed turkay (ALTAN Kiaplar. Ankara 1971)
Italy (Editori Riuniti, Roma, 1973.

Sociologie de L'impérialisme
Anthropos Paris, 1971.

L,a Dialeclique Sociale
Le Scuil, Paris, 1972
Ed. Japan (Iwanami Shotcn, Tokyo); spain
(Siglo xxi, Mexico); Italy (Dcdalo, Bari);
Porluguese (Paze Terra, Rio-de-janeiro);

L'armée dans la nation (Asie, Afrique, Amérique latine)
SNED, Alger 1975

La Renaissance du monde arabe
Ed. with Abdcl-Aziz Belat cl Hassan Hanafi
Dueulot, Bruxelles, 1982

Spéeifieité et Théorie Sociale
Authropos, Paris, 1977

The Project on «Socio-cultural Development Alternatives in a changing World
(SCA): Report on the Formative Stage, UNU Press, Tokyo 1980.

Social dialeeties (1): Civilisations and Social theory, the Macmillan Press landon and S.U.N.Y Press, Albany, N.y 1981

Social Diqleeties (2): Nqtion and Revolution, The Macmillan Press, London, and S.U.N.Y. Press, Albany, NY 1981.

Intellectual Crèativety in Endogenous Culture, (cd. With A. N. Pandeya), UNU Press Tokyo, 1982.

Seience and Teehnology in the Transform-

tion of the World (ed, with M. Pecuilic and G.Blue), UNU Press, Tokyo, 1982.

The Trqnsformqtion of the World: "Science and technolagy (ed, wigh m. pecujlic and G.Blue) the nocmilon Press, London, 1982.

The Transformation of the World: 2) Econa-my & Society (with M. Gonzaler), ibid; 1984.

The Trnaformation of the World: 3) Culture and Thought (with Amisannman), ibid; 1984.

Contemporary Arab Political Thought, Zed Press, London, 1983.

الفهرس

هـذا الكتـاب

هبّت رياح تغيير العالم عاصفة فى سنوات التحوّل الكبير : ١٩٤٩ - ١٩٧٣ أولا ، ثم ١٩٨٩ - ١٩٩١ ، بداية لصياغة عالم جديد . ومن هنا كان التساؤل ، فى أعماق الفكر والوجدان : هل من سبيل إلى الحفاظ على ساحة من حرية القرار ، لتحديد مسار يتفق وآمال الأجيال المتشابكة التى صاغت النهضة - نهضة مصر فى قلب العالم العربى - رغم الإنكسار والتردى ، وتصاعد الهيمنة من المركز المتقدم على شعب العالم المحيط .

فى هذه اللحظة التاريخية على وجه التحديد ، يصبح لزاما علينا أن نعود إلى الأركان الراسخة ، عبر الأجيال ، تحدد إطار إمكانات احياء القوى الكامنة من أجل إبداع المفاهيم والرؤى الجديدة القادرة على التعامل مع عالمنا المتغير ، وتمكيننا من الإسهام الفعال فى صياغة العالم الجديد

نعود لننطلق .

من هنا كانت وجهة مجموعة الدراسات والمحاولات المعنية باضاءة طريق الانتقال من « التنمية » إلى « النهضة الحضارية » : ان تكون بدايات للتساؤل ، والمراجعة النقدية ، والسعى المتصل إلى إبداع الفكر الجديد ، والبدائل الممكنة ، بعيدا عن الجمود الفكرى والقناعات المغلقة - إسهاما فى شق قنوات تحركنا المستقبلى .

رقم الايداع ٨٠٥٨ / ١٩٩١
I . S . B . N
977 - 07 - 0104 -1

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفي بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول . الصفاة - ص . ب رقم ٢١٠٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N